في أدب

الشيخ علي الطنطاوي

في أدب
الشيخ علي الطنطاوي

د. ياسر غريب





إهداء

إلى روح شيخي الجليل
أ.د. محمد عبد الحميد سالم (رحمه الله)

إهداءً لعله يليق بشيءٍ من فضله وإحسانه..

مقدمة

كان الشيخ علي الطنطاوي (١٩٠٩-١٩٩٩م) نسيجَ وحدِه، خبرةً وثقافةً وإبداعًا. وهو ما يتضح مع مطالعة ميراثه الفكري والإبداعي ممثلًا في كتبه ومقالاته وخطبه وأحاديثه الإذاعية، المطبوعة منها والمخطوطة. وقد نشر كثيرٌ منها في الصحف والمجلات العربية منذ ثلاثينيات القرن الماضي، ومنها ما مخبوءٌ في أرشيف بعض الإذاعات العربية وتلفزيوناتها. إنه تراث ضخم ما يزال في انتظار الجهود المُخلصة التي تقوم على استنقاذه وتجميعه وتصنيفه ودراسته.

وهو إنتاج لا تجد فيه سطرًا مكتوبًا أو لفظًا مسموعًا يخالف فيه منهجه الصارم الذي التزمه منذ كان خطيبًا مفوهًا أيام الصبا في ثانوية «عنبر»، ومنذ نشر أولى رسائله سنة ١٩٢٩م تحت اسم «رسائل الإصلاح». مرورًا بتألقه أديبًا متفننًا، عالي الصوت في الحق، مهيب القلم بين أكابر أدباء عصره، في كبريات الصحف والمجلات العربية، ومن بينها مجلة الرسالة، وما أدراك ما الرسالة؟! ثم شهرته إذاعيًا صاحب حديثٍ ينتظره المستمعون أو المشاهدون بشغف، لما فيه من فكرة وسطية مقرَّبة، ونبرة مميزة مُرَغّبة، ولغة يسيرة محببّة.

عاش الطنطاوي حياة مديدة عبر القرن العشرين، فتحصلت له خبرة السنين، وتجارب الأيام، وكان قلمه في يده كالسيف يضرب به

يمينًا وشمالًا، في معاركه التي اصطف فيها مع المصلحين الكبار، فإذا شئت أن تختصر معاناته في عبارة فهي أن «معاناة الطنطاوي الوطنية والاجتماعية لم تكن لتنتهي إلا بانتهاء الهمّ الإسلامي».

والمُطلع على موروث الطنطاوي يجده أديبًا يكتب المسرحية والقصة والمقال ويُدلي بدلوه في قضايا النقد واللغة والأدب. ويجده مؤرخًا يسرد -على طريقته- مواطن القوة في التاريخ، وما عاصره من أحداث جسام مرت بالأمة منذ سقوط الخلافة مرورًا بنكبة فلسطين وضياع الأمة في قبضة الاحتلال الأجنبي بلدًا بعد آخر.

وهو رحالة يستكشف طريق الحج، ويجوب البلاد يستنهضها لإنقاذ فلسطين، ويعرض لنا ما عرفه عن هذه البلاد من تاريخ وجغرافيا، كاشفًا ما يميز أهلها وطبائعهم. وهو ناشطٌ سياسيٌّ، يساند حركات التحرر في البلاد العربية الإسلامية، وينتقد بعض السياسات الداخلية، ويقيِّمها، ويوازن بين الأفكار المطروحة في المجتمع، ويهذبها لتتفق مع المجتمع وهويته.

وهو مصلحٌ اجتماعيٌّ لا يترك شاذة ولا فاذة مرت عليه من سلبيات اجتماعية إلا انتقدها وحاول علاجها. وهو داعية وفقيه، يتخذ من الوسطية منهجًا، ومن اليسر أسلوبًا، ومن الوعي بإفهام الفرد ومصالح الأمة واتساقها مع الشرع، وعدم تعارضها مع المجتمع وأعرافه؛ دليلًا ونبراسًا.

هذه الخبرات المتعددة والمنصهرة معًا كانت عُدّة الشيخ علي

الطنطاوي، في مسيرته الإبداعية. وقد كان فنا المقال والخطابة هما أقرب الفنون إليه، وأغزرها عنده، فمن خلالهما وصل سريعًا للقرّاء والمستمعين، وعالج الأزمات الطارئة، وواكب الأحداث المتسارعة. ولم تكن خطبه الإذاعية، في معظمها، ارتجالية، بل كان يكتبها في صورة مقال قبل إذاعتها، ثم ينشرها لاحقًا في هيئة مقال.

لذا كان الشيخ علي الطنطاوي (مقاليًا) مميزًا، من أصحاب الأساليب، يستحق أن يحصل على مقعده إلى جانب الكبار في هذا الفن من أمثال المنفلوطي والزيات والرافعي وأحمد أمين والعقاد وطه حسين ومحمود شاكر، وغيرهم ممن ملئوا الدنيا أدبًا وفكرًا، وكانوا ملء السمع والبصر في المحافل الأدبية والثقافية في منتصف القرن الماضي.

وهو كما كان خطيبًا بارعًا، ومقاليًا متفننًا كان قصاصًا رائعًا، قدَّم مجموعة مميزة من القصص التاريخية والإنسانية، إضافة إلى مجموعة من القصص التي اختص بها الناشئين.

وللأسف الشديد، فقد ضاع كثيرٌ من تراثه؛ كالمسرحيات التي كانت حديث دمشق في مطلع ثلاثينيات القرن الماضي، وضاعت كثيرٌ من قصصه التي ألَّفها، وكثيرٌ جدًا من مقالاته وأحاديثه الإذاعية. فلعلها تجد مَن يقف عليها ويستخرجها لتضاف إلى ما اطَّلع عليه القراء من إنتاجه المطبوع.

وإننا إذ نحاول في هذا الكتاب التعريف بالشيخ علي الطنطاوي أديبًا مثاليًا ملتزمًا عاش عمره حاملًا على عاتقه هموم

أمته، ونستعرض أهم القضايا التي عالجها خلال مسيرته الأدبية في المجالات النضالية والاجتماعية والدينية والنقدية واللغوية؛ فإننا نسلط الضوء على مهمة الأديب في الحياة، وما ينبغي أن يكون له من اتصال وثيق بأمته وقضاياها العادلة، والذود عن حماها وهويتها.

المؤلف

نشأته وحياته

نسبه وأسرته

اشتهر (محمد علي بن مصطفى بن أحمد الطنطاوي) باسم الشيخ (علي الطنطاوي) في جميع الأوساط الشعبية والعلمية[1].

والذي يتبادر إلى الذهن عند سماع لقبه (الطنطاوي) أنه يندرج من أصول مصرية (من مدينة طنطا)، فقد نزح جده أحمد بن علي ابن مصطفى إلى دمشق سنة ١٢٥٥هـ برفقة عمه الشيخ محمد بن مصطفى، وكان عمه هذا عالمًا أزهريًا حمل عِلمَه معه إلى ديار الشام. وهناك جدد فيها العناية بالعلوم العقلية، ولا سيما الفلك والرياضيات[2].

أما والده الشيخ مصطفى الطنطاوي؛ فقد كان من العلماء المعدودين في الشام. انتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. وصفه عليٌّ في ذكرياته بأنه من صدور الفقهاء ومن الطبقة الأولى من المعلمين والمربين[3]، إذ كان مديرًا للمدرسة التجارية[4]، ثم وَلي رئيس ديوان محكمة النقض

---

(١) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ ص١٣١، ١٣٢.

(٢) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص٩.

(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ص١١١.

(٤) كانت المدرسة التجارية مدرسة جامعة، ومن أشهر مدارس الشام، فيها قسم للابتدائي والإعدادي والثانوي، ومجمع الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة،=

عام ١٩١٨م، إلى أن توفي في عام ١٩٢٥م، وعمر ابنه علي آنذاك ست عشرة سنة وثلاثة أشهر[١].

«وهو لم يكن معدودًا رسميًا في قضاة المحكمة، بل كان في رأس سلم المساعدين القضائيين، ودون رتبة المستشارين، ولكنهم كانوا يدعونه إلى كل جلسة تدرس فيها دعوى مدنية لها صلة بالفقه، فكان يشارك في المناقشات، ويؤخذ رأيه في الآراء، وكان الحكم يصدر حيث يكون رأيه»[٢].

أما أسرة والدته؛ فكانت من الأسر العلمية المعدودة في الشام، وكان كثيرٌ من أفرادها من العلماء المعدودين، وهي أسرة «الخطيب»، فخاله هو «محب الدين الخطيب» الذي استوطن مصر وأنشأ صحيفة الفتح ومجلة الزهراء، وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع القرن الماضي[٣]. وقد نشر الطنطاوي في هاتين الصحيفتين أول ما نشر حينما كان طالبًا في دار العلوم في مصر سنة ١٣٤٨هـ[٤].

= وسميت بذلك الاسم؛ لأن الذي فتحها جماعة من التجار، انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ ص٢٩.

(١) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص ١١.
(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ص٣٥.
(٣) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص ١١.
(٤) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٥ (المقدمة).

ثقافته ورحلاته

كان الطنطاوي من أوائل الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ والدراسة في المدارس النظامية، فقد تعلم في المدارس النظامية إلى أن تخرج في الجامعة، وكان إلى جانب ذلك يقرأ على المشايخ علوم العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم، وقد عَدّ من مشايخه الذين قرأ عليهم - في حاشية طويلة في أول كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» - طائفة منهم يجاوزون الأربعين[1].

«تلقى الطنطاوي تعليمه الابتدائي على العهد العثماني؛ فكان طالبًا في المدرسة التجارية التي كان أبوه مديرًا لها إلى سنة ١٩١٨م، ثم في المدرسة الحكومية السلطانية الثانية، وبعدها في المدرسة الجقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة ١٩٢٣م، ثم دخل مكتب عنبر الذي كان الثانوية الوحيدة الكاملة في دمشق حينذاك، ومنه نال البكالوريا سنة ١٩٢٨»[2].

ولما كان مكتب عنبر هذا شأنه، فقد كان يأتي إليه الطلاب من كل مكان ليكملوا دراستهم فيه، فلذلك اختاروا لتدريس كل علم فيه أكابر علمائه[3]. وكانت الدراسة في مكتب عنبر ست سنوات،

---

(١) انظر: تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص ٧، ٨.

(٢) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص١١، ١٢.

(٣) مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، جمعها ورتبها وقدَّم لها: مجد مكي، دار =

اعترف الطنطاوي كثيرًا بفضلها، وبأساتذته في تلك الفترة وأثرهم على فكره وأدبه، حتى وصل الأمر إلى أنه تحدث عن مكتب عنبر أكثر من ستين مرة في ذكرياته[١].

وبعد مكتب عنبر ذهب إلى مصر، ودخل دار العلوم العليا، وكان أولَ طالب من الشام يؤم مصر للدراسة العالية، ولكنه لم يتم السنة الأولى وعاد إلى دمشق في السنة الثانية ١٩٢٩م، فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣م[٢].

ويقف الدارس لأدب علي الطنطاوي أمام لونين من الثقافة؛ **الأول**: الثقافة اللغوية والأدبية- إن صح تسميتها بالثقافة – **والثاني**: الثقافة الفكرية من دين وفلسفة. وكلاهما انصهر في إبداعاته المتنوعة، حتى انتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي في بغداد، وفي مجال الفكر الإسلامي، إلى أنْ توج بحصوله على جائزة الملك فيصل في العام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م[٣].

= المنارة، ص٤٣، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٧م. (من مقدمة علي الطنطاوي لكتاب «مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية» للأستاذ ظافر القاسمي).

(١) انظر: فهارس ذكريات علي الطنطاوي، إعداد أحمد العلاونة، ص١٨١-١٨٢، دار المنارة، جدة، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص١٢.

(٣) انظر: تقرير: (الفائزون بجائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٠هـ)، بدون مؤلف، مجلة الفيصل، ص١١٧، العدد (١٥٨)، شعبان ١٤١٠هـ، مارس ١٩٩٠م.

و«الدارس لأدب الطنطاوي يجد أنه ولج باب الأدب ناضج الفكرة، متسلحًا بأدوات الأدب العبقري، عن موهبة لا يملكها إلا أمثاله، وما أقلهم»[١]. وفي محاولة للبحث عن المؤثرات الثقافية المختلفة في حياته تظهر كثيرٌ من هذه المؤثرات، التي يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١. النشأة الإسلامية العلمية التي تربَّى عليها، حيث كان والده من فقهاء الشام ومربيها، وقد ترك له مكتبة ضخمة أفاد منها كثيرًا[٢].

٢. رغبته المبكرة في الاطلاع على كتب الأدب العربي، إذ قرأ أمهات الكتب الأدبية كالأغاني وغيره في سن صغيرة[٣].

٣. إن الطنطاوي يعدُّ من أولئك الذين مثَّلوا الحلقة المفقودة - كما سماها الأستاذ أحمد أمين[٤] – وذلك أن المثقفين كانوا

(١) روائع الطنطاوي: روائع من أدبه وفوائد من كتبه، إبراهيم مضواح الألمعي، ص٨.

(٢) انظر: ذكريات ج١ص٧١.

(٣) انظر: مجلة المعلم العربي (مجلة وزارة المعارف السورية) ص ٧٣ العدد (٦) سنة ١٩٦٦م، (حوار مع علي الطنطاوي). وانظر أيضًا: مجلة الوعي الإسلامي العدد (٣٨٤) شعبان ١٤١٨هـ/ديسمبر ١٩٩٧م، ص ٧١، (حوار شائق مع الشيخ المتألق علي الطنطاوي).

(٤) انظر: مجلة الرسالة، مقال (الحلقة المفقودة) للأستاذ أحمد أمين، العدد الأول، ١٨ رمضان هـ١٣٥١هـ. وانظر أيضا: من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص ٢١٤.

ينقسمون قسمين؛ قسم من علماء الدين لا يفقه أكثرهم من الثقافة الحديثة شيئًا، وقسم عرفوا العلوم الحديثة ودرسوها في المدارس والجامعات الغربية، ولكن أكثرهم لا يفقه من علوم الدين شيئًا، وأكثرهم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، فكان الطنطاوي من أول من جمع بين الثقافتين[1].

٤. معرفته باللغة الفرنسية التي تعلمها في أثناء الاحتلال الفرنسي للشام، مما ساعده على الاتصال المباشر بالأدب الفرنسي فقرأ لكبار الكُتاب والأدباء الفرنسيين[2].

٥. دراسته للقانون والأدب[3]، وعمله بالصحافة والقضاء والإعلام والتعليم[4]، كل ذلك كان من روافد الثقافة التي حصّلها، و إذا أضفنا إلى ذلك أنه كان خطيبًا مفوهًا منذ شبابه الباكر، وأنه كان يقود الجموع ضد الاحتلال الفرنسي[5]، أدركنا شيئًا من سر حضوره الجماهيري في أحاديثه الإذاعية، وفي لغته المقروءة، وفي أسلوبه المكتوب.

(١) مجلة (المعرفة)، العدد(٥٠)، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ، ص٩٤، مقال (مثل الذي بك يا دمشق من الأسى والحزن ما بي)، إبراهيم مضواح الألمعي.

(٢) انظر: مجلة المعلم العربي العدد (٦) السنة(١٩) سنة ١٩٦٦م، وانظر أيضًا: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص٣٩.

(٣) انظر: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص ١٢.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٣-٣٠.

(٥) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص٥.

٦. تأثره ببعض الشخصيات الكبيرة التي التقاها أو عمل معها من أمثال محب الدين الخطيب، وأستاذيه الجندي والمبارك اللذين أهدى لهما مع المنفلوطي كتابه الأول «الهيثميات» سنة ١٩٣٠م، ووصفهما بـ «شيخي علمي العربية»[١]. بينما كان أحمد حسن الزيات ومجلته الرسالة من أهم مَن أثر في الطنطاوي وثقافته وأسلوبه، وقد اعترف الطنطاوي بفضل الزيات ومجلته عليه غير مرة[٢]. كما تأثر في شبابه بمصطفى صادق الرافعي، ومعروف الأرناؤوط صاحب جريدة فتى العرب، الذي اعترف الطنطاوي في ذكرياته بأنه استفاد من أدبه كثيرًا[٣]. ومحمد كرد علي الذي كان «أنشط أديب أطلعته دمشق في النصف الأول من القرن العشرين»[٤].

أما عن رحلاته فقد «كانت لعلي الطنطاوي مشاركات في طائفة من المؤتمرات؛ منها حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدتها جامعة الدول العربية في عهد أديب الشيشكلي، ومؤتمر الشعوب العربية في نصرة الجزائر، ومؤتمر تأسيس رابطة العالم

(١) انظر: الهيثميات، علي الطنطاوي، ص ٢.

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص٣١، ج ٥ ص١١.

(٣) انظر مجلة المعلم العربي، العدد (٦) السنة(١٩) سنة ١٩٦٦م، ص ٧٦.

(٤) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا (٢-المجمعيون)، بقلم د.محمد مهدي علام «عضو المجمع»، بالاشتراك مع محمد عبد الحليم عبد الله، ضاحي عبد الباقي، القاهرة، ص ١٩٤، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

الإسلامي، واثنان من المؤتمرات السنوية لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا. ولكن أهم مشاركة له كانت في المؤتمر الإسلامي الشعبي في القدس عام ١٩٥٣م، الذي تمخَّض عنه سفرته الطويلة في سبيل الدعاية للقضية الفلسطينية، التي جاب فيها باكستان والهند والملايو وإندونيسيا»[1].

وقد أثْرَت رحلات الطنطاوي مكتبة أدب الرحلات بعدد من الكتب وكثير من المقالات، «وهو في حديثه عن رحلاته لم يكن يكتفي بذكر جمال طبيعة البلاد التي يزورها أو قسوة الظروف التي يعانيها، بل كان يبرز دائمًا ما خلفته هذه الديار من مشاعره وأحاسيسه، ويستعرض أحيانًا تاريخ تلك البلاد بإيجاز، ودخول الإسلام إليها، والظروف الاجتماعية التي يعيشها الشعب فيها، وعاداته وتقاليده، وما قام به من بطولات وما قدمه من تضحيات حتى تحرر من الاستعمار»[2]. وهو يقول عن ذلك: «وأنا حين أهم بالكتابة عن بلد لا أصف طبيعة أرضه، ولا تحديد مساحته وحاصلاته، ولكن أحاول أن أصف مدى شعوري به، ومبلغ ما له في نفسي»[3].

---

(١) مقال: (سيرة الشيخ علي الطنطاوي)، بقلم مجاهد مأمون ديرانية، مجلة الأدب الإسلامي، (عدد مزدوج خاص عن الشيخ علي الطنطاوي)، العددان ٣٤و٣٥، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) مقال: (أدب الرحلات عند علي الطنطاوي)، بقلم صدقي البيك (فلسطين)، مجلة الأدب الإسلامي، (عدد خاص عن الشيخ علي الطنطاوي).

(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ ص ٨١.

تحدث في مؤلفاته عن زيارته لمصر مرورًا بفلسطين، وعن زيارته لبغداد سنة ١٩٣٦م، وعن زيارته للقدس ١٩٥٣م[١]، وإلى كراتشي[٢] ودلهي[٣]، وسنغافورة وماليزيا[٤]، وإلى ألمانيا، كما تحدث عن ذهابه إلى الحجاز[٥]. وتعد رحلته إلى الحجاز عبر الصحراء من أهم سفراته، إذ انطلقت الرحلة من أجل استكشاف طريق الحج البري بين الشام والحجاز، وقد شغلت هذه الرحلة كثيرًا من مقالاته، ثم جَمَعَ معظمَها في كتاب[٦].

أما رحلاته إلى مصر، فكان لها تأثير كبير في حياته؛ لعدة أسباب:

الأول: أن ذهابه إلى مصر كان يمثل الرحلة الأولى، وكانت في صدر شبابه سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، وتركت هذه الرحلة أثرًا كبيرًا في نفسه وفكره، وهو يصف شعوره عن مصر في هذه الرحلة: «كانت مصر في خيالنا دنيا مسحورة، فيها العجائب، وكل مرغوب

(١) انظر: المرجع السابق ج٤ص٢٤١، ج٥ ص١٢٣بالإضافة إلى تأليف كتاب خاص بعنوان (بغداد.. مشاهد وذكريات)، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٢) (إندونيسيا... صور من الشرق، علي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢.

(٣) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص١٧٧.

(٤) انظر: المرجع السابق، ج ٦ص١٠٩.

(٥) انظر: المرجع السابق، ٧ص٢٠٢.

(٦) من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

فيها، يأتينا منها المجلات والصحف. الحركات الوطنية والفكرية تنبثق منها، الرجال الذين نقرأ لهم، والشعراء الذين نحفظ شعرهم؛ منها»[١].

الثاني: أن رحلته الأولى إلى مصر أتاحت له فرصة الالتقاء بخاله محب الدين الخطيب، وعنده ذاق حلاوة العمل الصحفي، حين عمل محررًا في مجلة الزهراء، وظل اسمه بعد ذلك وأعماله مرتبطة بالصحافة إلى أن توقف نهائيًا عن الكتابة[٢].

وعن قيمة هذه الرحلة يشير الطنطاوي إلى أنه في مصر قويَ قلمُه، وانتقل من الأسلوب الحماسي المحشو بالمبالغات، والجمل التي لها دوي كدوي الطبل، إلى أسلوب هو أقرب إلى الأصالة والرصانة، وألف أعواد المنابر، وتبدلت طريقته في الخطابة من الحماسة والصراخ وكثرة الإشارات إلى الحديث الهادئ [٣].

ثالثًا: أنه شهد الحركة الثقافية عن قرب في المطبعة السلفية حين التقى في مصر جلة علمائها من رجال العلم والأدب من أمثال أحمد تيمور باشا ومصطفى صادق الرافعي والشيخ كامل القصاب[٤]، ثم عرف بعد ذلك أحمد حسن الزيات وأحمد أمين وسيد قطب

(١) انظر: ذكريات (مرجع السابق)، ج١ص٢٤٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٢ص٦-٩.

(٣) انظر: المرجع السابق، ج١ص٢٦٣.

(٤) انظر: المرجع السابق، ج١ص٢٦٢-٢٦٣.

وغيرهم من رموز الثقافة في مصر آنذاك[١].

رابعًا: أن رحلاته إلى مصر تواترت بعد رحلته الأولى؛ فقد ذهب طالبًا في كلية دار العلوم سنة (١٩٢٩-١٩٣٠م)، لكنه لم يكمل دراسته وعاد إلى دمشق في العام الذي يليه[٢]. ثم رحل إليها عدة مرات ما بين أعوام (١٩٤٣م و١٩٤٧م)، لوضع بعض المشروعات القانونية وصياغتها، حيث التقى عددًا كبيرًا من مشايخ الأزهر الشريف وعلمائه وقضاة مصر وأساتذة الحقوق والجامعات فيها[٣].

كما كانت له سفرة أخرى إلى مصر، بعدما كلفته الحكومة السورية بتعديل قانون الأوقاف، ومناهج الثانويات التي وضعها وحدَهُ بعدما قَدِمَ إلى القاهرة، واجتمع فيها بالقائمين على إدارة التعليم في الأزهر، واعتُمِدَتْ كما وضعها[٤].

حياته العملية

تجدر الإشارة إلى أن هناك عددًا من المؤثرات يُحَبَّذ الوقوف عليها بشيء من التفصيل، إذ كان لها أثر كبير في شخصية الطنطاوي وأدبه:

(١) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص٢٤.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٥ (المقدمة).

(٣) انظر: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص٢٥.

(٤) المرجع السابق، ص٢٥.

(أ) الصحافة:

يرى الطنطاوي في الصحافة أنها «لسان الشعب؛ تعلن شكاواه، وتدفع المظالم عنه، وتكشف كربه، وتصف آلامه»[1]. وهو يقول عن العمل الصحفي: «إني ذقت لذة العمل في الصحافة، لا كاتبًا فيها أو (مراسلاً) لها من خارجها، بل عاملاً فيها من داخلها، وبدأت من فوق، من مجلة الزهراء التي كانت يومئذ المجلة الأدبية الأولى»[2].

وكان قد بدأ الكتابة للصحف في وقت مبكر جدًا، حيث نشر أولى مقالاته في جريدة «المقتبس» سنة ١٩٢٦م، وكان صاحبها ومدير تحريرها الأستاذ محمد كرد علي. وبعد هذه المقالة لم ينقطع عن الصحافة قط، فعمل بها في كل فترات حياته، ونشر في كثير من الصحف؛ شارك في «الفتح» و«الزهراء» حين زار مصر، ولما عاد إلى الشام في السنة الثانية، عمل في جريدة «فتى العرب» مع الأديب معروف الأرناؤوط، ثم في «ألف باء» مع شيخ الصحافة السورية يوسف العيسى، ثم كان مديرًا لتحرير الأيام التي أصدرتها الكتلة الوطنية سنة١٩٣١م، وهو لا يزال طالبًا بكلية الحقوق، ورأس تحريرها الأستاذ عارف النكدي، وله فيها كتابات وطنية كثيرة، وخلال ذلك كان يكتب في «الناقد» و«الشعب» كذلك... الخ[3].

---

(١) فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية، ص ٤٣، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ص ٢٦٥.

(٣) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص١٥.

وفي سنة ١٩٣٣م أنشأ الأستاذ أحمد حسن الزيات المجلة الكبرى «الرسالة» فكان الطنطاوي من كتابها الدائمين لمدة عشرين سنة إلى أن احتجبت سنة ١٩٥٣م، وكان يرسل إليها مقالين شهريًا، وكان يأخذ أجرًا على مقالاته، وكانت «الرسالة» لا تدفع أجورًا إلا لكبار الكُتاب، بل كان الطنطاوي أول من أخذ مكافأة مالية على مقالاته بعد الرافعي والعقاد وطه حسين وأمثالهم[١]. وفي الرسالة كانت أفضل مقالاته، كما كانت له فيها معارك شرسة، ومداخلات حادة، اشتهر بها قلمه[٢].

وقد قال عنه الزيات صاحب الرسالة: «الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي كما يحب أن يدعى ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهية عميقة. وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة، فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب، وهو ونفر من صحابته يمثلون سوريا الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم، وعقلية تنكر التجدد.

---

(١) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص ٣٣.

(٢) انظر: مجلة الأربعاء، ١٦ ربيع الأول ١٤٢٠هـ، ص ١٩، (حوار مع حفيد الشيخ علي الطنطاوي مجاهد مأمون ديرانية). حيث ذكر أن لدى الشيخ في مكتبته الخاصة كتابًا ضخمًا جمع فيه معاركه الأدبية والفكرية، ولكنه لم يُطبع بعد.

وليس الأستاذ الطنطاوي مجهولاً لدى قراء الرسالة فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة في الأدب والتاريخ والقصص، ينقلها عن فكر خصب، واطّلاع واسع، ومنطق سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة»[1]، كما عده الزيات من الشباب أصحاب الأساليب البليغة الذين قال فيهم: «وليس فيهم من لقف ثقافته من المجلات، أو لفق أسلوبه من السرقات، وإنما درسوا الآداب القديمة درسًا عميقًا، واتصلوا بالمعارف الحديثة اتصالًا وثيقًا»[2].

وفي سنة ١٩٤٧ طلب الزيات منه أن يشرف على تحرير «الرسالة»، وفي هذه الفترة أفسح الطنطاوي المجال لبعض الكُتاب الشبان آنذاك لينشروا مقالاتهم الأولى من أمثال د.محمد رجب البيومي، ود.صبحي الصالح وغيرهما[3].

كما كتب إلى جانب ما سبق في بعض الصحف والمجلات الأخرى مثل «الثقافة» لصاحبها الأستاذ أحمد أمين، «والأزهر» المصرية، و«حضارة الإسلام» الأردنية، و«الحج» السعودية، وجريدتي «المسلمون» و «الشرق الأوسط»؛ حيث نشر ذكرياته على مدى نحو من خمس سنين[4]... وغيرها.

---

(١) مجلة الرسالة العدد (١٠١) ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ.

(٢) دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ص ١٤٩، مطبعة الرسالة، ١٩٤٥م.

(٣) انظر: مقال «الشيخ علي الطنطاوي» بقلم د.محمد رجب البيومي، مجلة المنهل السعودية، ص ٩٠-٩٤ العدد (٥١٦) رجب ١٤٢٠هـ.

(٤) من أوراق خاصة بخط الشيخ علي الطنطاوي (نسخة مصورة أعطاها للباحث الأستاذ عمرو حتاحت حفيد الشيخ).

(ب) التعليم[1]:

إذا كانت الصحافة هي المهنة التي أحبها الطنطاوي؛ فإن التعليم هو العمل الذي ملأ حياته، فقد بدأ في مهنة التدريس وهو لم يزل طالبًا في المرحلة الثانوية؛ إذ بدأ بالتدريس في المدارس الأهلية بالشام وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره (في ١٣٤٥هـ)، وقد طبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية العلمية الوطنية في دروس الأدب العربي عن «بشار بن برد» سنة ١٩٣٠م (أي عندما كان في الحادية والعشرين من العمر).

وحين أغلقت السلطات جريدة «الأيام» التي كان يعمل مديرًا لتحريرها انتقل للتعليم الابتدائي في مدارس الحكومة سنة ١٩٣١م، وبقي في التعليم الابتدائي إلى سنة ١٩٣٥م، ثم انتقل إلى العراق سنة ١٩٣٦م مدرسًا في الثانوية المركزية في بغداد ثم في ثانويتها الغربية، ودار العلوم الشرعية التي صارت فيما بعد كلية الشريعة، وفي فترة عمله في العراق أَلَّف كتابه «بغداد: مشاهد وذكريات».

وبقي علي الطنطاوي يدرس في العراق حتى عام ١٩٣٩م، لم ينقطع غير سنة واحدة قضاها في بيروت مدرسًا في الكلية الشرعية عام ١٩٣٧م. بعدها عاد إلى دمشق حيث عُين أستاذًا معاونًا في «مكتب عنبر» حتى نقل إلى دير الزور سنة ١٩٤٠م؛ وذلك

(١) انظر: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص١٦-٢٢.

بسبب مشاغبات لم تنته فقط بنقله، و إنما انتهت إلى أن فُصِل بأمر المستشار الفرنسي آنذاك.

وهكذا ترك الطنطاوي التعليم ليدخل في مرحلة جديدة وهي مرحلة العمل في القضاء، التي قضى فيها خمسًا وعشرين سنة، عاد بعدها مرة أخرى للتعليم في (الكليات والمعاهد) الشرعية في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٦٣م.

(جـ) القضاء[١]:

تعد فترة عمله بالقضاء من أخصب الفترات التي أثرت في حياته وأدبه، فقد مكث في القضاء خمسة وعشرين عامًا، منذ نجح في امتحان القضاء وعين قاضيًا في «النبك» و«دوما»[٢]، ثم قاضيًا ممتازًا في دمشق ثم مستشارًا لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر.

وقد اقترح – حينما كان قاضيًا في دوما – وضع قانون كامل للأحوال الشخصية، فكلف بذلك عام ١٩٤٧م، وأوفد إلى مصر مع عضو محكمة الاستئناف الأستاذ (نهاد القاسم) الذي صار وزيرًا للعدل أيام الوحدة، فأمضيا تلك السنة كلها هناك، إذ كُلّف هو بدرس مشرعات القوانين الجديدة للمواريث والوصية وسواها كما

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٢-٢٦.

(٢) النبك: بلدة في جبال لبنان الشرقية، وهي بلدة قرب دمشق، محافظة ريف دمشق. فيها دير مار موسى الأثري. عدد سكانها ٢٥,٠٠٠ نسمة، ودوما: قرية من قرى دمشق.

كلف زميله بدرس مشروع القانون المدني، وقد أعد هو مشروع قانون الأحوال الشخصية كله، وصار هذا المشروع أساسًا للقانون الحالي، كما أشير إلى ذلك في مذكرته الإيضاحية.

كان القانون يخول للقاضي الشرعي في دمشق رئاسة مجلس الأوقاف وعمدة الثانويات الشرعية، فصار الطنطاوي مسئولًا عن ذلك كله خلال العشر سنين التي أمضاها في قضاء دمشق، فقرر أنظمة الامتحانات في الثانويات الشرعية، وكانت له يد في تعديل قانون الأوقاف ومنهج الثانويات، ثم كلف عام١٩٦٠م بوضع مناهج الدروس فيها فوضعها وحده - بعدما سافر إلى مصر واجتمع فيها بالقائمين على التعليم في الأزهر- واعتمدت كما وضعها.

وقد استمر الطنطاوي قاضيًا رسميًا حتى أواسط عام١٩٦٦م، حين سرح عدد من القضاة الذين لم يسايروا عهد الاشتراكية الجديد في الشام[١].

(د) العمل الإذاعي:

يقول الدكتور أحمد بسام ساعي: «على الرغم من تألق عديد من المحدثين العرب في ثلث القرن الأخير، على مدى حدود الوطن العربي، يظل علي الطنطاوي المحدث العربي الأكبر الذي يستقطب من أعداد الجمهور ما لا يطمح إليه الآخرون، ويظل كذلك الأفضل بين من نستعين بطرائقهم التحديثية حين نضع

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ ص٦٩.

القواعد الفنية للحديث الإذاعي»[١].

بدأ الطنطاوي عمله الإذاعي مبكرًا جدًا، وفي أوائل الثلاثينات من القرن الماضي كان من أوائل أصحاب الأحاديث الإذاعية في العالم العربي، إذ بدأ يذيع الأحاديث من إذاعة الشرق الأدنى في يافا، التي أنشئت بعد إذاعة مصر بسنة واحدة، ولم تنقطع أحاديثه إلا فترات قليلة خلال هذه المدة الطويلة حتى بلغ الثمانين من عمره[٢].

أذاع أحاديثه كذلك من إذاعة بغداد سنة ١٩٣٧م، ومن إذاعة دمشق سنة ١٩٤٢م لأكثر من عقدين متصلين، «وقد كان له في الخمسينيات حديث أسبوعي شيق من إذاعة دمشق بعد صلاة الجمعة، وكان الناس يتسابقون إلى سماعه والإعجاب به؛ لأنه يعالج قضايا تهم المجتمع الإسلامي؛ مثل تدهور الأخلاق والاختلاط بين الجنسين في الجامعات والمنتديات، وإفساد المرأة باسم التحرر والتقدم، وإشاعة المنكرات في وسائل الإعلام باسم الحرية الشخصية، وكشف العورات باسم الترفيه، والسماح بالرقص للطالبات باسم الفن» [٣].

(١) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د.أحمد بسام ساعي، ص١٣٩، دار المنارة للنشر، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٠م/ ١٤٠٩هـ.

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ ص٢٠٣.

(٣) مقال (كلمة رثاء.. ودمعة وفاء على فقيد الأمة الإسلامية علي الطنطاوي)، مجلة النور الكويتية، طارق الحاج إبراهيم، ص٤٤، عدد رجب١٤٢٠هـ/ تشرين الأول١٩٩٩م.

وعندما ذهب إلى المملكة العربية السعودية في بداية الستينيات كُلف بإعداد برامج إذاعية وتلفزيونية وتقديمها، فكان برنامجا «مسائل ومشكلات» في الإذاعة، و«نور وهداية» في التلفزيون، وقد قُدِّرَ لهما أن يكونا أطول البرامج عمرًا في تاريخ إذاعة السعودية وتليفزيونها، إذ استمر البرنامجان لمدة خمس وعشرين سنة، فبرنامجه «نور وهداية» بدأ سنة ١٩٦٧م، وكان له – قبله- برنامج عنوانه «صور من أمجادنا»[١].

كما كان يقدم برنامجًا في شهر رمضان يسمى «على مائدة الإفطار»، وهو برنامج يومي في ذلك الشهر، كما كان له برنامج تعليمي يسمى «التوعية الإسلامية» كانت تشرف عليه وزارة المعارف[٢].

صفاته وأخلاقه:

العنصر النفسي أصيل بارز في العمل الأدبي، وإذا ذهبنا إلى أن تعريف العمل الأدبي هو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية، وجدنا العنصر النفسي بارزًا في كل خطوة من خطواته. فالتجربة الشعورية ناطقة بألفاظها عن أصالة العنصر النفسي في مرحلة التأثير الذي يوحي به التعبير[٣].

---

(١) انظر: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، مجاهد مأمون ديرانية، ص ٢٧.

(٢) انظر: مقال (المكتبة السمعية والمرئية للشيخ علي الطنطاوي) مجلة الأدب الإسلامي، (عدد خاص عن الشيخ علي الطنطاوي) ص٧٩.

(٣) انظر: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، ص١٨٤.

من هنا تأتي أهمية معرفة شخصية الأديب محل الدراسة لتضيء لنا الطريق في التعرف على الإبداع الأدبي الذي أنتجته هذه الشخصية.

ويمكن التعرف على أخلاق علي الطنطاوي وشخصيته واتجاهاته من عدة مصادر رئيسة:

الأول: سيرة علي الطنطاوي، وخاصة ما كتبه هو عن نفسه، وهو كثير.

الثاني: مؤلفاته.

الثالث: ما قاله تلامذته وأبناؤه وأصدقاؤه عنه[1].

وهي في مجملها تشير إلى أن الصبغة الإسلامية والتوجه الملتزم كان أهم ملامح شخصيته منذ صغره، فإذا تعاملنا أولاً مع سيرة علي الطنطاوي نجد أن اسمه «اقترن بلقب (الشيخ) منذ عام ١٣٣٧هـ، أي وله من العمر عشر سنوات؛ وذلك لسمته واتصاله بالدعوة والتدين»[2].

(١) وقد أمد بعض هؤلاء الباحث كثيرًا بالمراجع والمعلومات والإحالات من أمثال الدكتور محمد رجب البيومي والدكتور عبد اللطيف عبد القادر أبو بكر من مصر والأساتذة إبراهيم مضواح الألمعي والأستاذ أحمد علي آل مريع من السعودية، والدكتور عبد القدوس أبو صالح من سوريا، وكذلك صهر الشيخ علي الطنطاوي الأستاذ نادر حتاحت، وحفيده الأستاذ عمر حتاحت.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي (دراسة فنية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

وكان حصوله على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام ثمرة لاتجاهات الطنطاوي ذات النزعة الإسلامية، وتتويجًا لجهوده في مجال خدمة الإسلام على مدار أكثر من نصف قرن، وجاء هذا التكريم لأسباب بينتها الأمانة العامة للجائزة في حيثيات التكريم، ومنها:

«- تميز الطنطاوي بالعمل المتواصل والبذل والعطاء طوال ستين عامًا في مختلف المجالات التعليمية والثقافية والقضائية والاجتماعية.

- بذل كل ما يستطيع في رد الشبهة ونقض الأباطيل بالمناقشة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهدايته للناس إلى الحق بالفتوى الرشيدة والدعوة الصادقة.

- انفراده في دعوته إلى المنهج السليم بإبداع في مناهج القول والكتابة، يتميز بالطرافة والسهولة، والنفاذ إلى قلوب مخاطبيه ومستمعيه: رجالًا ونساءً شرقًا وغربًا»[1].

في الأدب، إعداد الباحث أحمد علي آل مريع عسيري، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، شعبة الأدب (مخطوطة) ج٢ص٤٧، ومرجعه مقابلة شخصية بين الباحث والشيخ علي الطنطاوي بتاريخ ١٤١٧/٦/٢٠هـ بمنزله في جدة.

(١) جريدة عكاظ السعودية، ص ١٦، العدد ٨٦٣٧، الأربعاء ١٠شعبان ١٤١٠هـ/ ٧مارس ١٩٩٠م. وجريدة المدينة السعودية، ص ٤ العدد ٨٣٣٥، الأربعاء ١٠شعبان ١٤١٠هـ/٧مارس ١٩٩٠م. وجريدة الندوة السعودية، ص ٥ العدد ٩٤٦٤، الأربعاء ١٠شعبان ١٤١٠هـ/٧مارس ١٩٩٠م.

مكانته الثقافية ومؤلفاته

ترك الطنطاوي تراثًا أدبيًا ضخمًا، كان له أثر كبير على قرائه ومستمعيه، وقد اهتم به كثيرٌ من الدارسين والباحثين وعلى رأسهم الدكتور محمد رجب البيومي؛ الذي يفخر بأنه من تلاميذ الشيخ الطنطاوي في مجال الصحافة[١].

يقول الدكتور البيومي: «عرفت الأستاذ الطنطاوي أول ما عرفته من مجلة الرسالة، إذ كان كاتبًا مرموقًا من كتابها الكبار، وهم حينئذ من أعلام المفكرين في الشرق العربي، غير أن اتجاهه الصارخ كان يضعه مع الكوكبة المؤمنة من كتابها أمثال مصطفى صادق الرافعي ومحمد أحمد الغمراوي ومحمود محمد شاكر وعبد الوهاب عزام وعبد المنعم خلاف، وكلهم خيار من خيار، وقد يفوقهم في ترصده لكل نزوة تصدر من كاتب متسرع، فيناقشه الحساب مناقشة دقيقة غير عابئ بمكانته الرسمية في وظيفته اللامعة»[٢].

وكانت مقالاته بالرسالة ذات صدى بعيد عند القراء وبخاصة في الدوائر الدينية، وعرف الأستاذ أحمد أمين صاحب مجلة (الثقافة) منزلة الطنطاوي عند القراء، فحاول أن يحثه على أن يكتب في

---

(١) في مكالمة تليفونية بين المؤلف والأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي (رئيس تحرير مجلة الأزهر السابق) – رحمه الله-.

(٢) مقال (الشيخ علي الطنطاوي)، د.محمد رجب البيومي، مجلة المنهل السعودية، رجب ١٤٢٠هـ/أكتوبر ١٩٩٩م، ص٩٠.

مجلة الثقافة [١]، حيث تتابعت بعد ذلك مقالاته بها.

أما الدكتور حسن بن فهد الهويمل؛ فيقول عنه: «من الناس من يموت بموته أناس كثيرون، ومنهم ما تموت بموته قضايا كثيرة، وتخلو بفقده مواقع كثيرة، قد لا يسد فراغها إلا بعد أمد طويل، والطنطاوي العالم، والأديب، والداعية، والإعلامي، حين يرحل بعد عمر طويل حافل بجلائل الأعمال، لا شك أنه سيترك آثارًا في قضايا كثيرة، وسيترك فراغات متعددة، وسيذكره الجميع بالخير... ومجمل عطائه تأليفًا وكتابة وأحاديث إذاعية وتلفازية تعني بالإصلاح الاجتماعي وتقديم رؤية حضارية»[٢].

ويقول الدكتور عبد القدوس أبو صالح: «إنه علي الطنطاوي شيخ الأدباء في الشام، وأديب العلماء وجاحظ القرن العشرين... شخصية الطنطاوي لم تتغير في خاطري: شخصية الأديب المطبوع، الذي يجمع بين بلاغة الكلام وخفة الروح، وشخصية الداعية الذي يطرق موضوعه بصراحة نادرة مما جرَّ عليه غضب المسئولين في كثير من المواقف لكنه أكسبه محبة وشعبية ومصداقية لدى معظم الناس خاصتهم وعامتهم ومثقفيهم وأمييهم،

(١) انظر: من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص ٩٤-١٠١.

(٢) انظر: مقال (بقية العمالقة)، د.حسن بن فهد الهويمل، مجلة الأربعاء (ملحق جريدة المدينة السعودية)، الأربعاء ١٦ ربيع الأول ١٤٢٠هـ، ملف خاص عن رحيل علي الطنطاوي، ص ١٢.

لا نستثني من ذلك إلا أدعياء التحرر الزائف ودعاة التغريب»[1].

مؤلفاته وأعماله:

١. رسائل الإصلاح: ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.
٢. بشار بن برد: ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.
٣. رسائل سيف الإسلام: ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.
٤. الهيثميات: ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.
٥. عمر بن الخطاب: ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.(جزءان).
٦. أبو بكر الصديق: ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
٧. في التحليل الأدبي: ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
٨. كتاب المحفوظات: ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.(كتاب مدرسي).
٩. في بلاد العرب: ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م.
١٠. من التاريخ الإسلامي: ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م.
١١. قصص من التاريخ: ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.(وهو نفس الكتاب السابق أعيد طبعه بعد المراجعة والتهذيب)[2].
١٢. رجال من التاريخ: ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
١٣. صور وخواطر: ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

---

(١) مقال (الشيخ علي الطنطاوي كما عرفته)، د.عبد القدوس أبو صالح، مجلة الأدب الإسلامي (عدد خاص عن علي الطنطاوي)، ص ٤.
(٢) كتب المؤلف (نسخة خاصة بخط علي الطنطاوي نفسه).

١٤. قصص من الحياة: ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

١٥. في سبيل الإصلاح: ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

١٦. دمشق.. صور من جمالها وعِبر من نضالها: ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

١٧. مقالات في كلمات (الجزء الأول): ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

١٨. سلسلة حكايات من التاريخ: ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م:

(جابر عثرات الكرام- المجرم ومدير الشرطة–التاجر والقائد– التاجر الخرساني – قصة الأخوين – وزارة بعنقود عنب – ابن الوزير).

١٩. أخبار عمر: ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

٢٠. من حديث النفس: ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

٢١. من نفحات الحرم: ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

٢٢. هتاف المجد: ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

٢٣. صور من الشرق في إندونيسيا: ١٣٨٠هـ/١٩٦٠.

٢٤. الجامع الأموي:١٣٨٠هـ/١٩٦٠.

٢٥. فصول إسلامية:١٣٨٠هـ/١٩٦٠.

٢٦. فكر ومباحث: ١٣٨٠هـ/١٩٦٠.

٢٧. مع الناس:١٣٨٠هـ/١٩٦٠.

٢٨. بغداد: ١٣٨٠هـ/١٩٦٠.

٢٩. صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي: ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.(تعليق

وتقديم وتحقيق بالاشتراك مع أخيه ناجي الطنطاوي).

٣٠. تعريف عام بدين الإسلام: ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٣١. سلسلة أعلام التاريخ (ط٢): ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. (عبد الرحمن بن عوف – عبد الله بن المبارك – القاضي شريك- الإمام النووي – أحمد بن عرفان الشهيد)
٣٢. حلم في نجد: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٣٣. فتاوى علي الطنطاوي(ج١): ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.(جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية).
٣٤. ذكريات علي الطنطاوي: (من ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م إلى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
٣٥. قصة حياة عمر: ١٤١٣هـ/١٩٢٩م.
٣٦. مقدمات الشيخ علي الطنطاوي: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.(جمع وترتيب وتقديم مجد مكي).

ومن رسائله ومحاضراته:

٣٧. يا بنتي و يا ابني.
٣٨. قصتنا مع اليهود.
٣٩. المثل الأعلى للشباب المسلم.
٤٠. موقفنا من الحضارة الغربية.
٤١. ارحموا الشباب.

٤٢. من غزل الفقهاء.

٤٣. القضاء في الإسلام.

٤٤. طريق الجنة وطريق النار.

٤٥. الرزق مقسوم ولكن العمل له واجب.

٤٦. طريق الدعوة إلى الإسلام.

٤٧. صلاة ركعتين.

٤٨. من شوارد الشواهد.

٤٩. تعريف عام بدين الإسلام.

ومن الكتب التي صدرت له بعد رحيله:

٥٠. فصول اجتماعية. (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية).

٥١. فتاوى علي الطنطاوي (ج٢).(جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية).

٥٢. مقالات في كلمات (ج٢).(جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية).

٥٣. روائع علي الطنطاوي. (اختيار وجمع و إعداد إبراهيم مضواح الألمعي).

٥٤. محمد ﷺ سيد رجال التاريخ. (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية).

وقد ذكر الطنطاوي له عددًا من الكتب المعدة للطبع، والكتب التي لم تكتمل في بعض أوراقه الخاصة، فمن كتبه التي كانت

معدة للطبع، ولم تنشر حتى الآن:

- أحاديث رمضان.
- وقائع مثل القصص.
- على أعواد المنابر.
- ديوان المحاضرات.
- نور من القرآن.
- على حواشي السيرة.
- في السند والهند.
- مناظرات وردود.(وهو الكتاب الذي عدل عن فكرة طباعته، كما سيأتي).

أما كتبه التي لم تكتمل فهي:

- الحج.
- رجال من التاريخ (ج٢).
- رجال من دمشق.

وهناك كثيرٌ من الأعمال التي ألَّفها الطنطاوي من مقالات غير متداولة الآن؛ نظرًا لتفرقها بين الصحف والمجلات التي كان الطنطاوي نفسه يعجز أن يحصيها[١]، أو لرفض الكاتب إعادة

(١) كتب المؤلف (نسخة خاصة بخط علي الطنطاوي نفسه)، أعطاها للباحث حفيده عمرو حتاحت ضمن مجموعة من الأوراق الخاصة بخط الشيخ علي الطنطاوي.

نشرها مثل كتابه «بشار بن برد» الذي نشر في الثلاثينيات[١]، وكتابه «مناظرات وردود» وهو كتاب كبير جمع فيه الطنطاوي معاركه الأدبية والفكرية في حياته، وقد رفض الطنطاوي أن ينشره لأنه من وجهة نظره كتب بأسلوب غير صحيح، اتجه فيه إلى نقد الكتاب والنيل منهم، وتصيد عثراتهم، ولم يكن آنذاك يسلط نقده على الفكرة فيبين خطأها أو صوابها[٢]، وهناك أيضًا قصة طويلة عنوانها «حسن الخراط» كان الطنطاوي قد كتبها عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، ونشر بعض فصولها في مجلة «الناقد» ثم أوقفت بأمر الفرنسيين[٣]، ويبدو أنه قد أضاع أصولها بعد ذلك؛ حيث لم تجمع بعد ذلك في كتاب. يضاف إلى ذلك عدة مسرحيات ألفها الطنطاوي في فترة مبكرة، وقد مُثلت فيما بين ١٩٢٩-١٩٣٤م، ضاع أكثرها مع أنها كانت حديث دمشق يومئذ.

هذا «بالإضافة إلى مشاركات تليفزيونية وإذاعية مشهورة على مستوى الوطن العربي، ظلت تعرض في عدد من الإذاعات والتلفزيونات بأكثر من دولة عربية، ومن ذلك برامجه المقدمة عبر الإذاعة والتلفزيون السعودي والتي ظلت تقدم لأكثر من سبع

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: رسالة ماجستير بعنوان «ذكريات علي الطنطاوي دراسة فنية»، أحمد بن علي آل مريع، ص ٧٤-٧٥.

(٣) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ص٢٠٧.

وعشرين سنة متواصلة حتى حالت شيخوخته عن مواصلة إذاعتها وبثها»[١].

ومن هذه البرامج (نور وهداية)، وهو برنامج أسبوعي يقدم يوم الجمعة على مدار العام، و(مسائل ومشكلات) وهو برنامج إذاعي يومي يتلقى فيه الطنطاوي أسئلة واستفسارات من المستمعين ويجيب عنها، و(على مائدة الإفطار) وهو برنامج سنوي، يعرض يوميًا في شهر رمضان المبارك وقت الإفطار[٢].

وقد ترجم له الأستاذ أحمد أرام مجموعة أحاديث له في رمضان إلى الفارسية في كتاب بعنوان «كفتار رمضان»، وقد ضاعت من الطنطاوي نفسه أصول هذا الكتاب العربية[٣].



---

(١) انظر: علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء مجاهد مأمون ديرانية، ص ٢٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٧. وأوراق خاصة بخط المؤلف.

(٣) كتب المؤلف (أوراق خاصة بخط المؤلف).

عصر الطنطاوي

تكمن أهمية دراسة البيئة التي نشأ فيها علي الأديب بوصفها أحد العوامل الرئيسة في تكوين شخصيته. والشيخ علي الطنطاوي نفسه يرى أن «على الباحث عند تأريخه أديبًا أو تحليل شخصيته أن يدرسه من حيث هو رجل له شخصية متميزة؛ كونتها طائفة من العوامل ونتج عنها طائفة من الأخلاق والسجايا، ومن حيث هو أديب له آثار أدبية تتصل بنفسه صلة ضعيفة أو قوية، ولها في سلسلة الآثار الأدبية مكان خفي أو ظاهر، فعلى الباحث أن يعرف العوامل التي عملت في تكوين الأديب ويقف على ميوله وأخلاقه، ويطلع على ترجمته وأخباره، ثم يعمد إلى أدبه فيفهم نصوصه ويحللها، وينظر مقدار صلته بنفس صاحبه، ومقدار تأثيره في عصره»[1].

وتؤكد الدراسات النفسية التي تبحث في عملية الإبداع الأدبي والفني على العلاقة الوطيدة بين الحياة والمجتمع من جهة، والفنان وفنه من جهة أخرى[2]. كما بالغ بعض النقاد في جعل الأدب معادلًا

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص٤٧، المكتبة الأموية بدمشق، ط١، ١٩٦٠م/١٣٧٩هـ.

(٢) انظر: الأسس النفسية للإبداع الفني (في الشعر خاصة)، د. مصطفى سويف، ص٣١، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٠م. (منشورات جماعة علم النفس التكاملي).

للحياة، ومطابقًا لها، وترجمة لحقائقها، أو ينبغي أن يكون كذلك حتى يصبح أدبًا مقبولا[1].

الحياة السياسية

يروي بعض المؤرخين[2] أنه بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني أصبح كل شيء في الخلافة بيد الاتحاديين، أما الخليفة فكان مجرد صورة، غير أن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب على الخلافة سوى ثلاثة خلفاء[3]، وكانت الدولة قد اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، فهُزمت وتجزأت، وغادر البلاد رجال الاتحاد البارزون، أو الذين كانت بيدهم الأوامر والنواهي. وجاء إلى الحكم من جديد مصطفى كمال الذي كان منصرفًا إلى

(١) انظر: ما هو الأدب، د. رشاد رشدي، ص ٣٥-٣٦، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
وقد برزت فكرة دراسة مجتمع الأديب منذ القرن التاسع عشر على يد بعض النقاد الفرنسيين أمثال (سنت بيف) و(تين)، ثم انتقلت الفكرة إلى النقد العربي الحديث على يد بعض النقاد العرب من ذوي الثقافات الغربية. (انظر: النقد الأدبي، أحمد أمين، ص٣٤٧ وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط ٥، ١٩٨٣م).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ج ٨ ص ٩٩، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٩٩١م. وأيضًا: عالم الإسلام، د.حسين مؤنس، ص ٤٥٤، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

(٣) الخلفاء الثلاثة الذين تعاقبوا أيام حكم الاتحاديين هم: محمد رشاد (محمد الخامس)، ومحمد السادس (وحيد الدين)، وعبد المجيد الثاني.

شهواته وبناء مجده، فألغى الخلافة حسب دور مخطط له، وزالت الخلافة الإسلامية التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعد للمسلمين خلافة فانقسمت بلادهم، وظهرت النعرات القومية، وتصارع بعضها مع بعض حتى وهن أمر المسلمين.

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب تبين أن انجلترا وفرنسا كانتا قد تقاسمتا العراق وبلاد الشام في (معاهدة) وضعها بريطاني يسمى سايكس وفرنسي يسمى بيكو (معاهدة سايكس بيكو)، وبمقتضاها توضع العراق تحت الانتداب الإنجليزي، وتقسم بلاد الشام إلى أربع وحدات أساسية سوريا ولبنان وتكونان من نصيب فرنسا وفلسطين والأردن وتكونان لبريطانيا، وبريطانيا بعد الحرب فتحت أبواب فلسطين لليهود، وأقيم السير هربرت صمويل- وهو يهودي- اختاره ويزمان المندوب السامي لإنجلترا في فلسطين لتنفيذ السياسة الصهيونية.

أما سوريا فقد حكمتها فرنسا حكمًا عسكريًا متعسفًا منذ بداية الانتداب سنة ١٩٢٠م؛ فقامت الثورة السورية الكبرى التي قادها «سليمان باشا الأطرش» في جبل الدروز فيما بين سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٧م، وقد أخمدها الفرنسيون بأعنف الأساليب العسكرية ولكن التذمر ضد الفرنسيين استمر فلجأت فرنسا إلى المهادنة، وأعلنت سنة ١٩٣٠م أنها مستعدة لإقامة نظام نيابي تحت الانتداب والسيطرة الفرنسية، ووضع دستور شكلي. وقام في البلاد برلمان ولكن الثورة عادت فقامت في صورة شاملة سنة ١٩٣٦م،

ولجأ الفرنسيون إلى أشد وسائل العنف وضربوا دمشق بالمدافع دون جدوى، واضطرت فرنسا إلى تغيير سياستها وعقدت معاهدة مع السوريين في أواخر ١٩٣٦م بعد مفاوضات قام بها «هاشم الأتاسي»، وقد ظلت الأحوال في سوريا قلقة حتى قامت الحرب العالمية الثانية، وانهزمت فرنسا، فتمكنت سوريا من الحصول على استقلالها في ٢١سبتمبر ١٩٤١م، وعادت فرنسا إلى استعمال أقصى أساليب العنف مع السوريين مما اضطر انجلترا إلى التدخل، وفي سنة ١٩٤٦م حصلت سوريا على استقلالها التام.

يقول الطنطاوي عن ذلك: «كانت سورية كلها كأنها تعيش بجوار بركان يفور أحيانًا فتفتح أبواب جهنم، ويهدأ أحيانًا... تسكن دمشق قليلًا فتتحرك حلب، أو تهيج حمص أو حماة، وكنت ممن يضرم هذه النار وينفخ فيها، بلساني وبقلمي[١]، كما يصنع كثير من أقراني وأمثالي، ما كنت أسير في ذلك وحدي، وإن كنت أحدّهم لسانًا وأمضاهم قلمًا»[٢].

في هذه الفترة الملتهبة نشأ الطنطاوي وشبّ في الشام التي كانت مسرحًا لكثير من الأحداث المؤثرة في تاريخ المنطقة؛ حيث ولد في دمشق سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وتوفي في جدة بالحجاز سنة

(١) في الأصل: وبقلبي، وهو ما لا يتفق مع السياق وأسلوب الطنطاوي، ولعله خطأ مطبعي.

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ص٥، دار المنارة للنشر، السعودية، جدة، ط٢، ١٩٨٩م/ ١٤٠٩هـ.

١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م[١]، أي أنه كان شاهد عيان لكثير من الأحداث المهمة في المنطقة، والتي أثرت تأثيرًا مباشرًا على أدبه، وعن ذلك يقول: «كم شاهدنا من دول قامت ثم زالت، وعهود كانت ثم انقضت، وناس كانوا على كراسي الحكم في (السراي) ثم صاروا على حصير السجن أو على أعواد المشانق»[٢].

ويقول أيضًا عن ذكرياته في هذه الفترة: «إن لدي من الذكريات الكثير، ما بقي منها ربما ملأ كتبًا؛ لأني ما عشت ثلاثة أرباع القرن[٣]، كما تشهده تذكرة ميلادي، بل عشت أربعة قرون، بل إن الذي رأيته من تبدل الدول، وتطور الحياة، لا يكون مثله في أربعة قرون، فلقد عشت حينًا من عمري في ظلال راية العثمانيين، ثم عشت تحت علم الدولة العربية، ثم في حكم الفرنسيين، ثم تحولت أحوال، وكانت أهوال، جاوزت في غرابتها الخيال»[٤].

لقد تأثر مبكرًا بالأحداث السياسية المهمة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية، خاصة تلك التي بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وما واجهته الأمة من تحديات

---

(١) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، تأليف مجاهد مأمون ديرانية، ص ٢٩، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠١م/١٤٢١هـ.

(٢) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ٢٦٠، دار المنارة، جدة، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(٣) كان عمر الطنطاوي حين كتب ذكرياته قد ناهز الخامسة والسبعين.

(٤) ذكريات، علي الطنطاوي، ج ٣ص٦٠.

آنذاك، إذ بدأت مدارك الطنطاوي تتفتح على خضم من الأحداث الخطيرة والتحولات الكبيرة.

وهو يعبر عن ذلك قائلاً: «كم شاهدنا من دول قامت ثم زالت، وعهود كانت ثم انقضت، وناس كانوا على كراسي الحكم في (السراي) ثم صاروا على حصير السجن أو على أعواد المشانق... أدركنا عهد الترك، وعهد الشريف، وعهد الفرنسيين وعهد الاستقلال، وعهد الوحدة، وما عهد إلا بكينا فيه منه، وبكينا بعده عليه. الناس يقرءون التاريخ ولكننا عشنا التاريخ، لم نطل عليه من نوافذ المناهج المدرسية، بل كنا فيه من داخل. الأساتذة والمؤرخون الذين يكتبون التاريخ يقعدون مع المشاهدين، وكنا نحن على المسرح مع الممثلين»[١].

ومع مطلع القرن العشرين كانت الدولة العثمانية تخطو خطواتها الأخيرة في الحياة، وكانت الدول الاستعمارية قد شرعت تنهش في أجزائها المترامية، بعد أن أزمعت فيما بينها تقسيم ثروة الرجل المريض قبل وفاته، وإلى ذلك كان للكثير من الأحداث تأثير مباشر على الشام التي نشأ فيها الطنطاوي، كانت تركيا مسرحًا لبعضها، وكانت الشام مسرحًا لبعضها الآخر.

«فعقب عزل السلطان عبد الحميد تولى الاتحاديون الحكم سنة

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ٢٦٠، دار المنارة، جدة، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٩٠٩م واتجهوا اتجاهًا قاسيًا نحو ضرورة سيطرة القومية التركية وتطهير اللسان التركي من الألفاظ العربية، بل راحوا يتنكرون للإسلام.. واشتط الترك بقوميتهم فاتجهوا إلى نظام المركزية، ومحاربة اللغة العربية حتى في بلادها، وقاوموا بالعنف كل حركة تنادي بالإصلاح وتحسين الأحوال...

وهكذا تجمعت الأسباب التي تدعو إلى انشقاق العرب على تركيا، واعتبار الخضوع لها نوعًا من الاستعمار، وقد بدأ العرب نشاطهم بالتشكيلات السرية، والجمعيات العربية لمقاومة العنصرية التركية، فظهر مجموعة من الرجال الذين بعثوا هذا الاتجاه، وغذوه بأقلامهم وخطبهم، وفي قمة هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي، وإبراهيم اليازجي وغيرهما...

كانت قوة تركيا في نزعها الأخير، وحرصها على البقاء في سوريا أصبح ضئيلًا لا أمل في تحقيقه، وكان جمال باشا قائد الجيش التركي والحاكم العسكري في سوريا ولبنان قد أحس بالانصراف العربي عن الأتراك، فأنزل غضبه القاسي على الزعماء، وراح يعدم شنقًا وينكل بهم تنكيلًا فظيعًا، وضع حدًا نهائيًا للعلاقة بين سوريا وتركيا...»[١].

وعلى الرغم من صغر سن الطنطاوي في تلك الفترة؛ فإنها لم

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د.أحمد شلبي، ج٥ ص ٦٧٠ وما بعدها، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٩، ١٩٩٩م.

تغب عن ذاكرته، ولم تمحَ من مخيلته، إذ تركت هذه الأحداث في نفسه أثرًا باقيًا، لم تستطع الأيام أن تنسيه إياه، يقول: «كنا ونحن في المدرسة الابتدائية أيام الحرب الأولى نرى جمال باشا هو كل شيء، وإليه ينتهي في بلدنا كل شيء، يخافه الكبار فكيف لا نخافه إذا ذكر أمامنا نحن الصغار... كان معه الجيش ومعه المال ومعه السلاح، وكان يشنق.. لا يزال أمام عيني منظر المشنوقين في ساحة المرجة أيام الحرب العالمية الأولى» [١].

«... وكان اسم جمال باشا يُدخل الرعب في قلوبنا نحن الصغار حتى إن معلمًا في المدرسة أشاع أنه نسيب جمال باشا، فكنا نموت من الخوف إذا دخل» [٢].

كان الطنطاوي حريصًا على وحدة الأمة الإسلامية أيّما حرص؛ فعلى الرغم مما شاهده من ويلات الحكم التركي؛ فإنه لم يحمل على الشعب التركي، بل كان يلقي باللائمة على دعاة القومية منهم، فلا يخفي سخطه الشديد على جمعية الاتحاد والترقي وعلى مصطفى كمال أتاتورك ورفاقه «الذين أضاعوا الدولة العثمانية التي كانت ثالثة الدولتين العظيمتين: الأموية والعباسية، والتي عاشت المدة الطويلة، وفتحت بالإسلام وللإسلام الفتوح الجليلة، وكانت يومًا أكبر دول الأرض، وملكها أكبر ملوكها» [٣]، أولئك الذين كانت

---

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج ٥ ص١٤٧.
(٢) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص٢٥٩.
(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج ١ص١٣٦.

لهم اليد العليا في تقطيع ما تبقى -وإن قل- من الروابط الروحية بين الشعوب الإسلامية تحت مظلتها.

يتجلى ذلك في دفاعه المتكرر عن السلطان عبد الحميد الثاني آخر سلاطين الحكم العثماني، فيقول: «كان السلطان عبد الحميد رجلًا حقًا؛ استطاع بدولة هرمة، وجيش هزيل أن يحجز دول أوروبا عن بلاده وكان يضرب بدهائه بعضها ببعض. كان رجلًا يلعب بالرجال، فلما جاء صبيان الاتحاديين وأمسكوا هم الزمام، لعبت بهم الرجال وأشباه الرجال»[1].

«وكان بنو عثمان حكامًا بشرًا، لهم حسنات ولهم سيئات، وما حسناتهم -في جملتها- بأقل من حسنات من حكموا ديار الإسلام على سعة رقعتها، وامتداد زمانها، ولا سيئاتهم بأكثر من سيئاتهم، ولكن اليهود -وأصل كل بلية في الدنيا إبليس واليهود- لما صدهم السلطان عبد الحميد، وضرب وجوههم بأموالهم التي جاءوا بها يساومونه على دينه، افتروا عليه، وبهتوه»[2].

ويتفق الطنطاوي في حرصه على الوحدة الإسلامية مع الأساتذة المصلحين من أمثال محمد عبده الذي يرى «أنه لا يوجد مسلم يريد بالدولة العثمانية سوءًا فإنها سياج في الجملة وإذا سقطت فسنبقى نحن المسلمين كاليهود، بل أقل من اليهود؛ لأن اليهود

(١) المرجع السابق، ج١ ص١٤٩.
(٢) المرجع السابق، ج١ ص ١٣٢، ١٣٣.

عندهم شيء يخافون عليه، ويحفظون به مصالحهم وجماعتهم وهو المال»[1].

«وقد حاول الصهاينة بقيادة تيودور هرتزل إقناع السلطان عبد الحميد السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين... فرفض السلطان رفضًا قاطعًا ولم يكتف بهذا، بل أصدر قانونًا بمنع الهجرة اليهودية وبمنع إقامة مستعمرات لليهود في فلسطين»[2].

وبعد سنوات قليلة من سقوط الخلافة يدخل الاتحاديون البلاد في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، هي الحرب العالمية الأولى، فتعيش الشام في ويلاتها ما تعيش، ويرى الطنطاوي من فظائعها ما يراه ويرويه؛ فيقول: «نعم، لقد رأينا، نحن الأطفال، الحرب في شوارع دمشق حين أبصرنا الرجال يأكلون قشور البطيخ، وينبشون المزابل من الجوع، ثم رأيناها أوضح وأظهر، حين لم نعد نبصر في الشام رجالًا؛ لأن الرجال أكلتهم الحرب... ثم رأيناها أشد ظهورًا بطلعتها الكالحة القبيحة، حين تعودنا مرأى جثث النساء والأطفال، الذين ماتوا من الجوع، نراها كل صباح ومساء، في غدونا إلى المدرسة ورواحنا منها... في وسط هذه المذبحة المرعبة، وخلال رائحة البارود، وعزيف المدافع، وإعوال اليتامى

(١) مقالات في النقد الأدبي، د. عبد الحميد إبراهيم، ج٥ ص١١٠، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٢) أوراق ذابلة من حضارتنا، د.عبد الحليم عويس، ص١٩٢، دار الصحوة بالقاهرة ودار الوفاء بالمنصورة، ط٣، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م.

والثاكلات... نشأت وعرفت الحياة فرأيت (البلد الحبيب) نصفه مقبرة للأموات، ونصفه مستشفى لمن ينتظر الموت»[1].

وتنتهي الحرب بهزيمة الأتراك ومن تحالفوا معهم، ويعلن الشريف حسين الثورة العربية في يونيو ١٩١٦م وتقدم له إنجلترا مساعدات مادية وأدبية كبيرة، كما قدمت إنجلترا للشريف الكولونيل (لورنس)، الذي أصبح الرأس المدبر للثورة والعقل المفكر للأشراف، وقد استطاع أن يكسو نفسه بفروة عربية خدع بها الشريف وأعوانه، وفي ديسمبر ١٩١٦م أعلن الشريف حسين استقلال العرب، ونودي به ملكًا على العرب...

وبعد انتهاء الحرب ١٩١٨م يدرك العرب خداع الوعود البريطانية الزائفة، والنوايا الاستعمارية الخبيثة من وراء مساندة الثورة العربية، فقد آن الأوان لتقسيم تركة الدولة العثمانية بين إنجلترا وفرنسا، بل واليهود الذين أعطتهم بريطانيا حق إنشاء وطن قومي بموجب وعد بلفور ١٩١٧م، فبعد أيام من انتهاء الحرب نزلت جيوش الاحتلال إلى الشام وأنزلت العلم العربي، فيجتمع المؤتمر السوري في دمشق في مارس ١٩٢٠م ويقرر إعلان استقلال سوريا ومعها فلسطين ولبنان دولة ذات سيادة ملكية دستورية، ونودي بالأمير فيصل ملكًا عليها، ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعترفا بهذا القرار...

(١) في بلاد العرب (الشام والحجاز والعراق)، علي الطنطاوي، ص٥٢، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

وتبدأ المواجهات بين الجيش العربي الضعيف بقيادة يوسف العظمة وقوات الاحتلال الفرنسي، فينتصر الفرنسيون في معركة «ميسلون»، ويدخل الفرنسيون دمشق، وينفى الملك فيصل من البلاد، ويبدأ بذلك عهد الانتداب المقيت[1].

وفي عهد الانتداب تتجاوز مقالات الطنطاوي السياسية مرحلة التأريخ لأحداث خلت إلى ما يمكن أن يسمى المقال النضالي، فكما استخدم لسانه -وهو الخطيب البارع- في محاربة الاستعمار، استخدم قلمه في استنهاض الهمم وشحذ النفوس للدفاع عن القضية الوطنية، بل تجاوز ذلك إلى مهاجمة الكُتاب الذين أغفلوا دورهم، وقصروا في أداء واجبهم الوطني، والأمة أحوج ما تكون إليهم، فيقول في إحدى مقالات (الرسالة) ١٩٤٦م: «نحن اليوم في معركة مع الاستعمار، قد اندلعت نارها، وطار في كل أرض من أرض الإسلام شرارها، فهل رأيت جيشًا في معركة يدع مدافعه فلا يطلقها، وينسى دباباته فلا يسيرها، ويلقي بنادقه فلا يحملها؟ وهذا ما نفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخرها في هذا النضال، وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغير هذه الأقلام، فما لهذه الأقلام نائمة لا تفيق، جامدة لا تتحرك؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة المدلهمة التي جن فيها الموت؟!»[2].

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، ج٥ص٦٧٢ـ ٦٧٦.

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٧، دار المنارة، جدة، ط٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٩م.

والملاحظة المهمة في الكتابة السياسية عند الطنطاوي هي أنه لم يكن لينحصر في القضية السورية وحدها، بل كانت مقالاته في تلك الفترة تفيض بالدفاع عن القضايا العربية والإسلامية المماثلة، فكتب عن حركات التحرر في البلاد العربية كمصر والجزائر واليمن، كما حظيت القضية الفلسطينية عنده بنصيب وافر، ولم يغفل المقال السياسي عنده قضايا المسلمين من غير العرب، ومشكلات الأقليات المسلمة، الأمر الذي يعني أن معاناة الطنطاوي الوطنية لم تكن لتنتهي إلا بانتهاء الهم الإسلامي.

الحياة الاجتماعية

«أخذ كثير من دارسي الأدب الغربيين منذ القرن -قبل- الماضي يصلون بين دراساته والدراسات الاجتماعية، إذ الأدب في حقيقته إنما هو تعبير عن المجتمع وكل ما يجري فيه من نظم وعقائد ومبادئ وأوضاع وأفكار، والأديب لا يسقط على مجتمعه من السماء، و إنما ينشأ فيه و يصدر عنه، يصدر عن كل ما رأى فيه وأحس وسمع، ناسجًا مادته من مسموعاته و إحساساته ومرئياته. وليس بصحيح أن بين الأدباء من يستطيعون الانعزال عن مجتمعهم في أبراج عاجية كما يقولون، إذ دائمًا تصلهم به علائق كعلائق ذوي الرحم، علائق منبثة في كل ما ينظمون وما يكتبون»[1].

(١) البحث الأدبي (طبيعته. مناهجه. أصوله. مصادره)، د. شوقي ضيف ص، ٩٦، ط دارالمعارف، القاهرة، ط٦، د.ت.

هذا، ولقد أثرت الظروف السياسية العصيبة في أواخر العصر العثماني وبدايات الاحتلال العربي على الحياة في الشام، كما أثرت على غيرها من بلاد العالم الإسلامي والعربي، لقد أثر التاريخ على جغرافية الشام، وعادت الشام لا تكون غير بلاد جديبة خربة بعد أن كانت من أغنى أقطار العالم وأكثرها رخاءً[1]، وهو ما وصفه أحد شهود العيان المؤرخين بقوله: «مررت من الطريق الواقعة بين بيروت ودمشق فلم أجد أثرًا للنبات في غير ما قرب من أبواب المدن، وعاد لبنان وما وراء لبنان لا يكون سوى صخور عارية، وليس الجدب في أبواب القدس أقل من ذلك، ولا ترى في كل مكان سوى الحجارة والصخور، ولا تجد شيئًا من الكلأ»[2].

وانقسم الشام إلى دويلات صغيرة؛ سيطر الفرنسيون على بعضها والإنجليز على بعضها الآخر، وأفسح المجال للصهاينة ليفرضوا نفوذهم على فلسطين حتى أعلنوا دولتهم في ١٩٤٨م.

كان واقع الحياة الاجتماعية إذن فقرًا وقهرًا؛ دارت فيهما علاقات الناس بعضهم ببعض، ودار أدب علي الطنطاوي جميعه في هذه الفترة عليهما. لقد أثر واقع الحياة الاجتماعية في العادات والتربية والسلوك، بما يجعل الأديب ينتفض انتفاضة المصلح الاجتماعي متخذًا من تاريخه وتراثه وعقيدته سلاحًا يذود به عن مجتمعه ضد

(١) انظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص ١٥٣، ١٥٤، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٤.

الأفكار الطارئة التي فرضت نفسها على الحياة الاجتماعية آنئذ.

ففي أول مقالات جمعها الطنطاوي في كتابه (الهيثميات) زاوج بين التاريخ الإسلامي والمثل الأعلى محمد ﷺ وبين البطولة والثورة ضد الظلم الاجتماعي؛ فتكلم عن الهجرة، وعن يوم عرفة، وعن ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ضد الحجاج، وعن ذكرى شهداء ميسلون، وعن الأمير عبد القادر الجزائري وعن المولد النبوي وعن حسن الخراط بطل الشام في مقاومة الاستعمار الفرنسي[١].

وتعد رسائله التي أَلَّفها بعنوان (في سبيل الإصلاح)[٢] من مقالاته الاجتماعية في هذه الفترة، إذ تكلم فيها عن الإصلاح الديني وجمود علماء الدين[٣]، وتحدث عن أثر التغريب في المجتمع السوري[٤]، كما تكلم عن نقص أدوات الثقافة وفساد التربية

(١) انظر: الهيثميات (السفر الأول)، أبو الهيثم محمد علي الطنطاوي، عني بنشره أحمد ثابت الخطيب، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.

(٢) هذه الرسائل من أوائل ما كتبه الطنطاوي وهي غير كتابه (في سبيل الإصلاح) الذي هو عبارة عن مجموعة من المقالات التي نُشرت في الصحف والمجلات العربية ونشر معظمها في مجلة الرسالة المصرية.

(٣) انظر: رسائل في سبيل الإصلاح، ١- في الإصلاح الديني، محمد علي الطنطاوي، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٤٨هـ.

(٤) انظر: رسائل في سبيل الإصلاح ٣- دمشق بعد (٩٠) عامًا، محمد علي الطنطاوي، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٤٨هـ.

واختلاف العادات[1].

وفي هذه الفترة أيضًا ألَّف عددًا من القصص الاجتماعية أسماها قصص الهيثميات، وقصصًا أخرى ضمن رسائل سيف الإسلام مثل قصة (صدقي بك)، بالإضافة إلى مجموعة من القصص جمعها كتابه (قصص من الحياة).

الحياة الثقافية والأدبية

«شهدت أمتنا العربية يقظة أدبية ثقافية، تبلورت في شكل أكثر وضوحًا مع مطلع القرن العشرين الميلادي، ونمت وترعرعت وسارت على إثر خطواته، وقد اختلفت مشارب رواد هذه الثقافة، ولكنها في أغلبها شكلت حلقة وصل بين ماضيها الثقافي المجيد، وحاضرها التليد... والمتتبع لرموز هذه الثقافة، يجد أنهم يعودون إلى ثلاثة منابع أصلية؛ هي الشام والعراق ومصر... وخلال ذلك القرن شهد العالم حربين عظميين، وخلاله أيضًا ابتلي المسلمون بالاستعمار، الذي بقدر فعله في تفريق الصف، كان له أثر خفي في توحيده، باعتباره عدوًا مشتركًا»[2].

(١) انظر: رسائل في سبيل الإصلاح، ٤- سير الحركة الفكرية في الشام، محمد علي الطنطاوي، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٤٨هـ.

(٢) روائع الطنطاوي: روائع من أدبه وفوائد من كتبه، ويليه الفوائد الطنطاوية، فوائد لغوية من حواشي كتب الشيخ علي الطنطاوي (رحمه الله)، اختارها وجمعها وأعدها إبراهيم مضواح الألمعي، ص٧ (المقدمة)، دار المنارة = = للنشر والتوزيع، ط١، جدة، السعودية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

هذا هو الواقع في القرن العشرين الذي عاش فيه الطنطاوي، والذي أسهم بشكل كبير في الاتجاهات الموضوعية والفنية في أدبه. وقد أسهم الطنطاوي بشكل كبير في العمل خلال الانتداب الفرنسي، وكان رئيس اللجنة العليا لطلاب سورية ١٩٢٩-١٩٣١م[١]، وجاهد الطنطاوي بالقلم واللسان ضد الاستعمار الفرنسي على المنابر وفي النوادي والصحف وجميع وسائل الإعلام[٢].

وأسهم بالدفاع عن قضايا المسلمين في الشام ومصر وباكستان وإندونيسيا والجزائر، والمناداة بالتحرير والاستقلال والتغني ببطولات المجاهدين على أرض المعارك[٣]. وشارك الطنطاوي في مؤتمر القدس عام ١٩٥٣م[٤]، لنصرة القضية الفلسطينية، التي كانت شغله الشاغل في كثير من مقالاته؛ مما يعني أن الطنطاوي كان له في كثير من القضايا العربية صولات وجولات.

ولم يكن قلم الطنطاوي موجهًا فقط للمجاهدين على أرض المعارك، بل كان يصرخ في وجه الكُتاب والأدباء ليحولوا أقلامهم

(١) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص ٥٥.
(٢) انظر: المرجع السابق ج٣ ص٥٩-٦٨.
(٣) انظر: (هتاف المجد)، بقلم علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٣، جدة، السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، وجميع مقالات هذا الكتاب تتحدث عن القضايا العربية والإسلامية السياسية. وكتاب: في سبيل الإصلاح، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة، السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ومقالاته السياسية في صفحات ١٧ وما بعدها، و٤٥ وما بعدها، ١٢٤ وما بعدها.
(٤) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص١٢٣.

نحو قضايا أمتهم[١]. وكان الطنطاوي يرى أن تصدي الأمة للأخطار التي تحيق بها لن يتأتى إلا عن طريق العودة إلى المنابع والجذور العربية الإسلامية[٢]؛ لذلك كثرت مقالاته التي تدافع عن اللغة العربية وأدبها، والقضايا الاجتماعية التي تؤثر على المجتمعات الإسلامية والعربية، وتضعف من عزيمتها، وذلك في مثل مقالاته التي تضمنتها كتبه «فكر ومباحث» و«مع الناس» و«هتاف المجد» و «في سبيل الإصلاح»... الخ.

ولقد أثرت الحياة السياسية في الجانب الثقافي في عصر الطنطاوي بعدة أشياء يمكن أن نستنبطها مما يلي:

١. إلمام الطنطاوي في فترة من الزمن (العصر التركي) باللغة التركية والتاريخ التركي الذي كان هو الأساس في التعليم في فترة التتريك التي عاشتها بلاد الشام، حيث كان التعليم في المدارس باللغة التركية بعدها قد ينتقل التلميذ إلى جامعة إسطانبول[٣].

٢. إلمام الطنطاوي باللغة الفرنسية[٤]؛ وذلك بسبب الثقافة التي فرضتها السياسة الاستعمارية الفرنسية في المدارس بالشام في أثناء الاحتلال الفرنسي.

٣. لا شك أن فترة الاحتلال الفرنسي أفادت علي الطنطاوي أدبيًا

---

(١) انظر: في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ١٧-٢١. مقال بعنوان (أين الأقلام).

(٢) انظر: هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ١٧.

(٣) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي،، ج١ص٥٢.

(٤) انظر: المرجع السابق، ج٣ ص٣٩.

وبيانيًا، حيث أتاحت له الأحداث السياسية والاجتماعية العصيبة فرصة كبيرة - ولكنها أيضًا غير مقصودة - على الدربة والمران في فن الخطابة[1]، وهو ما ظهر في أدب الطنطاوي فيما بعد من عفوية وتلقائية يصعب التمييز بسببها بين أحاديث الطنطاوي الشفهية ومقالاته التي كتبها للصحف[2].

غير أن الأحداث السياسية لا يمكن أن تمثل وحدها الموجه للحركة الثقافية في الشام وإن كان لها دور رئيس في صبغ عصر الطنطاوي بلون خاص، فهناك طرق التعليم بأشكالها المختلفة؛ إذ كان لها دور لا يقل أهمية في رسم الصورة الثقافية حيث كانت في الشام مع مطلع القرن العشرين ثلاثة أوجه للتعليم:

الأول: التعليم الديني على المشايخ: وكان يهتم بالعلوم الشرعية، وآداب العربية وكتبها القديمة، وهو يشبه إلى حد كبير النظام الأزهري القديم.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ج٢ص٦٦.

(٢) انظر: على سبيل المثال مجموعة المقالات والأحاديث الإذاعية في كتاب (من حديث النفس)، علي الطنطاوي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م. حيث يصعب التمييز بين مقالاته وأحاديثه إلا بشيئين؛ الأول: أن يشير الطنطاوي نفسه إلى أن ما تحت عنوانه هو حديث، وذلك بقوله أذيعت يوم كذا أو ألقيت في يوم كذا، وإذا كانت مقالة صحفية يشير إلى ذلك بقوله نشرت سنة كذا. والثاني: ما يفلت من لسانه أحيانًا من ألفاظ توحي بنوع الكلام المكتوب أهو مقال أم حديث، مثل قوله: أيها المستمعون، أو قرائي الأعزاء... وهكذا.

والثاني: **التعليم المدني**: وهو ما كان يدرَّس في المدارس النظامية الحكومية وكان علي الطنطاوي قد تلقى العلم في بداية حياته بشكل متميز؛ حيث تلقى العلم في المدارس النظامية وعلى المشايخ في وقت واحد(١).

الثالث: التعليم الأوروبي: وهو ما تلقاه بعض أبناء الصفوة من الأغنياء في أوروبا، أو بعض المحظوظين من الفقراء الذين وقع عليهم الاختيار لتلقي العلوم في بلاد الغرب وقد لقي هؤلاء الحظوة في بلادهم عند عودتهم وكانت لهم آثار كبيرة في الحياة الثقافية في الوطن العربي بشكل عام، وقد كانت الرؤية لبعض هؤلاء القادمين من الغرب أن المثل الأعلى للمواطن العربي في حياته المادية هو المثل الأوروبي(٢).



(١) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٧، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط١١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

(٢) انظر: مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين، ص٣٠، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

القضايا النضالية

يمكن تحديد دوافع الكتابة السياسية عند الطنطاوي في عدة عوامل:

أولا: نشأته الدينية الملتزمة وثقافته الإسلامية الواسعة كان لهما دور بالغ في خلق نوع من الحساسية ضد كل ما يمس، وما يمكن أن يمس الأمة الإسلامية، من أخطار، الأمر الذي يمكن أن يبرر تعاطفه مع الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة على الرغم مما آلت إليه من ضعف وهوان.

ثانيًا: اتجاه الطنطاوي المبكر نحو التاريخ قراءة وتأليفًا، خاصة التاريخ الإسلامي، فكان من إبداعاته في هذا المجال: «قصص من التاريخ» و«حكايات من التاريخ» و«رجال من التاريخ». وإن من التاريخ ما يعيد الثقة للأمم في قدراتها؛ فتستنهض الهمم النائمة، وتثار النخوات الهامدة، ولذلك كان اتجاه الطنطاوي دائمًا نحو مناطق العظمة في التاريخ الإسلامي[١].

ثالثًا: التأثر بالأحداث التي مرت بالأمة منذ مطلع القرن الماضي والتحولات السياسية التي مرت بالعالم حتى نهاية القرن، فقد

---

(١) انظر: قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص١٠، دار المنارة، جدة، ط٥، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

عاصر الطنطاوي نشأة إمبراطوريات وقوى عظمى، ثم شاهد بنفسه انهيارها، ورأى جيوش الاستعمار تنزل إلى البلاد العربية والإسلامية، ورأى حركات التحرر فيها، ثم رأى تلك الجيوش وهي تنسحب إلى بلادها.

كل ذلك كان له أثره العميق في توجه الطنطاوي إلى الكتابة السياسية مبكرًا، مع ثلاثينيات القرن العشرين، واستمراره في نفس المجال حتى نهاية نفس القرن. فلا غرابة أن تشده القضايا السياسية التي منها:

مشكلة القومية

يذهب بعض الباحثين إلى أن الغرب بعدما تنبه إلى مساوئ النعرة القومية وأضرارها البالغة على الشعوب رأى أن من الحكمة تصديرها إلى الشعوب الإسلامية والعربية، وذلك لتمزيق الروابط الدينية فيما بينها، «وقد شجعت الدول الأوربية الكبرى على ظهور القومية العربية في صورتها العلمانية لتحقيق مطامعها في احتلال الشرق الإسلامي، وخاصة بريطانيا وفرنسا؛ يقول (لورنس) منفذ سياسة بريطانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى: وأخذت طول الطريق أفكر في سوريا وفي الحج، وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟! وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني؟! وبمعنى أصح؛ هل تحل المثل العليا محل الوحي والإلهام،

وتستبدل سوريا بمثلها الأعلى الديني مثلها الأعلى الوطني؟!»[١].

وهكذا أقدم العرب بعد أن خُدعوا بقومية لورنس المسمومة على تدمير خط السكة الحديد المتصل بين تركيا والأراضي الحجازية سنة ١٩١٨م، والذي بناه السلطان عبد الحميد كوقف إسلامي لخدمة الحجاج في تركيا والشام؛ فكان للورنس بعض ما أراد من تعطيل شرعة الحج التي كانت تمثل له قلقًا شديدًا؛ بسبب مدى ما تعبِّر عنه هذه الفريضة من ترابط بين المسلمين بعيدًا عن اللون والجنس والعرق[٢].

وكان للغرب دور كبير في إذكاء نار القومية في العالم الإسلامي على حساب العقيدة الإسلامية الجامعة، «وكانت إنجلترا -سيدة العالم العربي آنذاك- قد ساعدت على إنشاء ما يسمى بجامعة الدول العربية، وهي مؤسسة لم يرَ منها العرب خيرًا، ولم تسهم في حل أية مشكلة، أو في تحقيق أي تقدم للعرب في حاضرهم الأسيف، وحسبها أنها فصلت العرب -رسميًا- عن العالم الإسلامي، وأشعرتهم بكيان مستقل وهمي» [٣].

عمل الغرب على تصدير القومية العربية لفصل العالم العربي

---

(١) أساليب الغزو الفكري، د.علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، ص٧٨، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج ٧ ص ٣١١ وما بعدها، مقال (الخط الحديدي الحجازي).

(٣) أوراق ذابلة من حضارتنا، د. عبد الحليم عويس، ص٢٠٠.

عن العالم الإسلامي غير العربي، ولكنه عمل كذلك على تمزيق أي وحدة أو تعطيل أي محاولة للوحدة العربية من خلال هذه القومية، وهذا ما يعترف به بعض الكُتاب الغربيين فيقول: «من المعروف أن القوى الأمريكية والإنجليزية كانت تناهض بشدة أي قوى سياسية في العالم العربي تعمل لتحقيق القومية العربية، ويتضح هذا من تدمير أو بمعنى أدق وأد الوحدة العربية: المصرية السورية، ثم يلي ذلك التدخل في شئون ثورة العراق، وأخيرًا الحرب الأهلية اللبنانية... إن القومية العربية لم يصادفها التوفيق والنجاح في كثير من المواقف، وفي بعض الأحيان كانت سياساتهم تأتي بنتائج عكسية»[١].

وإشاعة القومية يجعل من الإسلام عدوًا للأقليات غير المسلمة في بلاد الإسلام، «فاعتبارات الوحدة الوطنية تفرض في الحقيقة منح هذه الأقليات وزنًا سياسيًا أكبر مما يتناسب مع وزنها العددي، وقد ينعكس هذا أحيانًا على دستور الدولة... على سبيل المثال في الجمهورية العربية المتحدة، أثناء الوحدة السورية المصرية، حين جاء دستور الوحدة خاليًا من النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمي، وهو ما كان يرد دائمًا في الدستور المصري، أو على أن يكون الرئيس مسلمًا، وهو ما كان يرد دائمًا في الدستور السوري،

(١) عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨ـ١٩٧٠م، مالكوم كير، ترجمة د. عبد الرءوف أحمد عمرو ص٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٩٦)، ١٩٩٧م.

وبالمثل فلقد أسقطت تونس الجمهورية النص على أن الإسلام كدين الدولة من دستورها، هذا ويلاحظ أن الاستعمار من جانبه لا يكف عن أن يصور أن النص على دين الدولة الرسمي إنما يعني تحويل الأقليات الدينية إلى (مواطنين من الدرجة الثانية)، ويشيع أن هذا ضد مبدأ المساواة الديمقراطية أمام القانون، وهذا ادعاء -أو دعاية- يقصد به مباشرة استثارة الأقليات والصراع الطائفي وتمزيق الوحدة الوطنية»[١].

وقد كان لمثل هذا البعد التآمري أثره الكبير في تحامل المفكرين الإسلاميين -غالبًا- على فكرة القومية باعتبارها عصبية جاهلية نهى الإسلام عنها، ومن أمثال هؤلاء أبو الأعلى المودودي وسيد قطب وأبو الحسن الندوي[٢]، كما وجد من المفكرين

(١) العالم الإسلامي المعاصر، د.جمال حمدان، ص١١٦-١١٧، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦م.

(٢) انظر على سبيل المثال: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١ص١٢٦، دار الشروق، القاهرة- بيروت، ط١١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. حيث يقول في مسألة تحويل القبلة : «كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وعصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم، فقد نزعهم نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية».

من يرى خطأهم في هذا؛ نظرًا لأن الإسلام قد يحوي في داخله قوميات قد تتمايز عن بعضها بعضًا بشرط ألا تطغى على رابطة الإسلام[1].

كذلك كان من المفكرين من صرح بآرائه التي تحافظ على العلاقة بين القومية والعقيدة، فمن المنجزات العلمية الإسلامية؛ «أنه – أي الإسلام - جاء بنوعي الوعي الاجتماعي، القومي والعلمي، على وجه يمكن أن يتصوره العقل، ويقره العدل المطلق، والشعور العالمي بالحق... فقد بدأ الإسلام في تكوين مجتمعه على السنة الديمقراطية الصحيحة بنشر دعوته بين الأمم أجمع، غير مراع إلا وجه الإصلاح على مقتضى أصولها الطبيعية القويمة، بإشعار جميع طبقات الأمم بحقوقهم وواجباتهم؛ فصاح بالناس كافة...»[2].

يقول الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان «مهزلة الفصل بين العروبة والإسلام»: «الواقع أن العرب فتنهم الغزو الثقافي، وحسبوا أن الوطنيات أو القوميات الحديثة تخلت عن عقائدها الأولى، فتزحزحوا عن قواعدهم، وفرطوا في دينهم، على حين بقي

(١) انظر: الإسلام والعروبة، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة / بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٧٤ – ٨٤، ونقده لآراء المودودي وسيد قطب والندوي. وأيضًا: جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر، ص١٦٥ وما بعدها، فصل (نظرية الوحدة الإسلامية).

(٢) مقال (الوعي القومي والوعي العالمي والإسلام)، محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، المجلد التاسع عشر، ص ١١٠، ١٣٦٧ هـ.

خصومهم بمشاعر القرون الأولى»[1]. ويضيف: «إن إبعاد العرب عن الإسلام خيانة وطنية، إلى جانب أنها ردة دينية»[2].

وكانت مسألة القومية من المسائل التي ناقشها الطنطاوي كثيرًا؛ وذلك لعدة أسباب مهمة يمكن حصرها في النقاط الآتية:

١. معاصرة الطنطاوي للفترة التي بدأت فيها القومية تبسط سيطرتها ونفوذها على بعض البلدان العربية، وفي مقدمتها سوريا مسقط رأس الطنطاوي، والعراق التي عاش فيها فترة من الزمان، وكانت المجادلات حول القومية على أشدها في الشام والعراق في النصف الأول من القرن العشرين، في الوقت الذي كانت فيه مصر لا تدري – كما يقول - «أن هذا حديث المجالس في الشام والأندية والمدارس، لا يمر يوم دون مناظرة فيه بين شباب المسلمين الذين يحسبون أن من الإسلام محاربة الفكرة العربية وترك قيادها لغيرهم، والشباب القوميين الذين يظنون أنهم يستطيعون تجريد العربية من الإسلام والدعوة إليها على أنها قومية من القوميات»[3].

٢. علاقته القريبة بأرباب هذه الدعوة في الشام، مثل ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، إذ كان الطنطاوي وعفلق من الأعضاء المؤسسين في (المجمع الأدبي) الذي أعلن عنه

(١) هموم داعية، محمد الغزالي، ص٣٩، دار البشير، القاهرة، ط٢، ١٤٠٥هـ.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٢.
(٣) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ١٢٤.

بدمشق في ١٩٣٣م[١]. وقد كان من البديهي أن يكون بينهما كثيرٌ من المشاحنات لاختلاف شخصيتيهما وأفكارهما، وقد ذكر في ذكرياته بعض ما كان بينه وبين عفلق[٢]. أما ساطع الحصري فقد كان للطنطاوي معه لقاء شخصي في القاهرة سنة ١٩٤٧م استمر ساعات؛ ويقول عنه: «كان العقل المفكر لفتنة القومية، التي لم يأت منها إلا أننا كنا أمة واحدة هي (أمة محمد)، فصرنا جمعية أمم، وكنا أخوة يجمعنا الحب في ظلال الإيمان، فصرنا أعداء تفرقنا هذه الدعوة الجاهلية»[٣].

٣. نزعته الدينية التي تكره العصبية، وترفض أي فكرة قد تؤدي إلى انفراط عقد الأمة الإسلامية، بالإضافة إلى ارتباط لفظ القومية في كثير من الأحيان بأسماء يدور حولها كثيرٌ من علامات الاستفهام مثل ميشيل عفلق نصراني الديانة، وساطع الحصري صاحب الدعوة إلى القومية العربية والذي مات

---

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج ٣ ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ج ٤ ص ١٤٧.

(٣) المرجع السابق، ج ١ ص ٦٥ ،٦٦. وقد حاول بعض الباحثين الدفاع عن ساطع الحصري بأن دعوته للعربية هي في الوقت ذاته دعوة للإسلام؛ لأن العرب لم يكونوا شيئًا مذكورًا حتى كان القرآن والإسلام، انظر: مقال (العروبة بين العنصرية ومبادئ الإسلام الإنسانية)، أحمد حسين، مجلة الثقافة، ص ١٠-١٣، السنة السادسة، العدد٦٩، يونيو ١٩٧٩م. وأيضًا: مقال (الفكر القومي عند ساطع الحصري)، د. محمد عبد الرحمن برج، مجلة الثقافة، ص٤٧-٥٠، السنة الرابعة، العدد٣٩، مارس ١٩٧٤م.

وهو لا يحسن العربية نطقًا أو كتابة!![1].

٤. تأثره الشديد والمبكر ببعض الكتاب من ذوي الاتجاه المحافظ، وعلى رأسهم مصطفى لطفي المنفلوطي الذي أهدى الطنطاوي إلى روحه سنة ١٩٣٠م أول كتاب له هو كتاب (الهيثميات) واصفًا المنفلوطي بأنه سيد كتاب العصر[2].

ولقد كانت للطنطاوي آراء شديدة القرب من آراء أستاذه، إن لم تكن متطابقة، خاصة في مسألة القومية والوطنية؛ يقول المنفلوطي: «لو علمت أن الوطنية، وهي أفضل ما حمل امرؤ بين جنبيه من خلال الخير، تعترض دون طريقي إلى آخرتي، أو تمتد حجابًا بيني وبين ربي، لخرجت منها كما أخرج من ردائي، ثم خلصت إلى شعفة من شعفات الجبال، أو إلى صخرة في منقطع العمران أخلو فيها بنفسي من حيث لا أسمع دعاء إلا دعاء القلب، ولا نداء غير نداء الله، حتى يحين حيني، وينقضي أجلي... والجامعة الإسلامية بالنسبة للمسلم هي الجامعة الكبرى التي يجب أن يمنحها بنات قلبه، وجوهر لبه، قبل أن يمنح ذلك غيرها من الجوامع الأخرى»[3].

ويظهر التوحد الفكري في المسألة القومية بين المنفلوطي والطنطاوي في أشد صوره في موقفهما من غير المسلمين في

---

(١) انظر: جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام، ص١٤٩-١٥٩، دار الاعتصام، بالقاهرة، ١٩٨٥م.

(٢) الهيثميات (السفر الأول)، علي الطنطاوي، ص ٢(الإهداء).

(٣) النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، ج٢ ص٦٤، مكتبة مصر، ١٩٩٣م.

المجتمع الإسلامي؛ يقول المنفلوطي: «فلتنعموا أيها المسيحيون بالاً ولتثلجوا صدورًا، ولتعلموا أن المسلم لا يستطيع أن يكون متعصبًا ما دام متمسكًا بدينه؛ لأن في تعصبه هدمًا لأعظم ركن من أركان الدين الذي يتعصب له»[1].

أما الطنطاوي فيقول: «ونحن ندعو إلى الوحدة العربية، لكن على أن تكون طريقًا إلى الوحدة الإسلامية، ولا ننكر إخواننا في الوطن واللسان من النصارى، لكنا نسألهم ألا يطلبوا منا وهم مليونان أن نقطع لأجلهم روابط إخوتنا بخمسمائة مليون مسلم غير عربي، يحبوننا ونحبهم، ويشاركوننا عقائدنا وعبادتنا»[2].

إن الإسلام يحمل في نفسه من روح التسامح مع المخالفين في العقيدة أكثر مما تحمل شريعة في الأرض؛ «ذلك أن روح السماحة التي تبدو في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء، وهذه الروح لا تكاد توجد في غير المجتمع الإسلامي»[3].

كما لا يمكن إغفال أثر محب الدين الخطيب في نظرة الطنطاوي المعتدلة للقومية، يقول: «وكان أول من نبهني إلى هذا

---

(١) المرجع السابق، ج٢ ص٦٩-٧٠.

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٣٣.

(٣) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، ص٤٦، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الغلو منا في النفور من كل دعوة عربية، خالي الأستاذ محب الدين الخطيب أول دعاة العربية في مطلع هذا القرن، وأول دعاة الإسلام بعد ذلك، وقال لي: إنكم تخليتم عن قيادة الدعوة العربية، وتركتموها لهؤلاء فصبغوها بهذه الصبغة الجاهلية، وأنتم في الحقيقة أهلها وأنتم أحق بها»[1].

ولذلك نراه يبرر اتجاه بعض المصلحين نحو القومية من أمثال رشيد رضا ومحب الدين الخطيب بأن هؤلاء «ما أرادوها قومية تحل محل أخوة الإسلام، ولكن أرادوا استرداد حق العرب ضمن حدود الإسلام، ممن عدا على حقوق العرب وجانب الإسلام»[2].

وهو يعترف بأنه بذل جهدًا كبيرًا للتوصل إلى إدراك الفرق بين العروبة والإسلام، فقد مضى عليه ربع قرن وهو يتعامل مع الكلمتين كالمترادفتين؛ يقول الإسلام ويريد العروبة، ويكتب العربية ويقصد الإسلام، يقول: «وما ذلك عن جهل مني بحجج الطرفين وأقوالهما، فلقد حفظتها من كثرة ما سمعتها وناظرت فيها، بل لغموض صورة الدعوة العربية حتى في أذهان أصحابها، وإنهم حين يكتبون فيها أو يجادلون عنها، يأتون بشيء هو إلى الفلسفة الغامضة، والخطابيات الفارغة، أدنى منه إلى التعريف العلمي الواضح، حتى عند فيلسوفهم ومفكرهم الأول ساطع الحصري»[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) علي الطنطاوي، ذكريات، ج٢ص٧٥.

(٣) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٢٥.

«لذلك لم يكن واضحًا في الأذهان، القومية التي يجب أن تنتسب إليها [على سبيل المثال] مصر، وأن ترتبط بها مع الآخرين، وأن تفلسف حياتها حولها، هل ينبغي أن تدعو إلى حضارة مصرية فرعونية، أو إلى حضارة عربية، أو إلى حضارة إسلامية أو إلى حضارة تنتسب إلى البحر الأبيض المتوسط، أو إلى حضارة شرقية»(١).

وفي مقابل غموض الفكرة عند دعاتها نجد جلاء صورة الارتباط والاندماج بين العروبة والإسلام عند الطنطاوي، «فليس بين العربية والإسلام ما يدعو إلى هذا الخلاف المستمر بين الدعاة إليهما إنما الخلاف بيننا وبين مَن يحاول أن يجعل من القومية دينًا يناوئ به الإسلام، أو يجعل من العربية أخوة يستغني بها عن أخوة الإسلام»(٢).

«فالفكرتان من التداخل بحيث لا يكاد يظهر الخلاف بينهما، وبحيث إن أشد الناس بعدًا عن الإسلام من غلاة القوميين لا يستطيع أن يجرد العربية من الإسلام، وماذا يبقى له من العربية إذا لم يكن فيها محمد وصحبه وأتباعه الذين فتحوا الأرض، وشادوا المدائن، وأقاموا هذه الحضارة...

ما الذي يبقى من العربية إذا لم يكن فيها محمد والقرآن؟!

(١) مقالات في النقد الأدبي، د/عبد الحميد إبراهيم، ج ٥ ص١١٠.
(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ١٣٧.

هل تبقى إلا المعلقات وبطولات حرب البسوس التي لم تزد على (خناقة) في حي، وموقعة ذي قار التي طار العرب فرحًا بها، حين غلبوا فصيلة من جند كسرى؟!»[1].

إن مناقشة الطنطاوي لهذه القضية تأتي في إطار رغبته في تصحيح رأي الإسلاميين في العربية، والقوميين في الإسلام، وفي إحلال السلام بينهما محل الخصام، فالصفتان ليس بينهما تضاد بحيث لا تتحمل إحدى الكلمتين الأخرى، والدليل المنطقي على ذلك هو أن معظم العرب من المسلمين، فالأساس عند العرب هو اشتراك الصفتين، وإذا كان لا بد من الاختلاف والتنازع، فلا بد إذا من حصره في إطار العربي غير المسلم والمسلم غير العربي، وأيهما أحق بالولاء لنا، نحن العرب المسلمين.

ثم يحدد جوهر الخلاف بين الفريقين في بناء الدولة، «هل تكون إسلامية، ويكون الإسلام هو الرابطة بين أفرادها فيدخل فيه المسلمون جميعًا ويكونون أمة واحدة، أم تكون عربية، وتكون الرابطة رابطة الجنس، فكل عربي هو منا ولو لم يكن مسلمًا، وكل أعجمي ليس منا ولو كان مسلمًا»[2].

وقد أجاب على هذه المسألة مبينًا أن الرابطة الإسلامية أقوى من الرابطة القومية، وأن التاريخ من قبل ظهور الدعوات القومية

(١) المرجع السابق، ص١٣٥، ١٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

قد أثبت أن الإسلام قد حافظ على الأقليات غير المسلمة في إطار دولته الدينية؛ فيقول: «إنه ليس بين الإسلام والعربية تناف ولا تباين، وأن هذا الخلاف ليس له ثمرة؛ لأن العرب غير المسلمين، عاشوا معنا، وسيعيشون معنا، ما ضقنا بهم ولا ضاقوا بنا، وما ظلمناهم ولا شكوا من ظلمنا»[1].

كما فصل الطنطاوي هذا الرأي المجمل في إحدى مقالاته التي نشرت في سنة ١٩٤٦م، وفي أخرى نشرت في سنة ١٩٥٦م، ويمكن حصر هذا الرأي في النقاط الآتية[2]:

أولا: من الوجهة النظرية: استخدم الطنطاوي أشهر الآراء في نظرية الدولة، وهو رأي «رينان» القائل بأن الدولة لا تبنى على الأرض وحدها، فرب دولة تكون أرضها محتلة مثل فلسطين. ولا تبنى على اللسان، فإن أمامنا دولًا فيها أكثر من لسان كسويسرة، ودولًا متعددة لها لسان واحد مثل إنجلترا وأمريكا. ولا تبنى على الدين (كما يفهمه الغربيون فيحصرونه في دور العبادة)، فقد تتعدد الأديان في الدولة الواحدة وتتعدد الدول ذات الدين الواحد[3].

إن الدولة تبنى في رأي رينان على (الإرادة المشتركة) فكل كتلة جمع بين أفرادها تاريخ واحد وأمل واحد، وكانت موحيات

(١) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٢٤- ١٣٨.

(٣) انظر: مقال (ما هي الأمة؟)، أرنست رينان، ترجمة علي أدهم، مجلة الثقافة، ص١١-١٩، السنة الثانية، العدد٦، مارس١٩٧٤م.

تاريخها، وكانت مطامحها في مستقبلها، متشابهة في نفوس أفرادها، كانت هذه الكتلة أمة وحق لها أن تنشئ دولة.

بينما ينفي الطنطاوي وجود هذه الإرادة المشتركة في الكتلة العربية، ويدلل على ذلك بسؤال استنكاري هو: هل تتحد موحيات الماضي ومطامح المستقبل في نفوس العرب جميعًا؟! إذا قرأت أنا وعربي من جبل لبنان الماروني تاريخ الغزوات الصليبية، هل يكون أثر هذا التاريخ في نفسي مثل أثره في نفسه؟! هل يطمح مثلي إلى الوحدة، ويشاركني في المثل الأعلى الذي أتمثل المستقبل عليه؟!

ثانيًا: من الوجهة الواقعية: ويمكن حصره من وجهة نظره في السؤال الآتي والإجابة عنه وهو: هل استطاعت جامعة الدول العربية بعد هذه السنين الطويلة والمحاولات الكثيرة أن تجد لها هذه الإرادة المشتركة، الجواب: لا !!

ثالثًا: من وجهة المصلحة: إذا ثبت أن المصلحة تكمن في الوحدة بين أصحاب المصالح المشتركة، فهل تؤلف كتلة من ثمانين مليونًا مشكوكًا في اتحاد أبنائها في الذكريات والآمال والإرادة العامة؟ أم كتلة من خمسمائة مليون؟![١]

والخلاصة، كما يرى الطنطاوي هي أن العربية والإسلامية كدائرتين: صغيرة وكبيرة، إحداهما وسط الأخرى إلا هلالًا دقيقًا

(١) كان هذا التقدير لعدد السكان وقت كتابة هذه المقال سنة ١٩٤٦م.

هو موضع الاختلاف بينهما، وكل ما يقول به دعاة العربية -فيما عدا ما يخالف الإسلام- يقول به دعاة الإسلامية. كما أن الطنطاوي يعلن أنه من دعاة الوحدة العربية، لكن على أن تكون طريقًا إلى الوحدة الإسلامية، التي تعيد للمسلمين مجدهم وترد إليهم حقوقهم، دون أن تجور على حقوق غير المسلمين الخاضعين لسلطانها.

القضية الفلسطينية

شغلت قضية الصراع مع اليهود الصهاينة في فلسطين مساحات كبيرة من كتابات الطنطاوي السياسية، وهو يقول: «الموضوع الذي أخذ من قلبي ومن لساني الحظ الأوفر: هو قضية فلسطين التي كنت أكتب فيها وأخطب من أواخر العشرينيات»[١]، وهو الذي شارك في مؤتمر القدس عام ١٩٥٣م، لنصرة القضية الفلسطينية، وطاف كثيرًا من البلاد الإسلامية لنصرة القضية الفلسطينية[٢].

وكتابات الطنطاوي عن الصراع العربي الإسرائيلي تمثل نوعين:

١- الحديث الخاص بالقضية الفلسطينية والصراع مع إسرائيل: مثل مقالاته؛ (قصتنا مع اليهود) [٣]، ومقالاته (يا أهل فلسطين)، و(في ليلة الإسراء)، و(لا تنسوا فلسطين)، و(أسبوع التسلح

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص٢٧٤، مقال (دفاع عن فلسطين).

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٥ ص١٢٣، مقال (مؤتمر القدس الإسلامي).

(٣) وقد طبع هذا المقال منفردًا. انظر (قصتنا مع اليهود)، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩٨م.

وفلسطين)، من كتابه هتاف المجد. [1]، بالإضافة إلى مقالته (دفاع عن فلسطين)[2]، ومقالاته (ذكريات فلسطينية)، و(في سبيل فلسطين... قطعنا ربع محيط الأرض)، و (مؤتمر القدس الإسلامي)[3] من كتابه ذكريات... وغيرها.

وفي هذه الكتابات تتسع مساحة العرض، وتبرز ملامح القضية كما هي في ذهن الكاتب بشكل متكامل.

٢- **الحديث العرضي**: حيث تعد الإشارة إلى القضية الفلسطينية من أكثر الإشارات في كتابات الطنطاوي بصفة عامة.

ومن الإشارات العرَضية للقضية الفلسطينية نجد أيضًا نوعين من الإشارات؛ (الأول) إشارات ضمن كتابات سياسية: ومثاله إحدى مقالاته القديمة والتي يدعو فيها ويأمل أن تكون هناك جامعة للدول الإسلامية مثل جامعة الدول العربية؛ إذ يقول: «وإني لأرجو ألا أموت حتى أرى جامعة الدول الإسلامية قد صارت حقيقة، وأن أحكام الإسلام قد غدت قانونًا، وأن عز الإسلام قد رجع، وأن السماء قد صفت وانقشعت عنها هذه الغيوم؛ غيوم التفرق والانقسام، وإسرائيل والاستعمار، وما يؤذي الأخلاق من الفسوق، وما يؤذي العقيدة من النحل الخبيثة والمذاهب المنحرفة» [4].

---

(١) انظر: هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ٢٢٩، (فهرس).

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص٢٧٣، مقال (دفاع عن فلسطين).

(٣) انظر: المرجع السابق ج٣ص٣٠١، (فهرس).

(٤) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ج٢، ص ١٨٧، مقال (لا تيأسوا).

(الثاني) إشارات ضمن كتابات غير سياسية: مثل قوله في إحدى مقالاته النقدية، في معرض حديثه لنقد الأفلام الخليعة وأثرها في نفوس الشباب: «إن هذه الأفلام تفسد كل ما تصنع المساجد في تربية القلوب والمدارس في تنمية العقول والثكنات في تقوية الرجولات، ولو كانت من عمل إسرائيل لتقتل بها روح الجهاد في هذا الشعب لما كانت شرًا مما هي عليه الآن. فكافحوها كما تكافحون الكوليرا والجراد وإسرائيل»[1].

أو يتعرض لها في مقاله «أغاني الميوعة والفجور» في أثناء نقده لأغنية محمد عبد الوهاب «الدنيا سيجارة وكاس»؛ حين يقول: «الدنيا سيكارة وكاس! أهذه الدنيا؟ وأين دنيا المكارم؟ وأين دنيا البطولات؟ أننهض هذا الشعب، ونحاول أن نثير في دمه إرث الماضي، وفي نفسه ذكريات النصر، وفي رأسه العقل النير الحر، ليحرر أرض الوطن الأكبر من أوضار إسرائيل وأرجاس الاستعمار، ويقيم صرح المجد، ويسترد من الدهر الدين الذي دنا به التاريخ، حتى يصل اليرموك وحطين بالمعركة المرتقبة في تل أبيب، ويرجع عهد الوليد والرشيد.. أنصنع هذا كله بسيكارة وكاس»[2].

وهو ما يتضح معه أن القضية الفلسطينية كانت تملأ عقله ووجدانه؛ حيث تبرز دائمًا في كتاباته وكلامه في أي موضوع، فلا ينتظر مناسبة خاصة للتحدث عنها.

---

(١) المرجع السابق، ج٢ ص ١٤٠، مقال (قاوموا هذه الأفلام).
(٢) المرجع السابق، ج٢ ص ١٢٤، مقال (أغاني الميوعة والفجور).

لقد عاش الطنطاوي قبل نشأة إسرائيل، وعاصر الجهود الصهيونية في تدعيم وجودهم الاستعماري على أرض فلسطين، وحذر من خطر الوجود اليهودي المتنامي فيها آنئذ؛ ففي افتتاحية جريدة «ألف باء» يوم الأحد الموافق ١٩٣٣/١٠/١٥م، كتب يخاطب الأدباء ويصرخ فيهم لغفلتهم عن القضية الفلسطينية قائلًا: «أيهيج نفوسكم ويؤلمكم، ويسوِّد الدنيا في عيونكم، حبيب يعرض عنكم؟ أو ليلة وصال تخسرونها، أو ابتسامة يحجب عنكم نورها؟ ولا يؤلمكم أمة في فلسطين تضيع بقضها وقضيضها، يهاجمها في عقر دارها أذل شعب وأخسه وأهونه على الله والتاريخ؟!... ألا يؤلمكم أن تصبحوا يومًا فتجدوا أن فلسطين قد صارت لغيركم، وأنكم صرتم غرباء في أرضكم، أو تائهين مشردين في أرض الناس، ونحن نعرف (اليهودي التائه)، فهل تسكتون حتى يصير منا (العربي التائه)»[1].

وهو يستحث الأدباء والكُتاب وأصحاب الأقلام أن يجعلوا من فلسطين نصب أعينهم؛ فيقول: «أين أنتم يا أدباء العرب من القضية الفلسطينية؟... أين القصائد الفلسطينيات؟ وأين الأقلام الحرة المؤمنة التي يتطوع أصحابها ليكونوا جنودًا في معركة فلسطين: تصف نكبة فلسطين، وتحرك الدنيا لنصرة فلسطين، بل تهز قبل ذلك أهل فلسطين، وجيران فلسطين؛ ليتداركوا فلسطين، قبل أن

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ص٢٧٤، مقال (دفاع عن فلسطين).

يأتي يوم يندمون فيه، وليس ينفع في ذلك اليوم ندم»[1].

وهو يقترح حلًا، و يدعو للتبرع بالمال من أجل إنقاذ فلسطين في تلك الفترة التي كان يشتري فيها اليهود كل ما يمكنهم من أرض فلسطين؛ فيقول: «لنبدأ بجمع المال لإنقاذ فلسطين، ليقدم كل ما يستطيع، لا يخجل به مهما قل، إن الشحاد يستطيع أن يقدم (نكلة) في الشهر فليقدمها، نكلة في الشهر، وقرش في الشهر، وفرنك في الشهر، وربع ورقة في الشهر، ونصف ورقة في الشهر، وأنا رجل مفلس، ولكني أقدم اليوم نصف ورقة في الشهر، لا تقولوا إن ذلك قليل، فالقليل إلى القليل كثير... أيها الناس، إخوانكم وأبناء عمكم، يريد اليهود أن يطردوهم غدًا من ديارهم ثم يميتوهم، فاشتروا حياتهم بمالكم، الأدب ثم المال ثم الدم، هذه هي الأركان التي يقوم عليها العمل لإنقاذ فلسطين، فسيروا فهذا هو الطريق، سيروا من الآن بخطى ثابتة وسريعة، لا يجوز أن نتمهل فالوقت يمر علينا لا لنا، أيها الناس؛ ثقوا أنها إن ضاعت فلسطين ضعنا»[2].

وبالرغم من ذلك ضاعت فلسطين؛ وبالرغم من ذلك ظل الطنطاوي يكتب عن فلسطين.

ففي مقاله (قصتنا مع اليهود)؛ يؤرخ علي الطنطاوي لقضية الصراع مع إسرائيل، وهو يرفض أن تحصر القضية في فلسطين،

---

(١) المرجع السابق، ج٢ص٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، ج٢ص٢٧٧.

أو أن يتسمى الصراع باسم (الصراع العربي الإسرائيلي) كما هو مألوف؛ فالقضية «ليست قضية أهل فلسطين وحدهم، ولا قضية العرب، لماذا تسمونها عربية، وفي العرب من لا يرى فيها رأيكم ولا يدين بدينكم، ومن قد يكون هواه مع عدوكم، ولِمَ لا تجعلونها إسلامية؟ إن أيدي المسلمين جميعًا تمتد إليكم لتكون معكم إن جعلتموها جهادًا في سبيل الله، ودفاعًا عن المسجد الأقصى، والأرض التي باركها حوله»[1].

ويتضح من ذلك أن الطنطاوي يرى في مواجهة إسرائيل جهادًا في سبيل الله، وأن المعركة عقائدية إسلامية واسعة ضد الصهاينة، ولا ينبغي أن تنزل عن هذا المستوى إلى القومية الضيقة؛ ولذلك فإن «قضية فلسطين لن تموت؛ لأنها عقيدة في قلب كل مسلم، هل سمعتم أو قرأتم أن عقيدة يحملها في قلبه ألف مليون يمكن أن تموت. إن الناس يموتون في سبيل العقيدة، وما ماتت عقيدة قط من أجل حياة إنسان»[2].

ويضيف: «لما كان هتافنا (أمجاد يا عرب أمجاد) لم تنصرنا أمجاد العرب؛ لأن مجد العرب الحق ولد يوم ولد محمد، لولا محمد لم يكن للعرب إلا المعلقات، وقصر غمدان، ومعارك بين القبائل، لم تبنِ مجدًا، ولا خلدت ذكرًا ومآثر لم تدر بها روما ولا القسطنطينية ولا مدائن كسرى، فلما جاء محمد بالإسلام جعلهم به سادة الأرض

(١) قصتنا مع اليهود، علي الطنطاوي، ص٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨.

وأساتذتها، وجعل منهم مُثل البشرية العليا في الفضائل والمفاخر، حتى إذا كانت معركة رمضان وذكرنا النشيد العلوي الذي كنا نهتف به من قبل نشيد (الله أكبر) وضعنا أقدامنا على طريق النصر»[1].

ومن هنا يأتي علاج المشكلة من وجهة نظره في العودة إلى الإسلام، فالهزيمة من وجهة نظره في الابتعاد عن الإسلام، والنصر الذي جاء في حرب رمضان جاء بعد أن اقتربنا قليلًا منه: «لقد دهش العالم وعجب مما رأى من جنودنا في سيناء وفي الجولان، وكان عليه أن يعجب من هزيمتنا في حرب ٤٨ وحرب ٦٧ لا من ظفرنا في رمضان... العجيب أن يظفر اليهود الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة، لا أن يظفر أبناء الذين فتحوا الشرق والغرب، وكانوا سادة الدنيا وأساتيذها، على أننا ما غلبنا في الحربين ٤٨و٦٧، وإنما غلبت فينا خلائق اليهود التي دخلت علينا في غفلة من خلائق الانقسام والتردد، وفقد الكتمان وارتجال الخطط، والإصغاء لمشورة الأعداء»[2].

وهو في حصره للصراع مع إسرائيل في الناحية الدينية ليس بدعًا في ذلك فإن هذا هو اتجاه التيار الإسلامي الذي يرى أن «الذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين، يشاركون في تحقيق هذه الغاية؛ لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامي زائلة، والعرب

(١) المرجع السابق، ص٣٩-٤٠.

(٢) المرجع السابق٢٢ ،٢٣. وانظر: هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص٤٥.

من بعدها منتهون! وهذه هي الخطة»[١].

وهو يتفق في ذلك مع الشيخ الغزالي الذي يؤكد على وجود العنصر الديني المؤثر في قيام دولة إسرائيل عندما يتساءل باستنكار واستنفار؛ لشحذ الروح الدينية والدفع بها في معركة الصراع مع إسرائيل- قائلًا: «هم بنو إسرائيل.. فبنو من نحن؟!»[٢].

والحقيقة أن اليهود لم يعرفوا في يوم من الأيام حقوقًا لإسرائيل عليه السلام أو لغيره من أنبياء الله؛ فلم يحفظوا لأحد من أنبياء الله عهدًا، ولم يرعوا له حقًا ولا ذمة: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[٣].

وعلى الرغم من التشكيك في الدوافع الدينية لقيام دولة إسرائيل، والتي يساندها اعتراف مؤسس الدولة الصهيونية تيودور هرتزل بأن المسألة اليهودية ليست بالنسبة له مسألة اجتماعية أو مسألة دينية.. بل هي مسألة قومية. وأنه لا ينقاد لأي دافع ديني[٤]؛ «فإن الشعار الديني شعار تعبوي لا تستطيع أي سياسة واقعية أن تتجاهله. وهو ما صرح به عندما حوَّل أسطورة العودة القوية إلى

(١) هموم داعية، محمد الغزالي، ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٨٧.

(٤) انظر: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، رجاء جارودي، ترجمة قسم الترجمة بدار الغد العربي، ص١٨، ١٩، ط٧، ١٩٩٦، دار الغد العربي، القاهرة.

حقيقة تاريخية»[1]. ولذلك تسمت الدولة باسم ديني هو إسرائيل (يعقوب عليه السلام) أبو أنبياء بني إسرائيل.

وإذا كانت نظرية أن الشعار الديني شعار تعبوي لا تستطيع أي سياسة واقعية تجاهله؛ فإن الإسلام تاريخيًا، يؤكد هذه النظرية بفتوحاته الكبيرة التي حدثت في عصر الإسلام الأول، وهو الآن أحوج ما يكون إليه، وهذا ما كان يؤكد عليه علي الطنطاوي.

حركات التحرر

منذ أتيح للغرب الصليبي أن يتسلط على الشرق الإسلامي أخذ يحدث التغيير السياسي اللازم لبقاء سيطرته أولًا ثم لتحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانيًا؛ فكان احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م، وتونس سنة ١٨٨١م، ومراكش سنة ١٩١٢م، وللشام سنة ١٩٢٠م، وكان احتلال بريطانيا سنة ١٨٥٧م إيذانًا بزوال إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر، واحتلالها لمصر سنة ١٨٨٢م، والعراق سنة ١٩١٤م، وفلسطين سنة ١٩١٨م، ولم يكن ذلك التوزيع وليد الصدفة، فقد كشف الاتفاق المنعقد بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤م عن جانب من سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامي[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) انظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د. علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، ص٤٥.

عاصر الطنطاوي هذه المحنة التي عاشتها الأمة الإسلامية؛ فيقول: «لقد فتحت عيني على الدنيا في أوائل هذا القرن الميلادي، وما في ديار الإسلام بقعة لم يدخلها أو يحُم حولها الاستعمار»[١].

وفي هذه الأثناء ألقى الطنطاوي خطبه الحماسية، وكتب مقالاته السياسية التي تناصر حركات التحرر، وهو يقول عنها في هذه المرحلة: «رأيت في كتبي المطبوعة، وما بقي من مقالاتي المنشورة، وفي المخطوط من أوراقي خطبًا ومقالات ومحاضرات وتعليقات، لو أنها جمعت كلها لكان منها كتاب كبير، في أجزاء كثيرة لا في جزء واحد؛ عنوانه «العرب والنضال للاستقلال»[٢].

وفي أيامها كان يحاول أن يستنفر الأدباء والكُتاب والمفكرين في الدخول إلى المعركة؛ فكتب في إحدى مقالاته سنة ١٩٤٦م قائلا: «نحن اليوم في معركة مع الاستعمار، قد اندلعت نارها، وطار في كل أرض من أرض الإسلام شرارها، فهل رأيت جيشًا في معركة يدع مدافعه فلا يطلقها، وينسى دباباته فلا يسيرها، ويلقي بنادقه فلا يحملها؟ وهذا ما نفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخرها في هذا النضال، وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغير، هذه الأقلام، فما لهذه الأقلام نائمة لا تفيق، جامدة لا تتحرك؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة المدلهمة التي

(١) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص٨، (المقدمة).

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص٥٥، مقال (بقية من حديث الجزائر).

جن فيها الموت؟!»[1].

ولا شك في أن الدوافع إلى كل استعمار هي دوافع الاقتصاد والاستغلال، وأن ادعاء الحضارة وتمدين الشعوب، ادعاء باطل وتبرير سخيف، اعتاد المستعمر أن يقدمه بين يدي استعماره ليخدع به الرأي العام، ويخدع به نفسه، ثم الشعوب المغلوبة على أمرها، وخديعة الشعوب المغلوبة على أمرها هين ميسور؛ لأنها مغلوبة، وليس وراء الهزيمة حجة تبرر الممالأة واصطناع الرضى والاقتناع[2]. ومجمل القول أنه لا يمكن فهم الاستعمار وقضايا الشعوب المغلوبة على أمرها إلا بمصطلحات المنفعة والاستغلال، أما ما يقدمونه بين أيديهم من مصطلحات الحضارة والمبادئ والإنسانية؛ فما هي إلا من نفاق الضمائر وخديعة والشعوب»[3].

ومن هنا كان العبء الملقى على كاهل الطنطاوي في كتاباته السياسية في هذه الفترة وعن هذا الموضوع؛ حيث كان عليه أن يسير في اتجاهين:

(الأول): محاولة محو آثار الهزيمة النفسية التي خلفها الاستعمار في نفوس الجماهير المغلوبة؛ وقد تجلت هذه الآثار

---

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٧، مقال (أين الأقلام).

(٢) انظر: جوانب من قضايا الأمة العربية، (الجزء الأول: في الاستعمار والاستشراق والصهيونية)، د. حلمي علي مرزوق، ص١١، دار المعارف بمصر، الإسكندرية، ١٩٧١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٦.

في مظهرين:

١. الإحساس بالإحباط والدونية أمام المستعمر وحضارته وإمكاناته المادية.

٢. التأثر الفكري والأخلاقي بأخلاق المستعمرين، والانبهار بالحضارة الغربية بكل ما تحمله؛ خيرها وشرها؛ حتى وصل الأمر بهؤلاء المنبهرين أن أرخو لبداية تاريخنا القومي الحديث بالحملة الفرنسية على مصر والتي حررت مصر؛ من ربقة الاستعمار التركي البغيض- كما يقولون-، وخروجنا من القرون الوسطى، وعدم اعتبار هذه الحملة العسكرية الاستعمارية ضمن التاريخ الاستعماري الغربي، وعزلها عن تاريخ العلاقات الغربية بالمشرق الإسلامي[١].

بل ومنهم من دعا لأن «نكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد وما يعاب»[٢].

(الثاني): الدعم والإشادة بالبطولات في مقاومة المستعمرين في البلاد العربية والإسلامية، والعمل على بث روح الحماسة والجهاد في نفوس الشعوب المستعمرة.

---

(١) انظر: ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك، ص ٢٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

(٢) مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين، ص٤١.

(أولًا) الهزيمة النفسية:

كان الغرب طامعًا في غزو العالم الإسلامي والعربي، وقد اكتمل هذا الغزو بالاحتلال الغربي الذي سقطت فيه بلادنا منذ أوائل القرن التاسع عشر تحت سيطرة القوى الغربية، هذا الغزو كان له شق آخر أكثر خطرًا على الأمة من أسلحة الغرب الفتاكة هو محاولة الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري.

وملخص النظرية الاستعمارية الثقافية أن «الحضارة الآن هي الحضارة الغربية، وأن هذه الحضارة لها ثقافتها، وأن الغرب هو الجنس الأبيض محضِّر الأمم الشرقية والملونة، وأن هذه رسالة إلهية قد ألقيت على كاهل الرجل الأبيض أن يكون ممدن الأمم المتأخرة، ويتصل بهذا أن الاستعمار ليس إلا هذه المحاولة، ولذلك فليس هناك غير الثقافة الغربية»[١].

لقد «حرص النفوذ الأجنبي على استدامة وجوده [حتى بعد رحيل جنوده] في بلاد المسلمين، وتلك محاولة ضخمة تطلبت منه أن يعمل على القضاء على روح السيادة والقوة والاعتزاز النفسي بالكيان القائم المتصل بأساليب خادعة وماكرة، وكان أخطرها هو تحطيم مفهوم الإسلام القائم على الحفاظ على الذات ومدافعة العدو، والإعداد بالقوة والمرابطة في الثغور واستبقاء روح الجهاد

---

(١) أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي، أنور الجندي، ص٢٦، منشورات رابطة الجامعات الإسلامية، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

قوية غلابة والحيلولة دون السقوط في حمأة الترف والدعة، وهي التي تعمل على التحلل والضعف والاستكانة»[١].

وقد خلفت هذه الحملات المزدوجة -كما سبق- بعض الآثار السلبية في نفوس الشعوب المستعمَرة؛ مثل الإحباط أمام العسكرية الغربية وتفوقها المادي الملحوظ، وعلى الرغم من أن هذه الحالة لم تدم طويلًا، وبدأت المقاومة في كل أرجاء البلاد المستعمرة، فقد كانت في حاجة إلى الدفع المعنوي من جانب الخطباء والكُتاب، وكان الطنطاوي صاحب الصناعتين، فلم يبخل على أمته بخطبه ولا بمقالاته.

والطنطاوي يعترف بهذه المشكلة حين يقول: «لقد أصابتنا نكسة في آخر القرن الماضي، حين رأينا أوروبا قوية بعلمها وسلاحها، ورأينا أننا ضعاف بجهلنا هذه العلوم وفقدنا السلاح»[٢].

ولكنه يحاول أيضًا أن يعيد الثقة إلى النفوس في لعلاج هذه الهزيمة النفسية أمام المستعمر في إحدى مقالاته سنة ١٩٤٩م: «هل تدرون ما هو أعظم خَطب يمكن أن ينزل بنا، وما أدهى مصيبة يخشى أن تصيبنا؟ لا، ليست الاستعمار الأجنبي، فسنجاهد حتى لا يبقى في ديار العروبة ومنازل الإسلام غاصب أجنبي، وليست مشكلة إسرائيل فسنحارب حتى نسلم إسرائيل إلى عزرائيل،

(١) المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر، أنور الجندي، ص٢٠٦، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٢) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ٢٢٤، مقال (في افتتاح أسبوع الجزائر).

ولكن المصيبة أن نكفر بأنفسنا، وأن نجهل أقدارنا، وألا نعرف فوق الأرض مكاننا، وأن نحسب أننا خلقنا لنكون أبدًا أضعف من الغربيين، وأجهل منهم، وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الدنيا، ما كانوا أقوى منا على عدونا، وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عددًا وأقوى عددًا وأضخم عمرانًا، وأكثر علمًا ومالًا، فظفروا به وانتصروا عليه»[1].

«إلى الأمام! وإلا ما هذه الثورات، وما هذه الوثبات؟ وما هذه الوحدة في العواطف، حتى لتهتز الشام لكل حادث في العراق، وتغضب مصر لكل عدوان على الشام، ويثور المشرق لنصرة المغرب، وتقوم مراكش لتأييد إندونيسيا، وتهب الباكستان لتدافع عن فلسطين»[2].

وقد استلهمت روح المقاومة في نتاج الطنطاوي الأدبي في هذه المرحلة من ثلاثة مصادر؛ وهي العقيدة، والتاريخ، والواقع.

(أ) العقيدة:

أما العقيدة؛ فهي أكبر محرك للشعوب في حال الأزمات، وفي حديثه عن الأزمات السياسية يستدل بالآيات القرآنية التي تشير إلى ضرورة الجهاد؛ مثل ذلك في مقاله (خاطبوهم بلغة المدفع) حين يقول: «إننا نحب أن نتأدب بأدب القرآن الكريم؛ جل من أدب،

(١) المرجع السابق ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

ونأخذ بقول الله عز وجل تقدس من قول ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾... ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ صدق الله العظيم، ودعوا الكماليات، ووفروا المال، واشتروا السلاح، وانشروا نظام الفتوة، وافتحوا معسكرات التدريب، درِّبوا الرجال على القتال، وعلِّموا النساء اتقاء الغارات، واجعلوا البلد كلها ثكنة كبيرة»[1].

وفي مقاله (هذه هي الحرب فما أعددتم لها) يقول: «أين حملة الأقلام، وأرباب المنابر، وكل ذي رأي مسموع وكلمة نافذة، ليدعوا الأمة إلى اليقظة والانتباه والرجوع إلى الله؟ فإن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ولكن ذاك ليس للنصر بل هو شيء ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. والنصر ليس بالسلاح وحده ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فسلحوا النفوس بالإيمان وبالأخلاق وبالروح ينصركم الله ويثبت أقدامكم»[2].

كما يقول في مقاله (مرحبًا بالغارات): «أقرءوا سيرة النبي محمد ﷺ؛ من كان سيد العرب، وخير البشر، تروها نضالًا مستمرًا، وجهادًا في سبيل الله، ما استراح يومًا، ولا استسلم إلى الخفض واللين»[3].

---

(١) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ج٢ ص ٥٥، مقال (خاطبوهم بلغة المدفع).

(٢) المرجع السابق، ج٢ ص ٩٥، مقال (هذه هي الحرب فما أعددتم لها).

(٣) المرجع السابق، ج٢ ص ١٥١، مقال (مرحبًا بالغارات).

(ب) التاريخ:

وهو كما ربط الإيمان والعقيدة بالتاريخ من خلال سيرة محمد ﷺ، ربطه بأتباعه فيما بعد، حين يذكر القراء بالصفحات المشرفة من تاريخنا العسكري والحضاري؛ فيقول: «إنها ما كانت قط قلوب أقوى ولا أطهر من قلوبنا، ولا كانت سيوف أحد ولا أمضى من سيوفنا، ولا مجد أعظم من مجدنا، ولا تاريخ أحفل بالنصر والظفر والفضل والنبل من تاريخنا، و إننا نحن طهرنا أرض الجزيرة العربية من نجس يهود، ونحن أنقذنا الشرق والغرب من عبودية كسرى وقيصر، ونحن قصمنا ظهر كل جبار، وكسرنا رقبة كل متكبر، وأننا نحن أبطال بدر واليرموك والقادسية ونهاوند وحطين وعين جالوت والغوطة وجبل النار، وأننا هدمنا صروح الشر في الدنيا ثم بنينا صروح الخير والعلم، وأقمنا فيها منار الحق والهدى، وأقمنا للناس خير حضارة عرفها الناس»، إلى أن يقول رابطًا ذلك التاريخ الماضي بالمقاومة الحاضرة «لا.. ما جئت أفخر بالتاريخ الذي كتبناه أمس، بل بالتاريخ الذي نكتبه اليوم. لقد وصلنا ما انقطع من أمجادنا، فالتقى المجد الجديد، بالمجد التليد، واجتمعت البطولات التي نبديها اليوم، بالبطولات التي أبديناها بالأمس، وأرينا الدنيا أننا ما أضعنا إرثنا من أمجاد الأجداد»[1].

---

(١) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ٢٥.

(جـ) الواقع العربي:

أما الواقع فكان كما تتناقله وسائل الإعلام وما كان شاهدًا للعيان من بطولات المجاهدين في البلاد العربية؛ كبطولة حسن الخراط[١]، ويوسف العظمة ومعركة ميسلون في الشام[٢]، ومعارك الفدائيين على شط قناة السويس[٣]، وجهاد عمر المختار في ليبيا[٤]، والأمير عبد القادر في الجزائر[٥]... الخ، وهي ما سيتم ذكر نماذج منها في الحديث عن حركات التحرر في البلاد العربية.

وبالتأكيد كان لهذه الوقائع أبلغ الأثر في نفوس الجماهير العربية الكارهة للاحتلال؛ ومن ثم كانت تمثل مادة خصبة في كتابات الطنطاوي الحماسية والوطنية. حيث ناصر جميع الحركات المناهضة للاستعمار في البلاد العربية والإسلامية، وقد تعرض لكثير منها في كتبه وأحاديثه، لكنه أفرد مقالات خاصة لبعض هذه الحركات المناضلة؛ كان من بينها مصر والجزائر واليمن، هذا بالإضافة إلى الشام التي سبق أن تحدثنا عنها.

---

(١) انظر: الهيثميات (السفر الأول)، محمد علي الطنطاوي، ص ٥١، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ ص٦٨، مقال (منعطف خطير في تاريخ سوريا).

(٣) انظر: هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ١٠٩ وما بعدها. مقال (من بطولاتنا في القناة).

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٤٨ وما بعدها. مقال (إلى حامي الإسلام).

(٥) انظر: المرجع السابق، ص١٢٠ وما بعدها. مقال (تحية البطلين).

(ثانيًا) الدعم والإشادة

- مصر:

«يا أهل مصر، اثبتوا على جهادكم، فإننا جميعًا معكم، قضيتكم قضيتنا، وعدوكم عدونا، ما ضرنا أن تفرق بيننا الحدود على الأرض، والألوان على الصور، ما دام يجمعنا القرآن، وتوحد بيننا الضاد، وتربطنا الآلام والآمال، وذكر الماضي، وأماني المستقبل، فنحن الإخوة تعددت بيننا المنازل، ولكن الدم يلم الإخوة جميعًا، والحب والمنشأ والمصير، ومصر أختنا الكبرى، فلئن خذلنا مصر، إنا إذن لشر إخوة في الدنيا»[١].

بهذه الافتتاحية بدأ علي الطنطاوي مقاله (إلى الشعب المصري) الذي نشر سنة ١٩٥٢م، حينما تناقل العالم أخبار تصاعد الهجمات الفدائية ضد الإنجليز في مصر، وهو يعبِّر في هذا المقال عن التوحد النفسي بين الشعوب العربية في حال الأزمات، وهو يؤكد للمصريين أن العرب لم ينسوا وقوف مصر بجانبهم في نضالهم ضد المستعمرين، وأنهم في الشام مستعدون للقدوم لنصرة إخوانهم في مصر: «نهضنا لنصرة مصر على قدم واحدة، اجتمعنا على ذلك على اختلاف الأحزاب والمذاهب والآراء، وتعالوا انظروا، تروا الشباب في الطرق، والشيوخ في الأسواق، والطلاب في المدارس، والنساء في البيوت...على ألسنتهم جميعًا حديث مصر، وفي قلوبهم

(١) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ٨٢، مقال (إلى الشعب المصري).

جميعًا حب مصر، وفي عروقهم تغلي الدماء حماسة لمصر، وشوقًا إلى السفر لمصر، للجهاد مع أهل مصر»[١].

وخلال أيام العدوان الثلاثي على مصر كتب يصف حالته بعد أن علم من النشرات الإخبارية ما جرى على مصر من عدوان: «كيف أنام على ناعم الفراش، وإخواني في مصر يبيتون مسهدين مستعدين، قد تأبطوا بنادقهم، ورابطوا يدفعون عن أرضهم وعرضهم، عن بناتهم وأولادهم العدوان المثلث اللعنات الذي نزلت به عليهم؟ دول الشر الثلاثة: إسرائيل وبريطانيا ومصر... كيف أهنأ بالسلامة والدعة والأمن، ومصر ما لها قرار من لذع النار، وكيد الاستعمار؟» [٢].

وقد تنبأ الطنطاوي في كلامه السابق بسقوط هذا العدوان؛ أو لعله كان أملًا تحقق حين قال: «لن يعود يوم نابليون، ولا يوم عرابي، لقد كنا يومئذ نجهل الغربيين فنخافهم، ونقابل بارودهم ونارهم بالسيف والرمح، فعرفناهم الآن وأعددنا لهم مثل سلاحهم، عرفنا أن دهاء الإنجليزي وشجاعة الفرنسي خرافة من الخرافات، وهؤلاء الفرنسيون يعجز نصف مليون منهم عن عشرة آلاف تجابههم في الجزائر، وهؤلاء هم الإنجليز، قد فقدوا ذاك الدهاء وتلك البرودة، وصاروا (يوم بورسعيد) في الطيش والحماقة مثل الفرنسيين»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٨، مقال (حوادث مصر).

(٣) المرجع السابق، ص١٠٢.

وهو لا يفتأ يذكر في كتاباته التي يتحدث فيها عن النضال ضد المستعمرين؛ جهاد المصريين في القناة، وانتصارهم في حرب رمضان، بوصفها نماذج ينبغي أن تحتذى في الصمود والجهاد.

- **الجزائر:**

بذل الطنطاوي جهودًا كبيرة في مناصرة الشعب الجزائري في أثناء الاحتلال الفرنسي، حين شارك في مؤتمر (الشعوب العربية لنصرة الجزائر)[١]، وحين زار الرئيس جمال عبد الناصر قبل الوحدة، وكان هو والأمير سعيد الجزائري المندوبين السوريين في الوفد العربي المشترك (السوري العراقي اللبناني) لنصرة الجزائر[٢]. فكتب عن جهاد الشعب الجزائري كثيرًا من المقالات في أثناء الاحتلال الفرنسي، وبعد أن انزاح عن صدر الشعب الجزائري الشقيق، فنشر مقالاته التي تسخر من حماقة الادعاء الفرنسي بحقها في الجزائر؛ فكان يقول: «أما دعواكم أن الجزائر بلد فرنسي، وقطعة من فرنسا فستصير ذكرى مضحكة من ذكريات الحماقة الفرنسية، يتفكه بها التاريخ، وتضحك عليكم بها القرون التالية»[٣].

---

(١) انظر: مقال: (سيرة الشيخ علي الطنطاوي)، بقلم مجاهد مأمون ديرانية، مجلة الأدب الإسلامي، (عدد خاص عن الشيخ علي الطنطاوي).

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ ص١٧، مقال (كيف قابلت عبد الحميد سراج بعد الخطبة التي هزت دمشق).

(٣) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص ٢٠٧، مقال (مجزرة الجزائر).

ودائمًا ما كان يشير إلى أحداث الجزائر والبطولات التي يقوم بها المجاهدون، ويسخر من البطولات الفرنسية المزيفة التي تكشفت فيما بعد؛ «ينهزم الفرنسيون في كل معركة في الجزائر، ولكن البطولة الفرنسية لا تنهزم... تبدو هذه البطولة في القرى الآمنة، وعلى المدنيين المسالمين، وعلى النساء والأطفال، وتعود جيوش الاستعمار معقودًا بنواصيها الغار؛ لأنها ظفرت بالأطفال والنساء، وأصلتهم نار المدافع والرشاشات، إنهم يمحون القرى محوًا، ويبيدون أهلها إبادة»[1].

وكان الطنطاوي يقوم بحملات دعائية لمناصرة الجزائر ومن ذلك ما قاله في افتتاحية أسبوع التسلح في الجزائر؛ «هل تستطيعون أن تأكلوا وتشربوا، وتلهو وتلعبوا، وتغنوا وتطربوا، وإخوانكم في الجزائر يقاسون هذه الأهوال... لو كان في الطريق قطة تموء من الألم، أو كان عند الجيران عامل يضرب بمطرقة، لما قدرتم على المنام، أفتنامون وفي الجزائر إخوة لكم يهتفون بكم وينتظرون العون منكم، وتنامون والمدافع تضرب من حولكم؟

إن في الجزائر إخوة لكم يعيشون في الموت، ويموتون في الحياة، لا أريد أن تنشروا المناديل وتستدروا الدموع، ولا أريد أن تصعدوا الزفرات وتنفثوا الآهات... لا، فليس إخوانكم هناك هلكى يستجدون الدمع، بل هم بحمد الله أبطال يطلبون المدد،

(١) المرجع السابق ٢٢١، مقال (في افتتاح أسبوع الجزائر).

إنهم أقوياء بالله ثم بكم، فإن نصرتموهم اليوم بأموالكم، طهروا الجزائر من أرجاس الاستعمار، ثم جاءوكم يعينوكم على تطهير الحرم من نجس إسرائيل»[1].

وقد كان الاحتلال الفرنسي للجزائر يمثل أعلى ما وصلت له البشاعة الاستعمارية من الوجهتين؛ العسكرية التي أبادت أكثر من مليون شهيد في الجزائر، والفكرية التي أرادت وعملت على فرنسة الشعب الجزائري واقتلاعه من جذوره العربية والإسلامية. لكن تبين بعد ذلك صمود العقيدة والعروبة والوطنية في نفوس الجزائريين بعدما قامت الثورة الجزائرية بطابعها الجهادي الإسلامي[2]، «فقد كان الانتماء الإسلامي هو السياج الذي نجت به ثورة الجزائر من شتى المؤامرات، ونجحت به في الوصول إلى

(١) المرجع السابق، ٢٢٣.

(٢) انظر: الغزو الفكري، محمد جلال كشك، ص١٢ وما بعدها، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م. وقد كانت وجهة الثورة الجزائرية الإسلامية هي سبب تأليف الكاتب لهذا الكتاب؛ لدحض الآراء القومية التي تريد أن تنزع من الثورة في الجزائر هويتها الإسلامية، وهو ما يؤكده أحد المناضلين في الجزائر، وهو عمر أوزيجان حين يقول: «إن موقفنا إزاء الإسلام يختلف، لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب، ذلك أن رفض الأيديولوجية الإسلامية في بلاد مستعمرة، يضطهد فيها دين الأكثرية الساحقة لسكانها، هو مجرد تظاهر مزيف تنادي به فئة منفصلة عن الشعب غربية الحياة والفكر، امتصتها أو شلتها أيديولوجية العدو المستعمر». انظر (مقدمة الكتاب).

بر الأمان»[1].

وهو يقول بعد الجلاء التاريخي المخزي: «لقد لبثت فرنسا في الجزائر قرابة قرن ونصف القرن سخرت عقول أبنائها وأيديهم، وسلطان حكامها وسلاحهم، بذلت ما تعجز عن مثلها الجبابرة لتخرج المسلمين من عروبتهم ومن دينهم، فما انزاح عن صدر الجزائر ثقل الاستعمار، حتى يتبين أن الإسلام مكانه لا يزال» [2].

وبعد أن يسير قطار العمر بعلي الطنطاوي مقتربًا من نهاية رحلته؛ وتمر عليه ذكرى تحرير الجزائر، يكتب في إحدى مقالاته في كتابه الأخير «ذكريات» قائلًا: «تحتفل الجزائر الآن بأنها قد مرت ثلاثون سنة على استقلالها، فكان لي أن أشارك ولو من بعيد بهذا الاحتفال، كما شاركت بلساني وقلمي من بعيد في النضال، وإن كانت مشاركتي قليلة ضئيلة وكانت لبنة واحدة في هذا الصرح العظيم»[3].

- **اليمن:**

وعندما قامت ثورة عدن ضد الاستعمار البريطاني لليمن سنة ١٩٥٨م، كتب الطنطاوي مؤيدًا الثورة ورجالها ومؤيدًا بطولاتهم

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه.. كيف نفكر فيه؟، محمد الغزالي، ص٩٦، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة والنشر والترجمة، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٤م.

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص١٨٤، مقال (الوقفة الكبرى).

(٣) المرجع السابق، ج٥ ص٥٥، مقال (بقية من حديث الجزائر).

بقوله: إن «أهل اليمن ليسوا ضعفاء ولا جبناء، بل هم جن المعارك، ومردة الميادين، ولا تزال البطولات راكدة في دمائهم»[١].

وهو يوضح ويشرح في مقاله ما لاقاه البريطانيون من مشقة في اليمن منذ سقوطهم عليها؛ قائلًا: لقد نزل الإنجليز على اليمن نزول الطاعون من سنة ١٨٣٨م، ولكن اليمانيين وقفوا لهم وقفة الأسود، فلم يستطيعوا تجاوز عدن التي احتلوها، حتى إذا مرت عشرات وعشرات من السنين استولوا على سبع بلاد صغيرة سموها المحميات، وعقدوا مع (الخونة) من زعمائها يومئذ معاهدات صورية، ولكن الشعب لم يخضع لهم»[٢].

وكان الطنطاوي يستنفر الشعوب العربية والإسلامية عندما حذرهم إن استقر الإنجليز في اليمن، قد تحدث الكارثة؛ «وما بعد اليمن إلا الحجاز، وما بعد عدن إلا صنعاء، وما بعد صنعاء إلا مكة المكرمة»[٣]، لكن هذا ما لم يحدث، ولله الحمد».

وهو يذكرهم بوقوفهم في محنتها في أثناء العدوان عليها؛ «لقد قمتم (ولكم الشكر) على قدم واحدة، لما عدا الثالوث المدنس على مصر، فأديتم بذلك حق الأخوة، وأجبتم داعي الله، فهل نمتم اليوم والعادون يعدون على إخوتكم في اليمن؟» [٤].

(١) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص١٥٤، مقال (الإنكليز واليمن).
(٢) المرجع السابق، ١٥٦.
(٣) المرجع السابق، ١٥٤.
(٤) المرجع السابق، ١٥٤.

السياسات الداخلية:

لم تنحصر كتابات الطنطاوي في الأحداث السياسية الخارجية المتعلقة بالنضال ضد الاستعمار، بل تعداه إلى الحديث عن بعض السياسات الداخلية، والتعرض لها بالنقد والتحليل، كما لم ينحصر داخل جغرافية الشام، بل كان يرى أن أي أحداث في وطنه العربي والإسلامي تستحق منه الالتفات إليها والاهتمام بها.

أ- ثورة يوليو:

في يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م؛ استيقظت الجماهير العربية على صوت أحد الضباط الأحرار؛ وهو محمد أنور السادات، يذيع أول بيان للثورة؛ ويقول: «اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم، وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب»[١]. وقد وقَّعَ الخطاب في نهايته باسم

---

(١) ثورة يوليو (بناء الدولة العصرية ١٩٥٢-٢٠٠٢)، ص٢٤، بدون مؤلف، وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، مصر. «إصدار خاص بمناسبة اليوبيل الذهبي لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م» ٢٠٠٢م.

لواء أركان حرب محمد نجيب؛ القائد العام للقوات المسلحة.

والحقيقة أن مصر وحدها لم تتلق الخبر بالقبول والابتهاج؛ الذي كان لا بد منه حسب بيان الثورة، فقد شاركتها كثيرٌ من الجماهير العربية فرحتها بزوال الحكم الملكي الفاسد، وقيام نظام جديد، وكان من بين المبتهجين علي الطنطاوي؛ وكان ينكر قبل قيام الثورة على الملك فاروق المفاسد التي انتشرت في مصر؛ يقول: «كنا نعرف عن الملك فؤاد كل شيء، ثم عن ابنه فاروق، كانت تتسرب إلينا أنباء فسوقه وانحرافه؛ فلما قام عليه الضباط، وأبعدوه عن مصر، طارت بنا الفرحة وعمتنا البشرى»[(١)].

وبعد قيام الثورة ١٩٥٢م، كتب: «إن في كل بلد (محمد نجيب) لا تعرفونه اليوم، ولكنه ستعرفه الدنيا كلها لحظة كما عرفنا محمد نجيب، وما كنا قبل دقائق قد سمعنا في الشام باسمه، وأن في كل بلد (يخت) كالمحروسة التي حملت (فاروقا) فذهبت به إلى حيث ألقت... أو سيارة تقوم مقامها»[(٢)].

ولكن هذه الحال من الرضا عن الثورة لم تستمر طويلًا، فقد تولى جمال عبد الناصر الحكم، وبدأت نظرته للثورة تتغير، حتى وصل الأمر إلى ندمه على كتابة مقاله السابق؛ «إني لأتمنى ألا أكون قد كتبت هذه المقالة، وأحمد الله أن ألهمني ألا أضع اسمي

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص٢٨٣، مقال (كيف استقبلت دمشق عبد الناصر يوم الوحدة).

(٢) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص٢٠١، مقال (ثورة مصر).

عليها، وإن عرف الناس يومئذ واعترفت أنا الآن أنها لي»[1]، وعندما وضع مقالته السابقة في كتابه ضمن مجموعة مقالاته السياسية، صدر لها تحت العنوان بعبارة «هذه الكلمة فيها شعوري وشعور الناس يوم قامت الثورة»[2]. في إشارة إلى أنه تخلى عن هذا الشعور فيما بعد.

وهو يقول عن مقابلة جرت بين وفد ضمه والرئيس جمال عبد الناصر: «وقد ذهبنا إلى مصر وقابلنا جمال عبد الناصر مقابلة طويلة... وقد استولى علينا بما توهمناه صراحة كاملة في الحديث، وإخلاصًا نادرًا لله وللإسلام، وشبه سذاجة فيه، ورجعنا نثني عليه، ونرى فيه المثل الأعلى للحاكم المرجو، ثم تبين أننا الذين كانوا السذج المخدوعين، وأنه لعب بنا وضحك علينا ولفنا بكلامه المعسول»[3].

ولعل هذا التغير في النظرة إلى الثورة يعود إلى ما قامت به الثورة ضد بعض الإسلاميين[4]. وبعد هذه الأحداث كتب الطنطاوي

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص٢٨٦، مقال (كيف استقبلت دمشق عبد الناصر يوم الوحدة).

(٢) هتاف المجد، ص١٩٩، مقال (ثورة مصر).

(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص٤٤- ٤٥، مقال (ذكريات جزائرية).

(٤) أسفرت تلك الأحداث عن عدة محاكمات وأحكام بالإعدام، وكان على رأس من أعدموا زميله القديم في كلية دار العلوم، ثم زميلة في دار الرسالة سيد قطب سنة ١٩٦٦م.

مقالة نشرت على هيئة رسالة صغيرة سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٤م، وهو يقول في نهايتها: «يا أهل الشهداء الصبر الصبر، إن دموع العالم الإسلامي مازجت دموعكم، وقلوبهم جميعًا قد قاسمت الأسى قلوبكم، وكلهم أخ لكم وصديق، ومأتمكم صار مأتم دنيا الإسلام كلها، والله معكم، والله خير من الجميع، وهنيئًا لمصر، فقد كان للشام جمال دعوه – حقًا أو باطلًا- بالسفاح؛ فصار لكم (جمال)، هو (السفاح) حقًا»[١].

وهو يقول قبل ذلك: «ولست أدري بأي لسان يتكلم هؤلاء بعد اليوم عن فاروق وعهد فاروق، والذي فعله فاروق من المعاصي يعد بجنب ما عملوه هم طاعة، ونجس فاروق بالنسبة إليهم طهارة، ونار فاروق جنة عبد الناصر؟» [٢].

ب- الوحدة المصرية السورية:

يعد موقف الطنطاوي من الوحدة السورية امتدادًا للأزمة النفسية بينه وبين رجال الثورة في مصر؛ إذ كان له موقف واضح منها منذ بدايتها؛ بل من قبل بدايتها منذ عام ١٩٥٤م، حين كتب مقالته عن موقفه من سلوك عبد الناصر مع الإسلاميين في مصر[٣].

وتعدّ الوحدة العربية كفكرة وقناعة ومطلب نابعة في الأساس من حقيقة التكون العربي الواحد المتمثل في وحدة اللغة والتاريخ

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ ص٢٣، مقال (إلى الأستاذ أحمد أبو الفتح).
(٢) المرجع السابق ج٨ ص٢١.
(٣) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص٢١، مقال (المجمع الأدبي).

والدين والثقافة والأرض. وخلال فترة التجزئة الاستعمارية للوطن العربي ظلت قضية الوحدة راسخة في وعي المواطن العربي وقناعته بالرغم من محاولات القوى الاستعمارية لتغيير وعيه الحضاري وتزييفه وطمس هويته العربية وإنهاء إحساسه بوحدة انتمائه ووحدة مصيره.

وعلى هذا الأساس قامت الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٥٨م؛ ولكن السياسة الناصرية في سوريا أحدثت ردود فعل معاكسة في صفوف السوريين؛ «فقد ساد التذمر صفوف الشعب في سوريا نتيجة القيود الاقتصادية، وزيادة الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة؛ الأمر الذي أدى إلى رفع الأسعار على كل المستويات. وتشاء الظروف أن يسود الجفاف سوريا لمدة ثلاث سنوات متتالية، ولم يكن في مقدور المشير عبد الحكيم عامر – الذي أرسله عبد الناصر ليكون ممثلًا شخصيًا له في سوريا- أن يفعل شيئًا إزاء هذه الكارثة، كل هذه الظروف قللت من هيبة عبد الناصر في هذا الإقليم نتيجة المعاناة التي كان يعانيها الشعب السوري»[١].

وعندما وقع الانفصال كانت ردود الأفعال الغاضبة في الإعلام المصري، تكيل الاتهامات لدعاة الانفصال السوري، وتصفهم بالخيانة والتآمر؛ حيث أذاعت إذاعة (صوت العرب) بيانًا قالت

(١) عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨-١٩٧٠م)، مالكوم كير، ص ٥٣، ٥٤.

فيه على لسان مذيعها الشهير أحمد سعيد: «طعنت الوحدة العربية من الخلف من قبل طبقة الأغنياء السوريين، وكذلك الرجعيين الذين تأثروا بالتشريعات والقوانين الاشتراكية، وكذلك تأميم البنوك، وشركات التأمين، فضلًا عن النشاطات الصناعية والمهنية وكثير من الإجراءات التي فرضت على النشاط الاقتصادي، وعلى نطاق واسع، وذلك نتيجة لتلك القرارات التي أصدرها عبد الناصر في يوليو ١٩٦١م، هؤلاء الرجعيون بمساعدة الإمبرياليين، وكذلك الملوك الرجعيون الذين قدموا الرشوة لفئة من الانتهازيين من طبقات الجيش لتنفيذ الانقلاب، وذلك بهدف إعادة النظام القديم إلى سوريا، ولإلغاء إصلاحات وقوانين الوحدة العربية»[١].

وكان الطنطاوي من المتهمين بهذه الرجعية فعلق على هذه الاتهامات الناصرية بقوله: «دعوا هذا الكلام المكرر المعاد الملول، فلقد عرف الناس جميعًا أنه ليس عندكم ولا عند البوم الناعب من (صوت العرب) إلا مقطوعة واحدة ترددونها كلما خالفكم مخالف في رأي؛ هي التهمة بالرجعية، والاستعمارية، والصهيونية، وأن مخالفكم مأجور، وهي كلمات صارت من طول التكرار مثل الثوب البالي، فقدت معانيها، ولم يبقَ لها من أثر في نفس سامعها إلا السخرية بقائلها»[٢].

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ ص ٥٥، مقال (تعليق على مقالة وجواب على رسالة).

وليس غريبًا أن يتخلى الطنطاوي عن حلمه؛ فيصف مذيع (صوت العرب) بقوله: «لم أعرف في عمري من هو مثله في صفاقة الوجه، ووساخة اللسان، وثقل الدم»[١].

وهو يصف شعوره وشعور الناس يوم أعلن الانفصال: «أقسم أني لم أر في عمري فرحة عامة كالتي رأيت ذلك اليوم، كان الناس كأنهم خرجوا من سجن، أو كما تقول العرب قد أطلقوا من عقال، كان يهنئ الناس بعضهم بعضًا، لم تكن ترى إلا باسمًا مسرورًا... فلما جاء البلاغ رقم ٩ وفيه خبر ينبئ عن بعض التراجع من الضباط الذين قاموا بالانفصال، علت الوجوه قترة، وملأت النفوس كآبة وحسرة، فلما توالت البلاغات بعد بأن الانفصال ماض في طريقه عاد البشر إلى الوجوه»[٢].

وقد وضع يده على بعض الأسباب التي أدت إلى الانفصال حين يقرر ما قرره السوريون من أن «عبد الناصر لم يفهم طبيعة الشعب السوري، ولو فهمها لعلم أننا لا نؤخذ بالشدة، ولا نساق بالعصا، وأننا فتحنا صدورنا، كما فتحنا بلدنا للمصريين على أنهم أشقاء لنا، لا على أنهم مسيطرون علينا، يسيرون فينا سيرة المستعمرين لنا» [٣].

كما استنكر الطنطاوي قرارات التأميم التي أدت إلى فساد الحياة الاقتصادية في سوريا، وساق أمثلة واقعية على ذلك الفساد، وهو يقرر بعد ذلك رؤيته في الأفكار الشيوعية؛ وأنه: «كلما اتسعت

(١) المرجع السابق، ج٦ ص٥٥.

(٢) المرجع السابق، ج٦ ص٦١. مقال (قصة الوحدة والانفصال).

(٣) المرجع السابق، ج٦ ص٥٧.

المسافة بين فقر الفقراء، وغنى الأغنياء، فتح الباب للشيوعية لتدخل من هذا الفراغ، وإن كانت الشيوعية لا تذهب فقر الفقير، ولكن تذهب بغنى الغني، فتحقق المساواة ولكن في الحاجة والفقر»[١].

وهو ينتقد ويسخر من شعار الوحدة آنذاك، وهو (وحدة، حرية، اشتراكية)؛ بقوله: «الوحدة تمزيق، والحرية سجن، والاشتراكية خراب كامل وفقر شامل»، ويرى أن الاشتراكية قد ذكرت في القرآن الكريم في قول الله تعالى لإبليس: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾»[٢].

ثم يتحدث عن مآسي الشعب السوري أيام الوحدة، فيقول: «لقد ذبحنا أيام الوحدة. لقد رأينا في أيام الوحدة ما لم نره أيام الانتداب. أي والله العظيم، لقد رأينا من الفسوق والعصيان ومخالفة الشرع والاختلاط والتكشف والحكم بغير ما أنزل الله، وخنق الحريات، وكم الأفواه، وعقل الأقلام، وسجن الناس بلا ذنب أذنبوه، ولا حكم حكم به عليهم، ما لم نر مثله أيام الفرنسيين»[٣].

ج ـ القانون والقضاء:

كان من الطبيعي أن يكون القانون والقضاء مادة خصبة أفاد منها أدب الطنطاوي بصفة عامة؛ فقد كان الطنطاوي بين الحين

---

(١) المرجع السابق، ج٦ ص٥٩.

(٢) المرجع السابق، ج٦ ص٦١.

(٣) المرجع السابق، ج٦ ص٧٢. مقال (نظرة في أسباب الانفصال بين سوريا ومصر).

والحين يخرج بمقالاته التي تتعلق بوظيفته قاضيًا وثقافته حقوقيًا درس القانون، بل شارك في وضع بعض القوانين.

وإن تاريخ القضاء في الإسلام -كما يرى-: «من أوسع نواحي العظمة في تاريخنا؛ لأن القضاء (منذ كان في الدنيا قضاء) هو مقياس الخير في الأمم، وهو معيار العظمة فيها، وهو رأس مفاخر كل أمة حية راشدة، وليس القاضي موظفًا كالموظفين فالموظفون حتى الأمراء منهم والوزراء، أعوان الملك أو الرئيس وأتباعه، يأمرهم فيأتمرون، ويدعوهم فيلبون، أمرهم من أمره، وسلطانهم من سلطانه، يتكلم بألسنتهم، ويبطش بأيديهم، أما القاضي فلا حكم عليه إلا لربه، ولا استمداد له إلا من قلبه، يتكلم بلسان الشرع، والشرع فوق الناس، ويحكم بحكم الله، وحكم الله على الجميع»[١].

ولكونه قاضيًا شرعيًا نلمح أثر الفقه والقانون والقضاء في التاريخ الإسلامي واضحًا جليًا في رؤية الطنطاوي في معالجته لقضايا القانون، كما ناقش الطنطاوي عددًا من القضايا المتعلقة بالقضاء؛ ومنها:

لغة القانون:

يقول الجبرتي عن مضمون أول تشريع وضعي في مصر ولغته؛ وهو قانون ديوان القضايا الذي أصدره نابليون بعد احتلاله لمصر

(١) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص١١.

سنة ١٢١٣هـ/١٨٩٧م: «شرعوا في ترتيب ديوان... وسموه محكمة القضايا وكتبوا في شأن ذلك (طومارا) وشرطوا فيه شروطًا ورتبوا فيه ستة أنفار من النصارى القبط وستة أنفار من تجار المسلمين، وجعلوا قاضيه الكبير ملطيًا... وفوَّضوا إليهم القضايا في أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى وجعلوا لذلك الديوان قواعد وأركانًا من البدع السيئة، وكتبوا نسخًا من ذلك كثيرة، أرسلوا منها إلى الأعيان، ولصقوا منها نسخًا في مفارق الطرق ورءوس العطف وأبواب المساجد، وشرطوا في ضمنه شروطًا... بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم قوانين التراكيب العربية ومحصله التحايل على أخذ الأموال...»[(١)].

ويعلق الطنطاوي على ذلك مؤرخًا للغة القوانين في مصر -وذلك حينما كان قاضي دمشق- بقوله: «وتتابعت القوانين في مصر، وكلها من هذا النمط، وما زال المصريون يشكون منها، ويعملون على إبدالها، حتى أصدروا القانون المدني الجديد سنة ١٩٤٨م، وظنوا أنهم فتحوا فتحًا في البيان وجاءوا بمعجزة في البلاغة»[(٢)].

فقد كتب عبد الرزاق السنهوري باشا عن هذا القانون ولغته؛ أنه «بريء من هذا الضعف في التعبير، وهذه الركاكة في الأسلوب، اللذين كانا ينزلان بكثير من نصوص التقنين القديم إلى

(١) عجائب الآثار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، ج٢ ص ٢٠٩، دار الجيل، بيروت، د.ت.

(٢) مقدمات علي الطنطاوي، جمع وترتيب مجد مكي، ص٦٣.

منزلة العامي من الألفاظ ولم تعد المصطلحات القانونية تضطرب فيه وتتعارض»[١].

وكان يرى أن هذا الحكم صائب «إذا قيس بتلك اللغة التي لم تكن عربية ولا أعجمية، ما كانت إلا كلغة جزيرة مالطة، ولكنه إذا قيس بما كان عليه الفقهاء الأولون، وبما ينبغي أن تكون عليه لغة القانون، كان فياضًا بالتعقيد والغموض واللحن والركاكة، وإهمال المصطلحات الفقهية الإسلامية التي صقلتها الألسنة وأساغتها الأسماع ثلاثة عشر قرنًا، على جهل بها، أو زهد فيها»[٢]. وبعد ذلك ساق الطنطاوي ثلاثة عشر مثالًا على فساد الصياغة وركاكة التعبير في ثمان مواد فقط في ذلك القانون المدني[٣].

ثم يقول: «إن الواجب على من في أيديهم مقاليد الأمور أن يفتشوا عمن يترجم لهم هذه القوانين إلى لسان العرب، وإذا كانوا قد فرضوا علينا- ونحن أغنى أمة في الدنيا في التشريع- أن (نشحد) القوانين ممن (شحدها) من فرنسا وغير فرنسا، فلا أقل من أن يحفظوا علينا لغتنا، فلا نكفر بها كما كفرنا بتشريعنا، وأن ننقل هذه القوانين إلى لساننا لا أن ننتقل نحن إليها، ونفكر برءوس أهلها، ونتكلم بألسنتهم، ونلبس جلودهم.. ونكون أدعياء فيهم فلا

(١) الوسيط في شرح القانون المدني (في مصادر الالتزامات)، عبد الرزاق أحمد السنهوري، ج١ص٣٣. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
(٢) مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، جمع وترتيب مجد مكي، ص٦٣.
(٣) انظر: المرجع السابق ٦٤، ٦٥.

نحن نبقى عربًا مسلمين، ولا نصير فرنسيين ولا أمريكيين، وإنما نهدم بيوتنا بأيدينا وأيدي الآخرين»[1].

نقده لبعض القوانين:

كان الطنطاوي دائم التعقيب والنقد على أي مخالفة للشريعة الإسلامية في القضاء؛ مثل ذلك تعقيبه في إحدى مقالاته سنة ١٩٤٧م على بعض مواد القانون الشرعي في سوريا؛ فيقول: «أما القضاء عندنا فليس فيه ابتداع أو مخالفة إلا في مسألة واحدة، ولكنا خالفنا فيها ظاهر القرآن وثابت السنة والإجماع...

نصت المادة ٧ من قرار حقوق العائلة على أنه لا يجوز لأحد أصلًا أن يزوج الصغير الذي لم يتم الثانية عشرة، ولا الصغيرة التي لم تكمل التاسعة. ونص في المادة ٥٢ منه على أن هذا النكاح فاسد. وفي المادة ٧٧ على أن البقاء على الزوجية ممنوع في هذا النكاح فإذا لم يفترقا لم يفرق بينهما القاضي»[2].

وهو يبرر ذلك بمخالفته لظاهر القرآن الكريم؛ «لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ ﴾[3]. والسنة النبوية لزواج النبي ﷺ بعائشة في السنة السادسة من عمرها[4]، وأن هذا النص متواتر، وأن حكمه عام

(١) المرجع السابق، ٦٦.

(٢) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ١٣٢، مقال (القضاء في الإسلام).

(٣) سورة الطلاق، الآية ٤.

(٤) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي

وليس خاصًا بالنبي ﷺ[1].

وقد ألغي هذا القرار سنة ١٩٥٣م، وأحل محله (قانون الأحوال الشخصية)، أما في مصر فإن الأمر يختلف بعض الشيء؛ فقد نصت الفقرة الخامسة من المادة ٩٩ من لائحة الإجراءات الشرعية على أنه «لا تسمع دعوى الزوجية إذا كانت سن الزوجة تقل عن ست عشرة سنة هجرية، أو سن الزوج تقل عن ثماني عشرة سنة هجرية إلا بأمر منا»[2].

كما أفرد الطنطاوي مقالًا في شيء من التخصص يوضح فيه تداخل الاختصاصات بين المحاكم، وما يسببه ذلك من مشكلات في تسيير بعض القضايا المتعلقة بالتركات في سوريا ومصر، وأن نفس الإشكالية موجودة في بعض مواد القانون المدني المصري. وتحدث أيضًا عن تأثر القانون والعدالة بالقرارات الوزارية الخاطئة والمتضاربة التي تصدرها الوزارات المتعاقبة في بلادنا[3].

بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق، محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، ج٧ ص١٨٨، ١٨٩، كتاب الشعب، القاهرة. وفيه: «وكان عمرها لما تزوجها النبي ﷺ ست سنين، وقيل: سبع سنين».

(١) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ١٣٣، مقال (القضاء في الإسلام).

(٢) القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠م، بأحكام النفقة وبعض مسائل الأحوال الشخصية المعدل بالقانون رقم ١٠٠لسنة ١٩٨٥م. الفقرة ٥ مادة٩٩. وقد وردت تعديلات على هذا القانون إلا أن هذه الفقرة لم تتعرض لأي تعديل.

(٣) انظر: مقالات في كلمات٢، علي الطنطاوي، ص١٣٤-١٣٧، مقال (بقلم حقوقي شرعي).

كما قدَّم في الأربعينيات من القرن الماضي بعض مقالاته التي تتضمن اقتراحات لتعديل لبعض أحكام القانون السوري المتعلقة بالنفقات والتكافل الاجتماعي، وقد استقى تعديلاته فيها من الشريعة الإسلامية[١]. وقد عدلت بعض هذه الأحكام فيما بعد في قانون الأحوال الشخصية الذي كان قد أعده الطنطاوي نفسه فيما بعد[٢].

د. إصلاح التعليم:

شغلت قضية التعليم علي الطنطاوي منذ وقت مبكر، وبالتحديد منذ كان طالبًا في التجهيز (الثانوية)، حين كتب بعض رسائله التي تعالج مشكلات التجهيز وينتقد وزارة المعارف ويتحدث فيها باسم الطلاب ويشرح حقوقهم وطلباتهم[٣]، وبالطبع كان يصدر في مثل هذه الرسائل عن روح شابة؛ تفتقد إلى العمق في فهم المشكلات وحلها، فقد كان عمره عشرين سنة فقط.

وتتحول المشكلات التي يعاني منها الطنطاوي من مشكلات الطالب إلى مشكلات الأستاذ؛ حين عمل بالتدريس فترة طويلة

(١) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص١٩٤-٢٠٠، مقال (النفقات والتكافل الاجتماعي).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٠٠.

(٣) انظر: التعليم في دمشق «رسائل متسلسلة»، محمد علي الطنطاوي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، رسالة (١-قضية التجهيز، أسبابها نتائجها، حقوق الطلاب وطلباتهم).

في سوريا والعراق ولبنان والحجاز، ومن خلال تدريسه المناهج في المدارس اطلع على كثير من جوانبها السلبية التي تستحق النقد، كما كانت له بعض الآراء في قضية التعليم التي تعرض لها في مقالاته، ومنها على سبيل المثال ما يلي:

- الهدف من التعليم:

وهو يقف على حقيقة مؤلمة في التعليم في البلاد العربية وهي أن الهدف من التعليم هو البحث عن (شهادة)؛ ومن ثم فإن التلميذ ينسى كل ما تعلمه في عامه الدراسي بمجرد انتهائه، وعبوره إلى الصف الذي يليه، و«إن لكل عمل نتيجة، ولكل مسير غاية، والغاية من المدرسة؛ إما أن تكون الشهادة أو العلم، أو الإعداد لخوض لجة الحياة والنضال عليها، أما الشهادة فلا بحث فيها؛ لأنها عرض لا جوهر، ووسيلة إلى غيرها لا يصح الوقوف عليها، ولا القناعة بها؛ وهي بعد كاسمها (شهادة) قد تكون مزكاة عادلة، وقد تكون شهادة زور تعطى لغير أهلها، وتمنح من ليس من مستحقيها»[1].

ثم يفسر هذا الخلل الذي أصاب التعليم في معاهدنا العلمية بأن «السبب في هذا كله أن نظام التعليم في بلادنا كالبيت العتيق الخرب، المختل الهندسة، الذي لا يفتأ أصحابه يتعهدونه بالترميم والإصلاح، ولكنهم لا يجرءون على هدمه من أساسه، وبنائه من

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٥٢، مقال (أسلوب جديد في التعليم).

جديد على هندسة صالحة»[1].

ولا ينسى أن يقدم اقتراحاته وآرائه في الإصلاح لهذه المشكلة حيث يرى تصفية المناهج الدراسية من الحشو الزائد الذي لا يفيد والتركيز على الدراسة العالية لأن «الدراسة العالية هي المقصودة بالذات، وما قبلها ثقافة عامة هي بمكان المقدمة إليها، والتمهيد لها، أفلا يستطيع الشاب الواعي دراسة الحقوق مثلًا، من غير إحاطة بدقائق الكيمياء والفيزياء والرياضيات؟ أولًا يجزئه ويكفيه أن يعرف عنها الشيء المجمل المختصر؟»[2].

- المناهج الدراسية:

وقضية الهدف من التعليم تسلم إلى قضية أخرى وهي قضية المناهج التعليمية؛ وخاصة تدريس الأدب العربي، حيث لاحظ انصراف الطلاب من نثره إلى شعره، في حين أنهم يميلون إلى النثر الفرنسي أكثر من الشعر.

وهو يرى المشكلة في هذا تعود إلى سوء اختيار النصوص الجيدة التي ترغب في الأدب وتحببه إلى النفوس؛ ذلك أن «الذي تقرر المناهج تدريسه من النثر العربي في مصر والشام والعراق، لا يخرج في جملته عن رسائل ميتة لا روح فيها، أو فقرات جامدة مسجعة أو غير مسجعة، وليس فيها وصف يهز القلب، أو معنى

(١) المرجع السابق، ص١٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٤.

يوقظ الفكر، حتى إن ما يختار لمثل الجاحظ... هو الممل المضجر: كوصف الكتاب وصفًا، هو مجموعة جمل مستقلة، تشبه حكم أكثم بن صيفي ليس بينها ارتباط، ولا يفسدها التقديم فيها ولا التأخير، ويصعب استظهارها وحفظها، مع أن الجاحظ المعجب المطرب، والمبهج المرقص من القصص والأوصاف، فكان من ذلك أن رغب الطلاب عن أدبنا وكرهوه، وآثروا عليه الأدب الفرنسي، لأنهم وجدوه أقرب إلى قلوبهم، وأدنى إلى أفكارهم»[1].

أما دواء الطنطاوي لهذا الداء المنهجي هو «أن يخرج واضعو المناهج من هذه الزاوية الضيقة التي حبسوا أنفسهم والطلاب فيها، إلى فضاء الأدب ورحبه، ويدعو الصاحب، والقاضي الفاضل، وهذه الرسائل الباردة، وهذا الأدب الميت الذي لا روح فيه ولا جمال، ولا يصح أن يكون أدبًا يحتذى، ودليلًا يتبع، ولا يجوز أن يعرض على الطالب إلا على أنه لون من ألوان الكتابة، فيدرسه دراسة المؤرخ له، لا دراسة المتأدب به، ويفتشوا بين العلماء والصوفية والمؤرخين عن ذوي الملكات البيانية، فيجدوا فيهم من لا يعد معه أدب الصاحب، وعبد الرحيم البيساني إلا لعب أطفال»[2].

- **مشكلة النحو:**

«درج المهتمون بتعليم اللغة من قديم على الإسهاب في ذكر

(١) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ج١ ص ٢١٣، مقال (النثر والشعر في المدارس).

(٢) المرجع السابق، ص٢١٣، ٢١٤.

التفصيلات التي تتعلق بقواعد اللغة، فاهتموا بتقعيد القواعد، والإكثار من الافتراضات، واستخدام العلل الثواني والثوالث، كما تأثروا إلى حد بعيد بالفلسفة، والمنطق في التقعيد لقوانين النحو، بما أصاب تلك القوانين بالجفاف والعقم»[١].

«وإن من يتصفح هذه المؤلفات الكثيرة يعجب من الجهد المبذول فيها حقًا، غير أنه يضل وسط الآراء الجدلية النظرية، التي لا تفيد كثيرًا في الدرس النحوي، والابتعاد عن الواقع اللغوي إلى الافتراض»[٢].

وفي مقال عنوانه «آفة اللغة هذا النحو» -وذكر أنه استعار هذا العنوان من الأستاذ الزيات- قال الطنطاوي: «أصبح النحو علمًا عقيمًا، يدرسه الرجل ويشتغل به سنين طويلة ثم لا يخرج إلى شيء من إقامة اللسان والفهم عن العرب، وإنني لأعرف جماعة من الشيوخ، قرءوا النحو بضعة عشر عامًا، ووقفوا على مذاهبه وأقواله، وعرفوا غوامضه وخفاياه، وأولوا فيه وعللوا، وأثبتوا فيه ودللوا، وناقشوا فيه وجادلوا، وذهبوا في التأويل والتعليل كل مذهب، ثم لا يفهم أحدهم كلمة من كلام العرب، ولا يقيم لسانه

(١) تعليم اللغة العربية (الأطر والإجراءات)، د. عبد اللطيف عبد القادر أبو بكر، ص ١٨٣، ط الوراق، الرستاق – عمان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٣م.

(٢) بحوث ومقالات في اللغة، د.رمضان عبد التواب، ص١٥١، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

في صفحة يقرؤها، أو خطبة جمعة يلقيها، أو قصة يرويها»[1].

ثم يؤكد على أن هذا العجز لم يقتصر على المتأخرين، بل ينطبق هذا على كثير من علماء النحو أنفسهم؛ حين استشهد الطنطاوي بما رواه السيوطي في كتابه (بغية الوعاة) من بعض أخطاء النحويين: فالكسائي مات وهو لا يعرف حد نعم وبئس، وأن المفتوحة، والحكاية! وأن الخليل لم يكن يحسن النداء، وأن سيبويه لم يكن يدري حد التعجب[2]...الخ.

وكان من المتوقع أن يلتفت الطنطاوي، كما التفت غيره[3]، بعد أن يصف علماء النحو الذين درجوا على الوقوع في مثل الأخطاء السابقة إلى لب القضية والمشكلة وهي تربية الملكة التي أوردها قديمًا ابن خلدون حين قال: «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة، ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم، الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات الفحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضًا في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور، منزلة من عاش بينهم، ولقن العبارة منهم»[4].

---

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص١٢، مقال (آفة اللغة هذا النحو).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٣.

(٣) انظر: دراسات وتعليقات في اللغة، د.رمضان عبد التواب، ص٢٣١، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(٤) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، ص ٥٥٦، بيروت، دار القلم، ط١، ١٩٧٨م..

إلا أن هذا لم يحدث، واقتصر دور الطنطاوي في هذا المقال على الدعوة إلى تنقية القواعد النحوية المدونة من الحشو والزيادة، وهذا وحده لا يكفي لعلاج الأخطاء التي ذكرها الطنطاوي؛ كالعجز عن الحديث دون أخطاء لغوية؛ فالمشكلة لا تزال قائمة، وتنقية كتب النحو من الحشو لن تكون الدواء الوحيد في علاج هذا الداء؛ وذلك على الرغم من أن الطنطاوي تعلم بهذه الطريقة العلمية - تربية الملكة - على يد الشيخ سليم الجندي شيخ أدباء الشام - كما يصفه الطنطاوي-؛ فيقول: «وكان يحرم علينا أن نلم بشيء من الأدب الحديث أو ننظر في جريدة من الجرائد قبل أن نتمكن من الأدب القديم، ونألف الصياغة العربية، وتستقيم ملكاتنا على طريق البلاغة السوي خشية أن تدخل جراثيم العجمة إلى أسلوبنا، وأن يفشو الضعف في بياننا»[1].

ويبحث الطنطاوي عن أسباب ما آل إليه النحو الآن فيجد:

١. «أن النحاة اتخذوا النحو وسيلة للغنى، وطريقًا إلى المال، وابتغوه تجارة وعرضًا من أعراض الدنيا، فعقدوه هذا التعقيد وهولوا أمره، حتى يعجز الناس عن فهمه إلا بهم، فيأتوهم، فيسألوهم، فيعطوهم فيغتنوا»[2].

٢. أنه قد «زاد النحو تعقيدًا وإبهامًا وبعدًا عن الغاية التي وضع

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص١٩١، مقال (الترجمة والتأليف).

(٢) المرجع السابق، ص ١٥، مقال (آفة اللغة هذا النحو).

من أجلها، ما صنعه الرماني من مزج النحو بالمنطق وحشوه به، حتى ما يقدر من بعده على تجريده منه، وحتى قال أبو علي الفارسي وهو معاصر له: إن كان النحو ما يقوله الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء. فخرج بذلك النحو عن الجادة، ولم يعد واسطة لفهم كلام العرب واتباع سبيلهم في القول، بل غدا علمًا مستقلًا معقدًا مضطربًا، لا تكاد تثبت فيه مسألة»[1].

٣. «زاد النحو فسادًا على هذا الفساد؛ هذا الخلاف بين المذهبين (أو المدرستين على التعبير الجديد) المذهب الكوفي والمذهب البصري، وما جره هذا الخلاف من الهجوم على الحق، والتدليل على الباطل، والبناء على الشاذ، قصد الغلبة وابتغاء الظفر، كما وقع في المناظرة المشهورة بين الكسائي وسيبويه»[2].

وهو يدعو علماء اللغة وأدباءها أن يدلوا برأيهم في سبيل إصلاح النحو، الذي بعد عن الغاية التي بدأ من أجلها؛ فيقول: «لماذا لا نجرد من النحو القواعد الثابتة التي تحفظ هذه اللغة التي نستعملها، وتقوم تلك اللهجة التي نلهجها، وندع ذلك الطم والرم لمؤرخي الأدب وفقهاء اللغة؟»[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩.

- **التعليم الديني:**

شغلت قضية التعليم الديني علي الطنطاوي بشكل كبير، وقد تعرض لها وللمشكلات التي تقابل التعليم الديني غير مرة. فقد كتب يدافع عن الجامع الأزهر ونظامه القديم، وخوفه من ذهاب هو يته وضياعها بعد دعاوى الإصلاح المزعومة وتحو يله إلى جامعة[١].

كما وقف بالمرصاد للدكتور طه حسين في إحدى مقالاته حين أشيعت دعوة طه حسين لإلغاء الأزهر، كمعهد علمي، واستبداله الجامعات العصرية به؛ كما حذر في مقاله من المعاهد والمدارس التبشيرية في البلاد العربية والإسلامية وأثر هذه المعاهد والمدارس على عقول أبنائنا[٢].

وقبل ذلك تحدث الطنطاوي في إحدى مقالاته في صحيفة «الفتح» عن المدرسة الدينية، وقدم اقتراحًا حول برامج التعليم، ونظام المدرسة الدينية وأصول التدريس فيها وهو يرى «وجوب اشتمال المناهج في المدارس الدينية على العلوم الإسلامية والعربية، وعلى ثقافة علمية واسعة تحيط بمجمل نواحي المعارف الإنسانية؛ لأنه أصبح من المفهوم أن الإسلام دين وعلم وقانون وفن، وأنه صالح لكل زمان ومكان، فلا يستقيم في الفكر أن تكون

---

(١) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص ٢٤٥، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م. مقال (إلى شباب الأزهر.. تحية ووصية).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٥٢، مقال (ماذا يراد بالأزهر).

عقول علمائه الذين يعيشون اليوم مخالفة لعقول الناس، وفي معزل عن حقائق الكون التي توصل العقل البشري إلى معرفتها»[١].

ومن الجدير بالذكر أن هذه الفكرة قد تطورت فيما بعد إلى نظرية هي إسلامية المعرفة[٢]؛ فإسلامية المعرفة «لا تعني فقط الدعوة لتحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الإنسانية وبين المطالب الدينية على مستوى التطبيق، وإنما تعني، قبل هذا وبعده، احتواء كافة الأنشطة المعرفية الإنسانية على المستويين النظري والتطبيقي معًا من أجل جعلهما تتحقق في دائرة القناعات الإيمانية، وتتشكل وفق مطالبها وتصوراتها الشاملة أسوة بالعلوم الأخرى»[٣].

كما يؤكد في اقتراحه على ضرورة الاهتمام بتدريس العلوم الإسلامية الخالصة؛ ولتكن هذه العلوم «على شكل يفهمه أبناء

---

(١) مقال (المدرسة الدينية)، علي الطنطاوي، صحيفة الفتح، ص٣ (الافتتاحية)، القاهرة، العدد ٥٩٠٣، السنة الثانية عشرة، ١٥ المحرم ١٣٥٧هـ.

(٢) يعمل المعهد العالمي للفكر الإسلامي منذ أنشأ سنة ١٩٨١م وحتى الآن على تبني هذه النظرية؛ حيث يعلن أنه يقوم بتجنيد جمهور العلماء والمثقفين المسلمين لإعادة صياغة الفكر الإسلامي المعاصر ومناهجه في مجال العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية، ولتحقيق هذه الغاية يسعى إلى عقد الحلقات والمؤتمرات العلمية، ويقوم بنشر الدراسات والأبحاث وإنجاز الكتب المنهجية المدرسية والجامعية.

(٣) مدخل إلى إسلامية المعرفة، د.عماد الدين خليل، ص١١، إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة٧.

هذا العصر، ويلائم أذواقهم، وأن يختار لتدريسها جماعة قد انطلقت عقولهم من قيود اللفظ، والوقوف عند تفهم العبارة وإعادتها بأسلوب آخر قد يكون أرقى من أسلوب الكاتب، وقد يكون أحط، وأن يبتعد عن هذه الشروح وهذه الحواشي فلا تدرس إلا في الصفوف العالية، حينما تقوى ملكة العلوم الإسلامية عند التلميذ»[1].

ويضيف «وأذهب إلى أن تدريس الفقه للمبتدئين لا يقتضي شرح هذه الافتراضات الغريبة التي توجد في كتب الفقه، ويولع بها بعض الفقهاء... وإلى جانب هذه الإفاضة في فرض الفروض، نجد في كتب الفقه نقصًا كبيرًا في المسائل التي جدت ولم يقع أمثالها في عصور الفقهاء المتقدمين، والتي شغل المعاصرين من علمائنا عن بحثها واستنباط أحكامها اشتغالهم بعبارة الكتاب وتحليل غامضها»[2].

كذلك يستنكر الطنطاوي أن يستمر التلاميذ في المدارس الدينية يدرسون كتب الكلام المحشوة بحكايات أقوال المخالفين والرد عليها، فيحفظ التلاميذ شبه أقوام بادوا، ونحل انقرضت، كالجهمية والمرجئة والمعتزلة واللاأدرية، قبل أن يعرفوا عقيدة التوحيد على قوته وبساطته وجلاله، مستشهدين بآيات الله من

(١) مقال (المدرسة الدينية)، علي الطنطاوي، صحيفة الفتح، ص٣ (الافتتاحية)، القاهرة، العدد ٥٩٠٣، السنة الثانية عشرة، ١٥ المحرم ١٣٥٧هـ.

(٢) المرجع السابق، ص٥.

كتابه وخلقه»[1].

كما أكد في مقاله على ضرورة الاختيار الجيد للأساتذة والمدرسين، وضرورة أن يكون القائمون على هذه المدارس الدينية هيئات من أهل الرأي والمشورة، وأن تتبع طرق التدريس في هذه المدارس بالطرق الفاعلة التي تجمع بين مزايا الطرق القديمة في التدريس والطرق الحديثة، وأن تتجنب سلبياتهما.



(١) المرجع السابق، ص٤.

القضايا الاجتماعية

تكثر الموضوعات التي تطرقها الكتابات الاجتماعية، فهي تتناول كل ما يتصل بالمجتمع من ظواهر وعادات وتغيرات. ويعد الصراع التقليدي بين القديم والحديث وبين الجمود والمعاصرة من أهم مجالاته.

أما عدة الكاتب في الشأن الاجتماعي بصفة عامة فتتمثل في «ملاحظة دقيقة وقدرة على إحكام الوصف وإجادة التحليل، واتزان في الحكم وعمق في التأمل، وبراعة في التهكم والسخرية حتى لا تخرج المقالة من بين يديه جثة هامدة»(١). وقد أجاد الطنطاوي في استخدام هذه الأدوات، فتميزت كتاباته الاجتماعية موضوعيًا وفنيًا.

المدنية الغربية:

يرى مالك بن نبي في تحليله لواقع العلاقة بين الشرق والغرب أن أوروبا الحديثة حين اكتشفت العالم الإسلامي لم تؤته روحها، أي أنها لم تؤته كل حضارتها، وإنما اقتصرت فيما اصطحبت من الأدوات على ما يسهل للمستعمر الحصول على رفاهيته العاجلة.

---

(١) فن المقالة، د. محمد يوسف نجم، ص ٦٨، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٩٦م، ط١، بيروت.

فالأوروبي لم يفد إلى الشرق ممدنًا، بل مستعمرًا، والشاب المسلم الذي ذهب إلى أوروبا لم يذهب إلا لكي يحصل على لقب جامعي، أو لكي يشبع فضوله السطحي التافه[١].

ولا يشك الطنطاوي في أن الحضارة الغربية قد خالطتنا وغلبت علينا شئنا أم أبينا، وأنها قد فاجأتنا مفاجأة أزاغت أبصارنا، وأفقدتنا ملكة الحكم عليها فترة من الزمن، انقضت الآن، وصرنا نستطيع أن نحاكمها، وأن نفرق بين خيرها وشرها [٢].

ولذا خصص عددًا من مقالاته للتحذير من شرور المدنية الغربية، ففي مقاله (إلى أخي النازح إلى باريز) الذي أنشأه عندما ودع أخاه عبد الغني الطنطاوي عندما ابتعث إلى باريس لدراسة الرياضيات ونيل درجة الدكتوراه، يُذكِّر أخاه الذي يغادر بلده بالسلوك الإسلامي، وينصحه بأن يحافظ على نفسه، حيث يضيع هناك كثير من الذاهبين فيأتون بورقة تحمل شارة الحصول على العلم، ولكنهم يفقدون أخلاقهم ودينهم؛ فيقول له: «وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك، وخل السوربون تنع من بناها، وانفض يدك من العلم إن كان

(١) انظر: وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص ٥٧-٥٨، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

(٢) انظر: حوار مع علي الطنطاوي، (ملحق خاص عن الشيخ علي الطنطاوي) جريدة الجزيرة السعودية ٢٧ مايو ١٩٩٩م. (أجرى الحوار: ناهد باشطح).

لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق»[١].

إن فرنسا في نظره بلد مسحور خطر «الذاهب إليه لا يؤوب، إلا أن يؤوب مخلوقًا جديدًا، وإنسانًا آخر غير الذي ذهب... يتبدل دماغه الذي في رأسه، وقلبه الذي في صدره، ولسانه الذي في فيه»[٢]. لذلك كان يرغب في أن ينهل أخوه من العلم فيها، وأن يبتعد عن مواخيرها الغرائزية وانحرافاتها الفكرية، وفي نفس المعنى كتب مقالًا آخر سنة ١٩٥٩م تحت عنوان (رسالة) حذر فيه أحد أصدقائه المسافرين مما حذر منه أخاه من قبل[٣].

وهو يرى أن ما قدمته الحضارة الغربية في مجالات التمدين أحد ضرورات الحياة المعاصرة على الرغم مما أتت به من سلبيات، فيقول: «وأنا لا أدعو لنبذ الحضارة الغربية، بل أدعو إلى أخذ ما ينفعنا منها»[٤].

وقد كتب قصتيه (أعرابي في حمام) [٥] و(أعرابي في سينما) [٦] ليقدم مقارنة طريفة بين حياة البداوة ومنجزات الحضارة الغربية التي غزت حياتنا، وأصبحت جزءًا منها، ولا يخفى تأثر الطنطاوي

---

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص٤٦، مقال (إلى أخي النازح إلى باريز).

(٢) المرجع السابق، ص٤٣.

(٣) انظر: مع الناس، علي الطنطاوي، ص١٦٣، مقال (رسالة).

(٤) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص٤٣، مقال (رجل في ملابس النساء).

(٥) انظر: صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص٧١-٧٧.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص٧٨-٨٤.

في هاتين القصتين بأسلوب المقامات.

وهو في مقاله (لا أؤمن بالإنسان) يهاجم سلبيات الحضارة الغربية وما قدمته للإنسانية من شرور، فيقول: «وأنقل البصر إلى ديار المتمدنين فلا أرى مدنيتهم إلا أظافر من حديد، ومخالب من فولاذ كأظافر الوحش ومخالبه، ولكن الوحش يفترس ليعيش هو، وهؤلاء يحاربون لئلا يعيش غيرهم، ووجدتهم استخدموا قوى الطبيعة ولكن للشر، واستعملوا عقولهم ولكن في الضلال»[١]. وفي مقاله (حي صورة) يقارن بين أيامه التي عاشها سنة ١٩١٧م وما آل إليه الحال سنة ١٩٥٦م فيرى الفارق كبيرًا، حين انقلبت الحياة والسلوكيات والعادات وحتى العلوم فيشاهد تغيرًا كبيرًا - معظمه للأسوأ- صنعته يد الحضارة الحديثة التي أطلت على بلادنا من الغرب[٢].

وتحت عنوان (موقفنا من الحضارة الغربية) يذهب الكاتب إلى أن هذه الحضارة تتألف من عنصر عقائدي، وعنصر فكري، وعنصر اجتماعي: أما العنصر العقائدي فهو يرفضه جملة وتفصيلًا، وهو ما يتمثل في المذاهب الفكرية الغربية كالمادية والعلمانية وغيرهما، إضافة إلى ما قدم إلينا من بعض شبهات المستشرقين التي تدعو إلى التشكيك في الإسلام وعقيدته. أما العنصر الفكري (ويعني به الجانب التكنولوجي) فيقبله جملة وتفصيلًا. ويبقى

(١) المرجع السابق، ص١١٩، مقال (لا أؤمن بالإنسان).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٣٨-١٤٨، مقال (وحي الصورة).

العنصر الاجتماعي حيث ينبغي أن نقبل منه ما يتفق مع الإسلام أو على الأقل (ما لا يخالفه)؛ مثل تمديد المدن وتخطيط الشوارع، والنظافة والخدمات العامة والضمان الاجتماعي وتقدير الوقت.. الخ، كما ينبغي أن نرفض بشدة ما يخالف معتقداتنا؛ كتلك الحياة الأخلاقية البهيمية والمتعلقة بالأمور الجنسية[١].

مشكلات الشباب:

- عمل الشباب

يأسف الطنطاوي لتقليدنا الأعمى لعادات الغرب السيئة، وتركِنا لعاداته الحسنة، وهي كثيرة في نظره، وتأتي مسألة عمل الشباب واعتماده على نفسه ماديًا في وقت مبكر، إحدى هذه العادات الغربية الحسنة وإن كان يشوبها بعض الأخطاء التي تتعلق بثقافة مجتمعاتهم، وقد كتب الطنطاوي في هذا الأمر مقالين سنة ١٩٥٩م محمسًا الشباب، مؤكدًا لهم على أن «العمل ليس عيبًا، وإن من أبناء الموسرين في أمريكا وغيرها من يعوده أهله اكتساب المال في الصيف من أي طريق حلال، وإن طلاب الجامعات يشتغلون في المطاعم بغسل الصحون، ويعملون في بيع الجرائد، ولا يرون في ذلك بأسًا، لا عن حاجة للمال، فمن آبائهم من يملك الملايين حقًا،

(١) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص٨٧-٩٢، مقال (موقفنا من الحضارة الغربية).

بل لتعويدهم الكسب والاعتماد على النفس»[١].

وفي العراق قدَّم الطنطاوي في إحدى مقالاته مشروعًا لتشغيل الشباب في القرية في العطلة الصيفية ومساعدة الفلاحين الذين يمثلون جمهرة السكان في البلاد العربية جميعًا[٢].

- **الحب والشباب**

يقدر الطنطاوي الشباب تقديرًا كبيرًا، وهو وإن أعجبه وصف أبي العتاهية بأن «روائح الجنة في الشباب»، أو قول البحتري:

خَلَقُ العيشِ في المشيبِ وإنْ كا
نَ نضـيرًا وفي الشـبابِ جديدُه

فإنه يصف الشباب بـ«الواحة الفريدة في صحراء الحياة، وهو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب»[٣].

وفي نفس هذا المقال الذي كتبه الطنطاوي في شبابه وأعاد طبعه منفردًا في مشيبه يذكر رأي (أندريه موروا) ويؤيده في

(١) انظر: مع الناس، علي الطنطاوي، ص١٨٣، مقال (الطلاب والعطلة).

(٢) انظر: في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ٦١-٦٦، مقال (إلى القرية يا شباب).

(٣) فصول إسلامية ص٤١، مقال (المثل الأعلى للشباب المسلم)، وقد نشر هذا المقال سنة ١٩٣٧م، حين كان الطنطاوي في العشرينيات من عمره، وأعيد طبعه مرات آخرها مستقلًا في رسالة بنفس العنوان (المثل الأعلى للشباب المسلم).

وصفه للشباب بصفتين رئيستين هما الحب والبطولة، وقد أفاض الطنطاوي في شرح هاتين الصفتين وتوضيح رأيه فيهما، ومن آرائه في الحب أنه يمثل المرقد (البنج) الذي وضعه الله لتمام عملية التناسل التي لا بد منها لبقاء النوع البشري، كما يرى أن الحب العذري الأفلاطوني ليس إلا أحد الأكاذيب الجميلة التي لا يصدق بها عاقل(١).

كما يقول: «الحب عالم من العواطف، ودنيا من الشعور، فيها كل عجيب وغريب»(٢). والطنطاوي بين الحين والحين يكشف عن إحساس عميق بالحب من خلال عبارات شاعرية دافئة، فـ«لولا (الحب) ما التفت الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطفت الظبية على الطلا في الكناس البعيد، ولا حنا الجبل على الجبل في الوادي المنعزل، ولا أمد الينبوع الجدول الساعي نحو البحر، ولولا (الحب) ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع.. ولا كانت الحياة»(٣).

وهو لا يجد نفسه نسيجَ وحدِه من الأدباء الملتزمين في إحساسه بالحب والتعبير عنه، ولا داعي أن يستغرب ذلك أحد – في نظره-، فهذه جملة من الفقهاء والعلماء عرفوا الحب وعبروا عنه يذكرهم

(١) انظر: المرجع السابق، ص٥١.

(٢) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص٢١١، مقال (في الحب).

(٣) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٥٩.

في مقاله (من غزل الفقهاء)[1].

ومن المهم الإشارة إلى أن الطنطاوي على الرغم من اعترافه بقيمة الحب في الحياة والحاجة إليه، فإنه قد وضع له بعض الضوابط حتى لا يغرق صاحبه في بحره، أو يضل في صحرائه، فهو يسمح للشباب أن يحبوا، ولكن عليهم أن يبقوا مسلمين، وأن يحبوا، ولكن عليهم أن يبقوا رجالًا، ويضيف: «ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها، وتغرقوا الأرض بالدموع؛ لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها، ولم تصل وقد لوحت بالوصل، تنشئون الأشعار في هذه الكارثة، وتنشئون فيها الفصول، تبكون وتستبكون، ثم تنامون مطمئنين، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد»[2].

ويرى الدكتور أحمد آل مريع أن الحب عند الطنطاوي في فترة شبابه كان حبًا رومانسيًا مفعمًا بالحيوية والنشاط والتدفق والتطلع والفضيلة، وأنه قد تأثر بأعمال الرومانسيين الغربية التي ذاعت في تلك الفترة، إلا أن هذا الإحساس بالحب وهذا التعبير عنه قد تغير في فترة كهولته وما بعدها[3].

كذلك نلمح تأثر الطنطاوي بالأدباء العرب المحافظين الذين اتصل بهم في تلك الفترة من أمثال مصطفى صادق الرافعي الذي

(١) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ٣٣-٤٣، مقال (من غزل الفقهاء).
(٢) فصول إسلامية ص٥٠، مقال (المثل الأعلى للشباب المسلم).
(٣) انظر: قراءة في فلسفة الحب عند الشيخ علي الطنطاوي، ص ٣٧، أحمد علي آل مريع، ط١، أبها، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

تتفق نظرة الطنطاوي للحب معه خاصة في كتبه عن فلسفة الجمال والحب، حين تبرز عنده قضية التميز الأخلاقي والديني في سياق حديثه العاطفي مثل قوله:

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه[1]

وهو يربط بين الحب والجنس ولا يهاجمهما ولكن يهاجم الإفراط فيهما؛ فيقول: «ولسنا نحقر الحب، ولا نذم الشهوة، وإنما نذم الغلو فيهما، وولوجهما من غير بابهما، وأخذهما على غير الوجه الذي خلقه الله لهما»[2]، فالحب إذا بلغ مبلغه من التطرف، فأغرق فيه الشاب صار جريمة في نظر الطنطاوي، «فحياة العزب حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع»[3]، وحتى لا يكون داءً مزمنًا، فإنه يرى أن يعالج (الحب) وهو داء الشباب بالزواج، فإن «الله الذي وضع الشهوة في النفوس جعل دواءها الزواج»[4]، وهو يستنكر مع ذلك أن يكون الحب وحده هو الأساس الذي تقوم عليه، فالحياة تحتاج إلى العقل بجانب الحب، «ومن الحماقة أن

---

(١) مصطفى صادق الرافعي (رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد)، مصطفى صادق الرافعي، تقديم ودراسة د. عبد القادر القط، ص ٩١، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، القاهرة ١٩٩٤م.

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٠٢-١٠٣، مقال (داء الشباب).

(٣) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص٥٢، مقال (المثل الأعلى للشباب المسلم).

(٤) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٠٤، مقال (داء الشباب).

يبنى الزواج على الحب وحده»[1].

وهو ينطلق في مسألة الترغيب في الزواج وآلياته من مرتكزات إسلامية واضحة، فالترغيب في الزواج ذكره القرآن فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾[2]. وذُكِرَ في الحديث النبوي: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ)[3]، أما حصر الزواج على الحب والإعجاب فهو من الأخطاء الشرعية التي لفت الانتباه إليها القرآن والسنة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾[4]. وفي الحديث الشريف: (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)[5].

---

(١) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص٥٣، مقال (المثل الأعلى للشباب المسلم). وانظر: مع الناس، علي الطنطاوي، ص٢٠٥- ٢٠٨، مقال (الحب والزواج).

(٢) سورة النور٣٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب (من لم يستطع الباءة فليصم)، رقم (٤٧٧٩) تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) سورة البقرة ٢٢١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب (الأكفاء في الدين)، رقم (٤٨٠٢).

- **مشكلة الزواج**

تعد مشكلة الزواج من أعقد المشكلات التي تعاني منها كثير من مجتمعاتنا العربية المعاصرة، وقد استحوذت هذه القضية على عدد من كتابات الطنطاوي الاجتماعية، حيث أكد أن الفساد الأخلاقي الذي تشهده مجتمعاتنا حديثًا هو أحد نتائج هذه المشكلة الكبيرة[١]، كما أنه اهتم في مقالاته بتحديد أسباب المشكلة وطرح رؤيته في علاجها.

ويطرح الطنطاوي أربعة أسباب لتفاقم مشكلة الزواج في المجتمع:

أولًا: نظام التعليم: فهذا النظام في نظره يعارض فطرة الله، ويخالف طبائع النفوس، فالتعليم يقضي بأن يبقى حتى يصبح الشاب في منتصف العشرينيات، وإذا أراد أن يكمل دراسته العليا جاوز الثلاثين من عمره، فيتساءل: «كيف يمضي هذه السنوات العشر أو الخمس عشرة التي هي أشد سني العمر ثورة وشهوة وضرامًا في الأعصاب، لا سيما وهو يعيش في جو مملوء بالمغريات الجنسية»[٢].

كما أنه لا يحصر القضية فقط في إطار المسألة الجنسية، وإنما يتطرق لعيب آخر من عيوب التعليم يتعلق بالمشكلة وهو قضية

(١) انظر: مع الناس، علي الطنطاوي، ص٧٨، مقال (مشكلة الزواج).

(٢) المرجع السابق، ص٧٨.

الكسب المادي، «فكيف يمكن أن يتزوج؟ لا سيما وأنه مضطر بحكم هذا النظام أن يبقى بلا كسب، ولا مورد ويبقى عالة على أبيه حتى يبلغ الثلاثين، ويبقى بعد ذلك بضع سنين؟ أخرى بطبيعة الحال كي يجمع تكاليف الزواج، فيصير عمره خمسًا وثلاثين، ومن المشاهد أن كثيرًا من الذين يبقون بلا زواج إلى هذه السن، لا يتزوجون أبدًا لأن الدافع إلى الزواج يضعف بعدها، ونار الغريزة تخمد، والشباب يكون قد ولى»[١].

إن النظام المثالي – وفقًا للطنطاوي- أن يكون الشاب في بداية العشرين صاحب مورد مادي من حرفة أو عمل يستطيع بموجبه أن يفتح بيتًا ويكون زوجًا وأبًا، أما البنت فمن الواجب أن تتزوج فور بلوغها أي في الرابعة عشرة من عمرها[٢].

أما السبب الثاني من أسباب هذه المشكلة وهو العادات الشنيعة في الزواج التي تثقل كاهل الجميع، ومنها المغالاة في المواصفات الملائمة للزواج، فبعض الأسر لا تزوج بناتها لمن يتقدم لهن، وإن صلح دينه وخلقه، لا لشيء إلا لأنه لا ينتمي لأسرة عريقة تناسب هذه الفتاة، هذا مع تأكيد الطنطاوي لعنصر الكفاءة في الزواج حتى يستطيع الخاطب أن يعيشها في وسط لا يقل عن عيشها في بيت أبيها[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٧٨-٧٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٧٩.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٨٦. وانظر أيضًا: فتاوى، علي الطنطاوي، ج٢

كما تعد المغالاة في المهور من أبرز مشكلات الزواج، «والمهر لا بد منه، ولكن ليكن معتدلًا، لا يرهق الخاطب، ولا يضيع حق البنت، فإن كان الخاطب صالحًا، وليس في يده مال حاضر كأكثر الشباب، فليكن المهر مؤجلًا»[1]. كذلك هناك كثير من العادات المنفرة من الزواج؛ مثل: اشتراط شراء الأثاث الفخم، الهدايا التي تثقل كاهل الشباب، وسلسلة الحفلات المتعددة والتي تكلف الكثير حتى على المدعوين الذين يرغمون على تقديم الهدايا في كل مناسبة حسب الأعراف الاجتماعية[2].

وهو يتهم الآباء بالعمل على تفاقم مشكلة الزواج في المجتمع فيقول: «آباء البنات هم سبب المشكلة، يسهلون للبنت كل سبيل إلا سبيل الحلال، يخرجونها متكشفة متزينة، ويرخون لها الزمام، فإذا جاء الخاطب الصالح، لقي منهم ما يلقى الأسير العربي في إسرائيل... ومن الآباء من يدع ابنته تخرج سافرة يراها كل من يمشي في الطريق حتى الحمير.. فإن أراد الخاطب أن يراها الرؤية الشرعية، نادى: ياللحجاب، وياللديانة، وياللعادات»[3].

والسبب الثالث «أن أكثر الأزواج تركوا الشرع، ولم يقفوا عند حدوده، فلم يعرف الزوج الواجب عليه لزوجته ولم يقم به، ولم

ص١٨٩.

(١) مع الناس، علي الطنطاوي، ص٨٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٧٩-٨٠.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٣٨.

تعرف الواجب عليها لزوجها ولم تقم به، فدخل بذلك الخلاف إلى أكثر البيوت، وصارت حياة المتزوجين جحيمًا لا يطاق، وتتالت الدعاوى في المحاكم، وفشا الطلاق، ورأى هذا الشباب العزاب وسمعوا أخباره، فزادهم ذلك كراهة للزواج وانصرافًا عنه»[١].

أما السبب الرابع فهو الفساد الأخلاقي الذي هو نتيجة لقلة الزواج، صار سببًا من أسبابه، فسهولة طريق الفساد ماديًا واجتماعيًا تصرف الشباب عن الزواج[٢].

ويتطرق الطنطاوي لمشكلة من لمشكلات المطروحة في مسألة الزواج وهي مسألة السن المناسبة للزواج، فيرى ضرورة الزواج المبكر للفتى والفتاة، وهو يبرر هذا الرأي بقوله: «إن الله وضع بين جنبيه نارًا متقدة، إن لم يطفئها بالزواج أحرقت بالألم نفسه، أو أحرقت بالزنى بيوت الناس»[٣]. وهو يعترض على من يدعو إلى تأخير سن الزواج بأن «المجتمع الذي يمنعه من الزواج، لا يترك وسيلة لزيادة هذه النار اشتعالًا في نفسه إلا عمد إليها، وكلما نسي المسكين هذه الشهوة ذكرناه بها، بالصور العارية، والأفلام الخليعة، والعورات البادية، والاختلاط المتفشي»[٤].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٧٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٨١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢١٠، مقال (السن المناسبة للزواج).

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢١١.

قضايا المرأة

يذهب الطنطاوي - مع المطالبين بحقوق المرأة - إلى وجود بعض الخلل في مجتمعاتنا العربية والإسلامية في التعامل مع المرأة، لكنه يستنكر أن يكون المنطلق إلى هذه الحقوق خارج عن دائرة الإسلام، الذي حفظ للمرأة حقوقها؛ فيقول: «ولو أن الرجال طبقوا الإسلام حقًا، وقام من المسلمين من علمائهم من يدعو إلى منح المرأة حقوقها حينما كتب قاسم أمين كتابه، لو دعونا إلى تحرير المرأة (وقد كانت فعلًا مظلومة باسم الإسلام) لما جاء من يجرؤ على تحريرها باسم الحضارة الأوروبية الجديدة»[1].

أما رأيه في أولئك الداعين إلى تحرير المرأة فيذكره الطنطاوي بلا هوادة في مقاله (يا ابنتي) وهو: «إنّ دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنيّة قومٌ كذّابون من جهتين: كذّابون لأنّهم ما أرادوا بذلك إلاّ إمتاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظّها من لذّة النظر، وما يأملون به من لذائذ أخر؛ ولكنّهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به، فلبّسوه بهذا الذي يهرفون به، بهذه الألفاظ الطنانة، التي ليس وراءها شيء سوى التقدميّة، والتمدّن، والحياة الجامعيّة، وهذا الكلام الفارغ -على دويّه - من المعنى فكأنّه الطبل؛ وكذّابون لأنّ أوروبا التي يأتمون بها ويهتدون بهديها، ولا يعرفون الحقّ إلا بدمغتها عليه، وأمريكا، يوجد فيها أسر كثيرة،

(١) فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص٣٠٠، مقال (المساواة بين الرجل والمرأة).

لا ترضى بهذا الاختلاط ولا تستسيغه، وإنّ في باريس- في باريس يا ناس - آباء وأمّهات لا يسمحون لبناتهم الكبيرات أن يسرن مع شابّ، أو يصحبنه إلى السينما، بل هم لا يدخلونهن إلاّ إلى روايات عرفوها، وأيقنوا بسلامتها من الفحش والفجور»[1].

والواقع أن المرأة في المجتمعات المسلمة الحديثة مظلومة بعض الشيء، لكنه ظلم واقع على كافة فئات المجتمع، وليس خاصًا بهذا الجنس فقط، فالفقر والجهل والتخلف الذي يحيط بالحياة الاجتماعية يدفع إلى وجود ألوان من مظاهر الظلم للمرأة والرجل على السواء. ويأتي القصور من أن الدعوات الوافدة تعالت صيحاتها لتخلص المرأة من الظلم وتدعو لتحريرها فقط، دون تحرير المجتمع كله عن طريق الإصلاح الاجتماعي الشامل.

وقد تطرق الطنطاوي في قضية الدفاع المرأة إلى عدد من المسائل:

الأولى: الدعوة إلى التحرير بصورتها الغربية تخالف طبيعتها وتهدر قيمتها:

يؤكد بعض العلماء الغربيين في العصر الحديث أن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تتأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم؛ إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك، «إنها تنشأ من تكوين الأنسجة

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص١٥٤، مقال (يا ابنتي).

ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليمًا واحدًا، وأن يمنحا قوًى واحدة، ومسئوليات متشابهة، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي... فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثم فنحن مضطرون لقبولها كما هي، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعًا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال»[1].

ومن هذا المنطلق انتقد الطنطاوي دعاوى المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، فسخر في إحدى مقالاته من بعض النساء اللاتي حملن مشعل هذه الدعوة، فكتب: «أنا أقترح أن تطلبي من الحكومة أن تستصدر قانونًا يوجب على الزوج أن يحبل سنة وعلى المرأة أن تحبل سنة، وعليه أن يرضع شهرًا وعليها أن ترضع شهرًا، وإلا فكيف تكون المساواة بينهما؟»[2].

(١) الإنسان ذلك المجهول، أليكسس كارليل، ص ١٠٨، تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

(٢) فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص٢٩٧، مقال (المساواة بين الرجل والمرأة).

وهو يتطرق لمسألة السفور والحجاب التي اقترنت بقضية تحرير المرأة مبررًا شرعية الحجاب من منظور حضاري ومنطقي على عكس ما يذهب إليه دعاة التكشف؛ فيقول: «ما للحضارة والحجاب؟ وما لهم يقرنون التكشف بالحضارة والحجاب بالبداوة والتخلف؟ هل الحضارة في هتك الحجاب وكشف العورات؟ يولد الإنسان عاريًا كما يولد كل حيوان، ولكن الحضارة تلبسه الثياب، ويكون الحصان بريًا متوحشًا عاريًا، فإذا استأنس وصار أهليًا لبس السرج. فالثياب هي علامة الحضارة والتكشف هو الرجعية، فما لهم يقلبون الحق باطلًا؟»[1].

أما نتائج هذه الحرية غير المسئولة فقد كانت سلبياتها كبيرة على المرأة، التي لقيت كثيرًا من إهدار قيمتها الأنثوية، «فهذا التكشف جنى على أنوثة المرأة وخسرها ولم يربحها. كان الشاعر يرى أصابعها تبدو في سجاف الخيمة فيهيم بها حبًا، وينظم فيها الشعر قصائد تكاد من حرارتها تلتهب التهابًا، وهو يراها اليوم على سيف البحر عارية لا تكاد تستر إلا ما يقبح مرآه فيمر بها كأنه يرى رجلي كرسي لا ساقي فتاة!»[2].

الثانية: الدفاع عن الإسلام الذي أنصف المرأة:

قناعة أخرى كانت وراء رفض الطنطاوي لهذه الدعوات، وهي

(١) المرجع السابق، ص٢٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٧.

أن الإسلام لم يقيد المرأة حتى تتحرر، ولم يبخسها حقها حتى تتساوى الأنثى بالذكر، وهو يتفق في هذه القناعة مع المحافظين الذين يرون أن الإسلام قد نظر إلى المرأة بصفتها إنسانة أنثى، وإلى الرجل بصفته إنسانًا ذكرًا.. فهناك تمايز في الطبيعة، اقتضته حكمة خلق الله الناس من ذكر وأنثى، ليكون التكامل شوق كل منهما وسعادته.. وحتى لا يكون التماثل والتطابق داعية الملل والنفور... ثم ليكون هذا التكامل سبيلا لبقاء النوع بحرا هادرا، على الرغم من تبخر القطرات المتمثل في انتهاء أعمار الأفراد[1].

الثالثة: كشف اللثام عن الحرية المزيفة في الغرب:

إن الصورة السيئة التي رسمت في أذهان الغربيين عن الإسلام وحقوق المرأة فيه، لا تزال تمثل عائقًا في طريق الدعوة إلى الحفاظ على المرأة في ضوء مفاهيم الإسلام، ولذا يؤكد المفكر الإسلامي الغربي الدكتور مراد هوفمان: أن «العقبة الكئود الكبرى التي تقف حجر عثرة في سبيل انتشار الإسلام في الغرب المسيحي، تتمثل في الرأي السائد الثابت لدى غير المسلمين الذي يدفع صورة المرأة المسلمة، ذاهبًا إلى أنها مقيدة الخطى لا يطلق لها العنان لاستثمار طاقاتها، ودورها على المطبخ مقصور، وفى شئون البيت وتربية الأطفال محصور، لا ترى إلا ملثمة، وأوقاتها بين زوجها

(١) انظر: مقال (حركة المساواة بين الجنسين)، بقلم: د. لويز لمياء الفاروقي، ترجمة د. محمد رفقي عيسى. مجلة المسلم المعاصر، العدد٣٧، ١٤٠٤هـ.

وربها مقسمة، ثم هي بعد ذلك كله مستذلة مستضعفة»[1].

والحقيقة أن استعراض واقع المرأة في بلاد الغرب حديثًا يكشف عن حقيقة مؤلمة، وصورة بشعة من صور انتهاك حقوقها هناك؛ لذلك فقد كان من المقبول جدًا أن تتعالى الصيحات في الغرب لتنال المرأة حقوقها وحريتها المسلوبة خلال تاريخها الطويل، ولكن المفارقة الكبرى أن أكثر المستفيدين بهذه الدعوات هم أكبر المنتهكين لها، إذ تحولت الدعوة لتحرير المرأة إلى وسيلة غير مباشرة لانتهاك هذه الحرية بشكل ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب!!

وهو يكثر في مقالاته من ذكر الواقع السيئ الذي تعيشه المرأة في الغرب في نطاقات العمل والأسرة والمجتمع، وهو الوضع الذي تنادي به دعوات التحرر في الشرق[2]. وقد كان يرى في المرأة الغربيّة نموذجًا لمدنيّة الغرب الفاسدة، التي تذلّ المرأة وتفسدها، يقول في رسالته لأخيه النازح إلى «باريز»، حيث الحضارة الفرنسيّة الغربيّـة: «سترى النساء في الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهنّ عرض السلعة، وقد أذلّتهنّ مدنيّة الغرب وأفسدتهنّ، وهبطت بهنّ إلى الحضيض، فلا يأكلن خبزهنّ إلّا مغموسًا بدم الشرف، وأنت لا تعرف من النساء إلاّ أهلك مخدّرات، معصومات كالدرّ المكنون، شأن نساء الشرق المسلم، حيث

(١) الإسلام كبديل، د. مراد هوفمان، ترجمة د.غريب محمد غريب، نشر مجلة النور الكويتية- مؤسسة بافاريا، ألمانيا، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ١٩٧.

(٢) انظر: في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ١٦٢، مقال (مناظرة هادئة).

المرأة عزيزة مكرّمة، محجوبة مخدّرة، ملكة في بيتها، ليست من تلك الحطّة والمذلّـة في شيء»[1]. وموقف الطنطاوي من معركة المرأة الشرقية نحو التحرر على الطريقة الغربية واضح أبرزه في غير مقالاته حين قال: «ولا تزال المرأة غالبةً ما حاربت بالأنوثة، فإن زهدت فيها وحاولت أن تجاري الرجل في ميدانه وتسابقه في حلبته وتقاتله بسلاحه اصطكّت ركبتاها وكلّت قدماها وعجزت يداها وسقطت»[2].

قضايا الأسرة

- **الزواج بالأجنبيات:**

حمل الطنطاوي على الزواج بالأجنبيات لما في ذلك من أضرار اجتماعية كبيرة، حيث عد الزواج بالأجنبيات «جريمة وطنية وإفسادًا للنسل»، وهو يرجع ذلك إلى أن كل بنت أجنبية تدخل البلد تزاحم بنتًا من بناتنا وتزيد الكساد[3]. وهذه مشكلة تعاني منها كثير من المجتمعات العربية الآن خاصة في دول الخليج العربي ويعود السبب في ذلك إلى غلاء المهور وتكاليف الزواج

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ٤٣، مقال (إلى أخي النازح إلى باريس).

(٢) قصص من الحياة، علي الطنطاوي، ص١٨٣.

(٣) انظر: مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ج٢ ص ٩٧، مقال (تزوجوا بنات بلادكم).

بين الجنسين من مواطني هذه الدول، وإن كان الطنطاوي يحصر في هذا المقال الحديث على الأجنبيات لغة ودينًا، ويستنكر تهافت الشباب على هذه الفتيات، إذ لسن من الطبقات التي يمكن أن تعود بالفخر على زوجها العربي، إضافة إلى فساد التربية التي ستعود على أبناء أم غريبة عن الوطن والدين.

وهو يدعو الدول إلى الوقوف أمام مثل هذه الظواهر؛ «فإذا كانت الحكومة ترى أن من الواجب عليها حماية منتجات الوطن بسد الباب أمام المنتجات الأجنبية، فإن أوجب من ذلك حماية بناتنا من البنات الأجنبيات: زوجات وفنانات وعاملات؛ لأن في الأولى ضياع أموالنا، وفي الثانية ذهاب أعراضنا»[١].

ولا ينسى الطنطاوي على عادته التمثيل بقصص اجتماعية واقعية على رأيه في الزواج بالأجنبيات فيقول: «ومن أشنع أشكال الاختلاف بين الزوجين حال من يتزوجون بأجنبيات، فيرون منهن -على الغالب- ما يتمنون معه الموت الأحمر. وإني لأعرف من الناس رجلًا درس في فرنسا وجاء معه بفتاة زعم أنها من أكرم الأسر الفرنسية وأعرقها، فتزوج بها، فكان من أيسر ما تصنع أنها تذهب إلى السينما فترى الضباط الفرنسيين فتحن إليهم بصلة الدم فتكلمهم وتصادقهم ثم تدعوهم إلى دارها، فلا يروع صاحبنا إلا الضباط قد ملئوا بيته. ثم انتهى أمرها بالفرار مع واحد منهم!»[٢].

(١) المرجع السابق، ص٩٧-٩٨.

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٧٨، مقال (المشكلة الكبرى-١).

- **تربية الأولاد:**

يكاد الإلف والعادة يفسد الود والرحمة بين الزوجين بعد فترة من زواجهما، فيهرب الزوج معظم الوقت خارج بيته، الأمر الذي ينتج عنه مفاسد عظيمة، قد يكون منها سوء أخلاق الأبناء، ثم يأتي الرجل يحمِّل النتيجة للمرأة التي يراها الطنطاوي بريئة من هذا الذنب.

لكن الطنطاوي يأتي ليحمل المسئولية للرجل؛ فيقول: «الصلاح من الرجل والفساد من الرجل، ونساؤنا خاصة من خير نساء الأمم، وأطوعهن وأخلصهن، ولكن الرجال لا يعرفون كيف يستفيدون من طبيعة الخير فيهن، الرجل هو المسئول، الأب أولًا، والزوج ثانيًا، وعليه أن يبدأ هو بإصلاح ما فسد»[1].

وفي مقال آخر عنوانه تربية الأولاد ينطلق في تحميل مسئولية التربية للآباء من منطلقات شرعية، حيث يقول الرسول ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[2]، وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[3].

وهو يضع في هذا المقال عددًا من النصائح التي يراها

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٤٤، مقال (في القهوة).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب (فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم)، رقم (١٨٢٩)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) سورة التحريم، الآية ٦.

-متواضعة- لكنها مهمة نلخصها[1] فيما يأتي:

أولا: أن يكون للولد في أبويه قدوة عملية، فلا يقول الأب لولده: «حافظ على الصلاة»، وهو لا يحافظ عليها. وتقول الأم لولدها: «لا تكذب»، وهو يراها تكذب كل يوم عشرين كذبة. أي أن يبدأ الوالدان بإصلاح أنفسهما قبل أن يصلحا الولد.

ثانيًا: إطالة صحبة الأولاد، فإذا كان الأب يذهب إلى عمله في الصباح الباكر والولد نائم، ويعود الظهر ليتغدى والولد في المدرسة، ويخرج إلى القهوة أو النادي أو السهرة أو الدرس فلا يعود إلى الدار إلا والولد نائم، فمتى يراه ومتى يقوم بتربيته ورعايته؟.

ثالثًا: أن يعلم الوالدان أن الإيمان والكفر، والصلاح والفساد، إنما توضع بذوره في سن الطفولة؛ فيلقن ولده الإيمان بالله وحب الخير واتباع الحق من الصغر.

وفي مقال يحمل نفس العنوان يحاول الطنطاوي مساعدة الوالدين لعمل برنامج تربوي لأولادهما، يقوم على ري الأطفال من المنابع الإسلامية[2]، أما في مقاله (كيف ربيت بناتي) فيشرح الطنطاوي للقرّاء تجربته الخاصة في تربية أبنائه وأحفاده، وكيف كانت ثمرة هذه التربية[3].

---

(١) انظر: فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص ١٣٦-١٣٨، مقال (في تربية الأولاد-١).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٤، مقال (في تربية الأولاد-٢).

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ١٤٥-١٥٤. وقد كان من ثمار هذه التربية شكر =

- **الخلافات الزوجية:**

يرى الطنطاوي أن الأزواج بين رجلين؛ رجل أعمل سلطته، وأهمل عاطفته، فكان في بيته سيدًا، ولكنه لم يذق طعم الحب، ولا عرف السعادة الزوجية، ورجل تبع عاطفته فأطاعها، وأهمل سلطته فأضاعها، فعاش في داره عبدًا. كما أن من أسباب النكد البيتي، والشقاء الدائم، الخلاف على حقوق أحد الزوجين، فمن الرجال من يأخذ أكثر من حقه، ومن النساء من تقيم نفسها مقام الرجل وتفرض عليه سلطانها وهو يرجع أسباب الخلاف الزوجي في أظهر أشكاله إلى عدة أسباب، منها عدم الكفاءة بين الزوجين، في المال والعلم[1]، والمواقف المتشددة في كثير من الأحيان في حياة الزوجين من جانب أهليهما[2].

بالإضافة إلى إهمال الزوجين كل منهما للآخر «فالمرأة ظرفها ولطفها للناس، تقابل ضيوفها وصديقاتها بالوجه المشرق الباسم، والجرس الناعم، والأدب البالغ، وزوجها ليس له إلا التجهم والنظر الشزر، واللفظ الجافي، وكذلك يصنع الزوج»[3]، وكذلك من

= بالجميل تجسد في كتاب (هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي) تأليف، عابدة المؤيد العظم، حفيدة الطنطاوي. دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(١) انظر: في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٧٦-١٧٨، مقال (المشكلة الكبرى-١).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٨٠-١٨٢.

(٣) مع الناس، علي الطنطاوي، ص ٢٥، مقال (كل شيء للناس).

أسباب الخلاف طول العشرة ورتابة الحياة التي تسبب ركود العلاقة بين الزوجين[1].

والطنطاوي لا يكتفي بإبراز أسباب الخلاف، بل يقوم بدوره الاجتماعي في الإصلاح حين يكتب مقاله (بين الزوجين) ليضع الخطوط العريضة اللازمة لتجاوز الخلافات الزوجية[2].

- **الطلاق:**

يعد الطلاق مشكلة اجتماعية نفسية... لما يترتب عليه من آثار سلبية في تفكك الأسرة وازدياد العداوة والبغضاء والآثار السلبية على الأطفال، ومن ثم الآثار الاجتماعية والنفسية العديدة بدءًا من الاضطرابات النفسية إلى السلوك المنحرف والجريمة وغير ذلك.

ومن الملاحظ أن تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة وتكوين الأسرة قد نال اهتمام المفكرين منذ زمن بعيد. ونجد في شرائع الشعوب وقوانينهم وأخلاقهم فصولًا واسعة لتنظيم هذه العلاقة وضمان وجودها واستمرارها. ويهتم علماء الدين ورجال الفكر وعلماء الاجتماع وعلماء النفس بهذه العلاقة، كلٌّ يحاول من جانبه أن يقدم ما يخدم نجاح هذه العلاقة؛ لأن في ذلك استمرار الحياة نفسها وسعادتها وتطورها[3].

---

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٧٧، مقال (المشكلة الكبرى-١).

(٢) انظر: مع الناس، علي الطنطاوي، ص ٢٠٤، مقال (بين الزوجين).

(٣) انظر: الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١٩٢-٢٠٤. المكتب الإسلامي بيروت، ط١٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

وقد أخذ الطلاق نصيبًا من كتابات الطنطاوي، حيث حاول أن يعالج مسألة الاستهتار بالحياة الزوجية، والطلاق لأتفه الأسباب؛ فيحكي ويحلل قصة صديق مستهتر ينوي طلاق امرأته لأنه ملها من طول العشرة، حتى يقول: «ولم يبح الله الطلاق ليكون لعبًا ولهوًا، والفقهاء قد نصوا على أنه إذا طلق زوجته بلا ذنب منها ولا تقصير، وكان يعلم أن هذا الطلاق سيؤذيها في النفس والمال... كان آثمًا بهذا الطلاق معاقبًا عليه عند الله؛ لأنه ظلم، وقد حرم الله الظلم»(١).

كذلك تعرض لعادة سيئة من العادات التي قد تنتشر في بعض الأوساط الاجتماعية والتي تتعلق بالطلاق، وهي الحلف بالطلاق، حيث يرى أن ذلك من اللهو؛ فالطلاق حد من حدود الله وليس يمينًا، فيقول: «وأما اللعب بالطلاق، وأن يكون الزوج في السوق يبيع القماش، فيقول له المشتري: المتر بريال، ويقول هو: بريالين، فيختلفا: فيقول: عليه الطلاق إنه بريالين، ويطلق المرأة وهي في بيتها، تعد له الطعام وتنظف له البيت. أو يتألم من ذنب صغير فيسرع إلى الطلاق، فهذا ليس بالطلاق الشرعي، ولا طلاق السنة، بل هو معصية وبدعة ومن يفعله آثم»(٢).

وهو في هذا الرأي يخالف مذهبه الحنفي في نفاذ الطلاق المعلق، ويأخذ برأي الظاهرية، وابن تيمية في عدم نفاذ هذا

---

(١) فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص٢٨٥، مقال (الطلاق ليس لهوًا).

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٦.

النوع من الطلاق[1].

كما تعرض الطنطاوي في مقال آخر لواحدة من دعاة المساواة بين الرجل والمرأة، عابت قانون الأحوال الشخصية في مصر الذي يعتمد على الفقه الإسلامي القديم والمخالف للحداثة، الذي جعل الطلاق حقَّ الرجل دون المرأة، فأوضح أنه ليس في أحكام الإسلام ظلم للمرأة، وأنه ليس لها حق الشكوى من هذه الأحكام، فالشرع جعل للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب كثيرة، ذكر الطنطاوي بعضها، كما ذكر أن للمرأة حق الخلع، وهو أن تختلع نفسها من الرجل على عوض أو بلا عوض، ولها أن تشترط في العقد أن يكون طلاقها بيدها، تطلق نفسها متى شاءت[2].

من العادات الاجتماعية

- آداب الزيارة:

يأتي موضوع الضيافة من الموضوعات التي يرى الطنطاوي أنها عادات جاهلية، كانت تخدم ظروف المجتمع آنذلك ولا تخدمه الآن؛ «فالعرب في الجاهلية كان يعيش أكثرهم في الصحراء، فإذا

(١) انظر: المحلى، ابن حزم الظاهري، ج١٠ص٢١٧ (المسألة رقم ١٩٧٣)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة. وانظر أيضًا: الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ج ٣ ص٢٠٦، تحقيق حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، ط١٣٨٦،١هـ.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩١، مقال (كلمة في الطلاق).

نزل رجل بقبيلة من القبائل لم يجد فندقًا ولا مطعمًا ولا خانًا، بل إنه لم يجد سوقًا يباع فيه الخبز والفول المدمس، فإذا لم يفتح له أحد بيته أو خيمته ولم يدعه إلى طعام مات من الجوع، لذلك كان لحق الضيافة عند العرب شأن عظيم»[1].

وحجته أن الزمان قد تبدل وأساليب الحياة قد تغيرت، وصار في بلدان المسلمين فنادق، وضاقت الدور حتى إن كثيرًا منها يستطيع بالكاد أن يتسع لأصحابها، فلم يعد في كثير من الأحيان استقبال الضيوف للمقام والمنام.

هذا بالنسبة لأحكام الضيافة في الجاهلية، أما الإسلام فما أقر استقبال الضيوف «إلا بعد الاستئناس والسلام، و إذا قيل لنا: (ارجعوا) نرجع. فما معنى (حتى تستأنسوا) أليس معناها أن نأنس الرضا والموافقة؟ أي أن نأخذ موعدًا، فلا تكون الزيارة إلا بموعد؟ إلا في حالات الضرورة أو بين الأقرباء والإخوان الذين لا كلفة فيما بينهم[2].

ولا ينسى الطنطاوي إبراز بعض الجوانب السلبية لعادات الزيارة السلبية، ومن أهمها ضياع الوقت؛ لقدوم ضيف، دون موعد، «فإن قلت له: أنا والله مشغول، فارجع، كما قال الله تعالى، غضب منك وذهب فشهَّر بك، وقاطعك أو ضرك في نفسك

(١) فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص١٧، مقال (الضيافة).

(٢) المرجع السابق، ص١٨-١٩.

أو معاشك، فتضطر لإدخاله، وتقعد على مثل الشوك، وهو يقعد آمنًا مطمئنًا، لأنه فارغ، وعنده ساعتان يريد أن يمضيهما فلم يجد غيرك ليمضيهما معه»[1]... فالضيف يزورك حينما يحلو له لا حينما يحلو لك، ويبقى ما طاب له البقاء عندك، ولا شأن له بفراغك ولا بشغلك، ولا بضيق وقتك ولا بتعب أهلك»[2].

كما يحمل على ظاهرة تتعلق بعادات الزيارة، وهي ظاهرة اصطحاب الأطفال؛ فيقول: «وربما جاء الضيف بولده فرفع نعليه فوضعهما على المقعد، وأخذ كأس الشراب فصبها على الفراش، أو مد يده فأمسك بما يراه أمامه فأفسده»[3]. وقد كرر هذا المعنى في عدد من المقالات، نظرًا لأنه لاقى من سلبيات هذه العادات كثيرًا من هتك حرمة بيته وتضييع وقته؛ «فالوقت هو العمر، وهو أعز شيء على الإنسان، ولولا الوقت ما كُسب مال، ولا حُصل علم، ولا نال أحد دنيا، ولا ضمن أخرى، فهل في السرقات أفظع وأعظم من سرقة الوقت»[4].

وهو يعود ليمدح عادات الغرب في هذا الجانب ويدعو الأخذ

(١) المرجع السابق، ص١٩.

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٢١، مقال (حق الضيافة).

(٣) فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص١٩، مقال (الضيافة). وانظر أيضًا المقالات: ص ٩-١٥، ٢١-٢٥. وفي سبيل الإصلاح: ص ١٢٠- ١٢٣.

(٤) مع الناس، علي الطنطاوي، ص٣٩، مقال (لصوص الوقت). وانظر أيضًا المقالات: ص٦٥-٧١، ٩٠-٩٥.

به، وإن كان في الأصل أن الصواب يحمله المنهج الإسلامي؛ فيقول: «وعادات الإفرنج في الزيارات والولائم أصلح -في الجملة- مما نحن عليه اليوم، وتقديرهم للوقت أشد؛ وهذا كله من آداب الإسلام، والسلف كلهم كانوا على مثله، فلنقتبسه من الإفرنج إذا كنا لا نتبع منهج سلفنا الصالح، ولنجعل للزيارة آدابًا وأوقاتًا، ولنعلم أن «حق الضيافة» لا يقدم على حق المواعيد، ولا حق العمل، ولا حق الأهل، وأن رد الضيف أهون من احتمال الأذى، وإخلاف الوعد وترك العلم وإضاعة الأشغال»[1].

كما يصف إخلاف المواعيد والتأخير عنها سمة شرقية في العصر الحديث، ولا ينسى الطنطاوي التذكير بأن ذلك مخالف لتعاليم الإسلام التي شددت على مثل هذا النوع من إهدار أوقات الآخرين في حديث النبي ﷺ عن آية المنافق وكان منها «إذا وعد أخلف»[2].

- **الهدايا:**

في كثير من الأحيان يكون موضوع المقال حادثة تعرض لها الطنطاوي فقد ولد له مولود فأدي إلى أمه أكثر من عشرين (علبة شكولاته) الباهظة الثمن التي ألقيت في القمامة بعد عدة أيام، وتم إحراقها»؛ «فاحترقت أربعمائة ليرة كان يمكنه أن يشتري

---

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٢٣، مقال (حق الضيافة).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (١٠٦).

بها من (خبز البلدية) عشرين ألف رغيف، ومن الثياب النسائية المستعملة (التي توزعها وزارة التموين) أربعمائة ثوب، وممكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال»[١].

إن الهدايا في الأعراس والمناسبات المختلفة تعد أبرز علامات المجاملات الاجتماعية، وقد دخلت إلى هذا النوع من المجاملات سلبيات تضر بالفرد والمجتمع على السواء، ففي ظل مجتمعات تشكو من قلة الموارد المادية وضعف الاقتصاد، تنفق الأموال في هذه المناسبات لشراء أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع كالحلوى والدمى والورود، والطنطاوي يتساءل: «كم ينفق في الشام ومصر والعراق وسائر البلدان في هذا الشرق الإسلامي في الزفاف وحفلاته، والمأتم وملحقاته، والأعياد والمواسم، وأيام الولادة والختان، فيما لا ينفع أحدًا ألبتّة، ولا يعود عليه بعائده، ولا تناله منه فائدة؟ حتام تهدر الأموال ويراق الذهب، اتباعًا لعادات قبيحة وتقليدًا كتقليد القردة، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والجهل والمرض»[٢].

- **التكافل الاجتماعي**

في مقال نشر سنة ١٩٤٧م انتقد الطنطاوي بشدة ذلك التفاوت الكبير الذي شهده في المجتمع المصري من الناحيتين المادية

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص٢٨، مقال (بطون جائعة وأموال ضائعة).

(٢) المرجع السابق، ص ٣١.

والثقافية فمن الناحية المادية؛ انتهت الحال أن يكون في مصر نفر من المصريين والأجانب اجتمعت في أيديهم الملايين، وملايين من المصريين دون الأجانب فرغت أيديهم من كل شيء، وكيف امتد هذا التفاوت إلى غير المال، فكان في مصر نفر هم أكابر أدباء العربية، ونفر هم أئمة علماء الإسلام، ونفر هم أعلام الفلسفة والحقوق وعلوم الطبيعة، وجماهير لا تحصى لا تعرف شيئًا من هذا وتكاد تجهل كل شيء[1].

وامتد نقده إلى عقد موازنة بين فقراء مصر وأغنيائها، وبين فقراء الشام وأغنيائه، موضحًا أن التفاوت كبير جدًا بين الطبقات في مصر، وأرجع السبب في هذا إلى الإقطاع المسيطر على الحالة الاقتصادية بها.

وفي هذا المقال شدد دعوته للحكومة والعلماء والمفكرين والأدباء والقادة والشعب أن يحاولوا التخلص من هذا التفاوت الاجتماعي بشتى الطرق لتعديل كفتي الميزان في المجتمع، وتقليص هذا الفارق الشنيع بين الفقراء والأغنياء.

ويعد التكافل الاجتماعي أحد العلاجات الناجعة التي يراها الطنطاوي لحل أزمة التفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع، وقد كتب في الرسالة يحثها على تبني قضايا الفقراء؛ فيقول: «وإذا كانت الرسالة قد جردت قبل الحرب قلمها البليغ لنصرة أكرم مبدأ، مبدأ

(١) انظر: المرجع السابق، ص ١٤٧، مقال (أسئلة).

الإحسان، والدفاع عن الفقراء والمحتاجين، وإثارة الحمية في نفوس الأغنياء القادرين، ذلك والدنيا في رخاء والحياة سهلة، والسلام قائم، فأولى أن تستل هذا القلم العضب اليوم، حين اشتد الخطب، واتسعت بين الفريقين الشقة، وازداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرًا»[(١)].

كما ينشر سنة ١٩٦٤م مقالًا يدعو فيه للبر باليتامى؛ فيؤكد للقراء «أن العناية باليتيم الذي فقد الأم والأب أو فقد الأب، أعلى درجات الإحسان، ومكافأتها العاجلة هي المتعة الروحية، وهذه السعادة النفسية، أما مكافأتها عند الله فأكبر وأتقى»[(٢)].

وهو يفرد بعض المقالات للنيل من الأغنياء في بلادنا، فيصرخ فيهم: «ألم يأن أن تخشع قلوبكم، وتلين أفئدتكم؟ أَقُدَّتْ من حجر؟ ألا تكلفون نفوسكم تحريك أجفانكم وفتح عيونكم لتروا صرعى البؤس، وضحايا الفاقة، ماثلين لكم في كل سبيل، فتأخذكم بهم رحمة الإنسان، وتعنو قلوبكم لهم رقة المؤمن»[(٣)].

وقد حذر الطنطاوي في مقال آخر أسماه (إنذار) من اتساع هذه الفجوة، ودعا الأغنياء والإقطاعيين أن يرحموا الفقراء، قبل

---

(١) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ٥٣، مقال (تاجر حرب). وانظر أيضًا: مع الناس، علي الطنطاوي، ص١٧، ص٢١٧، وفكر ومباحث، علي الطنطاوي ص١٩٤، فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص١٥٥.

(٢) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص٢٢٩، مقال (البر باليتامى).

(٣) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ١١٥، مقال (يا أيها الأغنياء).

أن يأتي يوم لن يرحموكم إذا تمكنوا منكم، «فارحموهم ترحموا أنفسكم، واعدلوا فيهم تدفعوا عنكم يومًا أسود لا تعلمون إذا حل عم ينجلي سواده، وقوا مصر إن كنتم تحبون مصر، جائحة مهلكة وداهية مكفهرة، أولها الشيوعية وآخرها ما لا يعلمه إلا الله»[1]. ولم تمر بضع سنوات حتى تحقق الإنذار الذي نشره الطنطاوي سنة ١٩٤٧م وقامت الثورة في مصر، وحدث ما حدث للإقطاعيين، وأضير معظم الأغنياء في مصر بقانون التأميم.

وكان يحاول في كل مناسبة من مناسبات الحديث عن الإقطاع والتكافل الاجتماعي أن يظهر أن مرده إلى هذه الدعوة أنه مسلم، وأن منطلقاته شرعية، وأن يعلن براءاته من الشيوعية التي حملت لواء الطبقات الكادحة في تلك الفترة» ولسنا والله شيوعيين ولا اشتراكيين ولا يرانا الله ندعو إلى هذه اللعنة (الحمراء) ولا نؤلب الناس بعضهم على بعض، ولكن ندعو إلى الشعور الذي لا يكون الإنسان إلا به إنسانًا، والإحسان هو شعبة من شعب دين الإسلام»[2].



(١) المرجع السابق، ص ٦٠، مقال (إنذار).

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص ١١٩.

القضايا الدينية

تُعدُّ أهم سمات الفكر الديني عند الطنطاوي أنه اتبع منهج الوسطية والاعتدال، والبعد عن الغلو والتطرف، حيث اتسم خطابه الديني بالموضوعية والسهولة والمعاصرة. فقد عرف الكتابة الدينية في مرحلة مبكرة منذ نشر (رسائل الإصلاح) و(الهيثميات). وقد تنوعت أغراض هذا النوع من كتاباته باتساع ثقافته الدينية وتنوّعها، حيث عالج موضوعات عقائدية، وفقهية، وقضايا إسلامية، ومراجعات فكرية... وغيرها.

تجديد الخطاب الديني

لا يعني تجديد الخطاب الديني في نظر المنادين به «اختراع إضافة لدين الله، وإنما يعني تطهير الدين الإلهي من الغبار الذي تراكم عليه، وتقديمه في صورته الأصلية»[١]. وكان الطنطاوي من أولئك الداعين إلى هذه الفكرة منذ ثلاثينيات القرن الماضي؛ ففي سنة ١٩٣٩م نشر في مجلة (الرسالة) مقالاً تحت عنوان (كتاب في الدين الإسلامي) طالب فيه المؤلفين الإسلاميين بأن يؤلفوا

(١) تجديد الدين: مدخل لتصحيح مسار الفقه والتصوف وعلم الكلام والتعليم الإسلامي، وحيد الدين خان، ص٩ ترجمة ظفر الإسلام خان، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

كتابًا واحدًا يُلخص فيه الإسلام كله تلخيصًا وافيًا، ويُعرَضُ عرضًا واضحًا، يقرؤه الشاب، فيفهم فيه الدين كله كفهم الوافدين على النبي ﷺ الدين، حين دخلوا فيه أفواجًا[1].

ولكن دعوته لم تجد أذنًا مصغية، فكررها مرة بعد مرة حتى مل من تكرارها، فكتب ينفث ما في صدره من غيظ في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٥م قائلًا: «لن أعود إلى حديث كتاب الدين الإسلامي الذي طالما تكلمت فيه في الرسالة وأفضت، وبدأت وأعدت، فكنت كنافخ في غير ضرم، وصارخ في واد. وإن الصارخ في الوادي ليسمع رجع الصوت، ونافخ الرماد ينثر الغبار، ومقالاتي لم تحرك من هؤلاء (العلماء...) ساكنًا، ولم ترجع لها الأيام صدى مع أن المقبرة... ترد الصدى على من يصرخ بين القبور!»[2].

وهكذا تنبه الطنطاوي مبكرًا إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري، فكتب في هذا الشأن عددًا من المقالات والرسائل، وقد ذكر غير مرة أن كتابه (تعريف عام بدين الإسلام)؛ «بحث جديد في العقائد بأسلوب جديد، ما سبقه أحد إليه»[3].

وهذا الكتاب كان في أصله - كما يذكر في نفس السياق- مقالًا

---

(١) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص١١٣، مقال (كتاب في الدين الإسلامي).

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٤، مقال (تعميم الثقافة الإسلامية).

(٣) فتاوى، علي الطنطاوي، ج١، ٦٢. وأيضًا انظر: تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص١٠.

كتبه تحت نفس العنوان، ثم تنامى بعد ذلك، وتعددت الفصول في نفس الموضوع فخرج هذا الكتاب؛ وذلك بعد أن يئس من دعوة الكتاب الإسلاميين أن يؤلفوا كتابًا مبسطًا عن الإسلام وعقائده.

يقول: «قلت مرة لتلاميذي: لو جاءكم رجل أجنبي، فقال لكم: إن لديه ساعة من الزمن، يريد أن يفهم فيها ما الإسلام، فكيف تفهمونه الإسلام في ساعة؟ قالوا: هذا مستحيل، ولا بد له أن يدرس التوحيد والتجويد، والتفسير والحديث، والفقه والأصول، ويدخل في مشكلات ومسائل، لا يخرج منها في خمس سنين»[1].

من هنا حمل الطنطاوي على عاتقه الدعوة إلى تيسير مفاهيم الإسلام؛ فيقول: «كنت أول من جمع في دمشق بين أسلوبي الدراسة، وكان العلماء يومئذ بين (شيخ) لا يعرف من علوم الدنيا شيئًا، وبين (أفندي) لا يفقه من علوم الدين شيئًا، إلا شيئًا قليلًا لا يغني ولا يجزي. فتنبهت مبكرًا إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري، وكتبت في ذلك مقالات، ونشرت رسائل»[2]. وقد بدأ كتابة هذه المقالات وهذه الرسائل مبكرًا، وهي تلك الرسائل التي أسماها (في سبيل الإصلاح)، (والهيثميات).

وهو في جميع هذه الرسائل الأولى كان يدعو إلى ضرورة إعادة النظر في تجديد الخطاب الديني الإسلامي، وفق متطلبات

(١) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨.

العصر، ومعطيات الحضارة الحديثة، دون التنازل عن أصوله؛ في الوقت الذي يعاني منه هذا الخطاب بتحمل كثير من المفردات المخالفة للإسلام وتعاليمه؛ فيقول: «أنا لا أدعو العلماء إلا لإثبات أن لا تنافي بين الدين والعلم، وبيان أن الدين الإسلامي دين العقل والمنطق»[1].

وفي طريقة عرض الإسلام وعلوم الدين كانت للطنطاوي نظرة ناقدة، مؤكدًا على ضرورة فتح باب الاجتهاد، وعدم الاكتفاء بما قدمه السلف من جهود في فهم نصوص الدين وتفسيرها، وهو في ذلك يتفق مع المصلحين في العصر الحديث من سابقيه مثل الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا، أو مع من عاصرهم مثل خاله محب الدين الخطيب؛ فيقول لأصحاب التفكير الديني التقليدي: «إنكم مخطئون حين تدعون أن هذه الكتب القديمة في الفقه والأصول، والتوحيد والفرائض، غاية الغايات في الإبداع، وأنها تصلح للبقاء كما هي حتى قيام الساعة، وأن المفسرين إذا لم يذكروا شيئًا لا يمكن أن يكون، وإن أجمعوا عليه لا يمكن أن لا يكون، وإن اجتهاد الإمام الفلاني، لا يعتريه الخطأ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد»[2].

وهو يرجع المشكلة في فهم الإسلام إلى عدم أهلية معظم

---

(١) رسائل في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، رسالة (سير الحركة الفكرية في الشام)، ص١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩.

الدعاة لتعليم الدين علمًا وبيانًا؛ فقد «فسد العلماء ففسد الناس، فمن أين يرتجى الصلاح»[1].

أما من ناحية كفاءتهم العلمية؛ فإن منهم «من لا يحسن شيئًا إلا إقراء الكتب التي كان قرأها على مشايخه من قبل، وشرحها كما شرحت له، فإذا خرجت به عن الحواشي والشروح، عاد عاميًا لا يكاد يصلح لشيء»[2].

وأما من ناحية قدراتهم البيانية فإن أكثرهم في نظره ليس من أهل البيان، «ومن ابتعد عن الأدب ولم يتمرس بأساليب البلغاء، لم يأت منه بخير لأن علمه يقتصر عليه، فلا يقدر على بثه بقلم ولا لسان»[3].

والأمر عند علي الطنطاوي لا يرتبط بشكل الخطاب والدعاة فقط بل بالمخاطبين أيضًا؛ «ذلك أن الناس قد بعدوا عن مفهوم الإسلام الحق، وصاروا يبالون بالظواهر أكثر مما يبالون بالجواهر»[4].

وفي باب طريقة عرض علوم الإسلام يعجب الطنطاوي من

---

(١) سيد رجال التاريخ محمد، علي الطنطاوي، ص٣٧ جمع وترتيب مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص١١٥، مقال (كتاب في الدين الإسلامي).

(٣) المرجع السابق ص١١٥.

(٤) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ج٢، ص١١٤، مقال (الإيمان أهم من الجدران).

إهمال (علم التوحيد) الحقيقي؛ فإن الذي يسمونه (علم التوحيد) هو أبعد ما يكون عن التوحيد، وفي ذلك يقول: «والذي يقرأ اليوم على أنه توحيد، مما اشتملت عليه العقيدة النسفية وأمثالها، ولا أستثني من ذلك رسالة الشيخ (محمد عبده) لا يكاد يقوي عقيدة، ولا يثبت إيمانًا، ولا يبعث في النفس خشية الله، ودوام مراقبته، ولا يدفع إلى إخلاص في عبادة، ولا يذيق صاحبه حلاوة الإيمان»[1].

وهو يعجب من أن هذه الكتب تقوم فتعرف الناس بشبهات قوم انقرضوا، وتلقنهم ردودًا على مشكلات ليست في أذهانهم، ولا في محيط اهتماماتهم[2]، وهو يعني بذلك المشكلات الفلسفية القديمة التي ثارت في عهد الفرق الكلامية كالمعتزلة والجبرية والمجسمة... وغيرها، وما طرحته هذه الفرق من مسائل جدلية، كمشكلة الأسماء والصفات، وخلق القرآن، والإعجاز بالصرفة، والجبر والاختيار، وغيرها.

وفي معرض توضيحه لأثر الفكر الاعتزالي في فساد كتب التوحيد يحمل أبا الحسن الأشعري مسئولية هذا الفساد؛ فيقول: «واتفق أن إمامًا من أئمتهم، ولسانًا من ألسنهم، ترك الاعتزال ورجع إلى الجماعة، ولكنه حمل معه تفكيره وأسلوبه وطريقته، وهو أبو الحسن الأشعري، فلم تتحول هذه الطريقة حتى تصير سلفية قرآنية ولكن تحولت طريقة السلف به فصارت منطقية عقلية،

---

(١) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص١٦٧، مقال (علم التوحيد).

(٢) انظر: المرجع السابق ص ١٦٧.

واختفى بذلك التوحيد الذي كان مصدره ومرده إلى آيات القرآن لا يعرف غيرها، ولا يعتمد إلا عليها»[١].

ثم نراه يدعو في هذه المسائل وأشباهها إلى اقتفاء أثر السلف (ويعني بهم الصحابة والتابعين) في عدم الخوض في هذه المباحث أصلًا، كمشكلات الجبر والاختيار والأسماء والصفات، حيث آمنوا بما جاء من عند الله على مراد الله، وأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه عن رجلٍ أنه تتبع هذه الآيات المتشابهات دعا به فعزره، وأن الإمام مالكًا لما سئل عن الاستواء قال في جوابه المعروف: إن السؤال عنه بدعة[٢].

وتطرق الطنطاوي في بعض مقالاته أيضًا إلى مسألة خطبة الجمعة باعتبارها واحدة من أهم وسائل الدعوة الإسلامية، وقد ذكر أن سبب عدم تأثيرها يعود إلى بعض العيوب، وقد ذكر بعضًا من هذه العيوب، ومنها طول الخطبة، وعدم وحدة الموضوع واستيفائه، والانتقال من موضوع إلى موضوع، وأنها صارت (كليشهات) ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل. ومن عيوبها أيضًا التكلف، وخير الإلقاء ما كان طبيعيًا لا تكلف فيه. ومن عيبها الإتيان بالأحكام غير الدقيقة، وغير المُسلَّمة عند أهل العلم، وأن السامعين عليهم أن يفهموا أن

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٩.

(٢) انظر: مجلة المسلمون، العددان ٤-٥، المجلد الخامس ص٤٨٨، مقال (تعقيب الأستاذ علي الطنطاوي).

الخطبة ليست للبركة فقط بل للاتعاظ والعمل[1].

وإذ ظهرت مؤخرًا كثيرٌ من الكتابات التي تطالب بضرورة مراجعة الخطاب الديني وفق المستجدات، مع توضيح أن تجديد الخطاب الديني لا يعني التنازل عن المبادئ الإسلامية لإرضاء غيره؛ فقد حاول بعض المفكرين الإسلاميين وضع نظرية للخطاب الديني وما ينبغي أن يكون عليه، ووضع حدود هذا الخطاب ومعاييره وتوضيح خصائصه، مثل الدكتور يوسف القرضاوي الذي أشار إلى أن علي الطنطاوي كان من بين أولئك الكتاب الإسلاميين الذين التزموا بمنهج الاعتدال والوسطية والبعد عن التطرف في كتاباتهم الدينية[2].

التوحيد والإلحاد[3]

يرى محمد قطب أن الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق أو أن المادة أزلية أبدية؛ بدعة جديدة في الضلالة، لم توجد من قبل في تاريخ الجاهليات السابقة، وأنها

(١) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص١٢٣-١٢٨، مقال (خطب الجمعة).

(٢) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، د. يوسف القرضاوي، ص١٩٦، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٤م.

(٣) الإلحاد: مذهب من ينكرون الألوهية، والملحد غير مؤله، وهذا معنى شائع في تاريخ الفكر الإنساني، ويتضمن رفض أدلة المفكرين على وجود الله. المعجم الفلسفي، ص٢٠، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

لم توجد من قبل في تاريخ العرب أو غيرهم، وأن الإشارة إلى أولئك الدهريين في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1]، لا تعطي الدلالة القاطعة على أن هؤلاء المشار إليهم في الآية ينكرون وجود الله، بل الإشارة القاطعة فيها تدل على أنهم كانوا ينكرون البعث[2].

وقد سبق الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود إلى هذا الرأي؛ حين أكد أن هناك خلطًا شديدًا بين مسألة التوحيد وإثبات وجود الله؛ وأن الجدل حول إثبات وجود الله نزعة غاية في الخطورة؛ فالقرآن لم يتحدث عن إثبات وجود الله: «إن الله في العرف الإسلامي وفي أعراف أصحاب الفطر السليمة موجود ووجوده لا يتمارى فيه اثنان، ومع ذلك فإن الوضع الحالي في الأجواء الشرقية والغربية قد ألف نزعة ترى أن إثبات وجود الله مسألة تحتاج إلى برهان، وهذا الإلف وهذه النزعة الناشئة عن التعود في حاجة ماسة إلى بيان الوضع الصحيح في هذا الموضع الخطير»[3].

وعلى الرغم من ذلك فإن فكرة الإلحاد قد بدأت تقوى مع

---

(١) سورة الجاثية:٢٤.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص ٦٠٥، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

(٣) الإسلام والعقل، الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، ص٨٦، دار المعارف، القاهرة، ط٤.

بدايات القرن العشرين، وذلك بعد الانفتاح على الفكر الغربي مع فترة الاستعمار وثقافاته المختلفة إلى الوطن العربي، وربما يكون هذا السبب هو سبب دخول مسألة إثبات وجود الله بين مسائل التوحيد المختلفة.

أما الطنطاوي فقد تعامل مع الفكرة السائدة أن الإلحاد هو نقيض التوحيد؛ إذ يرى أن «الإيمان بالله يتضمن أربع قضايا، هي: أن الله موجود بلا موجد، وأنه رب العالمين، وأنه مالك الكون المتصرف فيه، وأنه الإله المعبود وحده، لا يعبد معه غيره»[1]، ولذا كانت لعلي الطنطاوي جهوده في هذا الباب.

ولما ظهرت فكرة الإلحاد في بعض الأوساط الثقافية العالم العربي[2]، كان لها من الأنصار مَن دافع عنها دفاعًا شديدًا، حتى وصلت الجرأة بأحدهم - وهو الدكتور إسماعيل أدهم- أن ينشر بحثًا في أغسطس ١٩٣٨م، ويسميه (لماذا أنا ملحد؟) [3]؛ يشرح فيه موقفه من التدين ورفضه لفكرة الإيمان بالله، واعتقاده بمبدأ الصدفة والاحتمال في خلق الكون، مدعيًا أن الأسباب التي دفعته إلى ذلك كانت أسبابًا علمية وفلسفية.

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص ٥٥.

(٢) انظر: موقع اللادينيين العرب على الإنترنت www.ladeeni.net .

(٣) انظر: المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم، تقديم وتحرير الدكتور أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ج٣ (قضايا ومناقشات)، ص٨٠-٩١.

وقد وقف عدد من الكُتاب الإسلاميين بالمرصاد لهذه الظاهرة[١]، وكان علي الطنطاوي واحدًا من أولئك الذين بيَّنوا وفندوا آراء الملحدين؛ ففي سنة ١٣٤٨هـ كتب الطنطاوي مقالًا عن فكرة الإله وضرورة التدين؛ فقال: «إذا كان هناك فكرة تصح حتى ما يشوبها شك وتعم حتى لا يتجرد عنها إنسان فهي فكرة الإله...»[٢]، وفي مقاله تحدث الطنطاوي عن آراء علماء كبار من أمثال: باستور ونيوتن وباسكال ومالبرانش وهارفي وهوكسلي، وذكر شهاداتهم بأن الدين والعلم ليسا متنافيين، كما حاول الرد على نظرية الصدفة والاحتمال في نشأة الكون والحياة ردًا منطقيًا؛ حين قال: «إذا وضعنا في كيس أربع كرات بيض وواحدة حمراء، وسحبنا واحدة منها، كان احتمال خروج الحمراء واحدًا من خمسة، وإذا وضعنا تسعًا بيضًا وواحدة حمراء، كان واحدًا من عشرة، فلو وضعنا ما لا نهاية له (¥) من البيض كان الاحتمال واحدًا من لا نهاية، ولا يقول عاقل إن الحمراء تخرج حتمًا من السحب مرة أو مرتين أو مئة مرة.

وهذه الكواكب التي لا نهاية لها، ليس لها إلا حالة واحدة،

---

(١) انظر: مقال (لماذا هو ملحد؟)، الأستاذ محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، المجلد السابع، رجب ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م. وأيضًا مقال (عرض: لبحث الفيلسوف ساباتييه «لماذا أنا متدين؟»)، الأستاذ محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، المجلد الرابع، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م. وقد أورد الدكتور الهواري ص ٩٢-١١٨ من الأعمال الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم البحث الأول (لماذا هو ملحد؟)، الذي يرد فيه كاتبه على الدكتور أدهم.

(٢) رسائل في سبيل الإصلاح (١) في الإصلاح الديني، علي الطنطاوي، ص ٨.

تجعلها تسير بهذا النظام، ويمتنع بينها الصدام، فكيف نقول: إن هذه الحالة حصلت بالمصادفة من غير مسيّر حكيم عليم؟»[١].

وهذا الرد قريبٌ مما قام به الأستاذ محمد فريد وجدي في رده على الدكتور إسماعيل أدهم[٢].

كما أكد في موضع آخر: «أن الاعتقاد بوجود الله من الأمور البديهية التي تدرك بـ (الحدس) النفسي قبل أن تقبل بالدليل العقلي، فهي لا تحتاج إلى دليل، وإن كانت الأدلة على صحتها ماثلة في كل شيء»[٣].

المناسبات الدينية

كانت السمة الغالبة في تناول الطنطاوي المناسبات الدينية أن يأخذ من المناسبة مدخلًا للحديث عن قضايا معاصرة؛ فلا يكتفي بمجرد التأريخ وإعادة قراءته على أذهان الناس.

فبعد أن يذكر في مقاله «المولد النبوي» شرف ميلاده ﷺ وأثر هذا الميلاد في الأمة والعالم، يتحدث عن آثار تفريطنا في منهجه الذي بُعث من أجله، وحالنا التي تغيرت، حتى صارت الأمة على

(١) رسائل في سبيل الإصلاح (١) في الإصلاح الديني، علي الطنطاوي، ص ١١-٢٥.

(٢) انظر: لماذا هو ملحد؟، الأستاذ محمد فريد وجدي، مجلة الأزهر، المجلد السابع، رجب ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

(٣) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٥٥.

ما هي عليه من الذل والهوان. ثم يدعو الناس أن يأخذوا من هذه الذكرى دفعة إلى تصحيح أوضاعها الخاطئة، والعودة إلى منهجه القويم؛ يقول: «لقد كان مولد محمد ﷺ فتحًا مبينًا في تاريخ العالم وشمسًا ساطعة بددت دياجير الظلمات، وأزاحت دياجي الجهل، فلتكن ذكراه بعد ألف وأربعمائة سنة، فتحًا في تاريخنا، وعنوان صحيفة جديدة نضمها إلى سِفر عزنا، ونخط سطورها بإخلاص وعزم وثبات[1].

وفي مناسبة الهجرة تتعدد كتابات الطنطاوي[2] وتتنوع مادة وأسلوبًا، فمرات يكتفي بمجرد التذكير التاريخي بالحادثة؛ مثل: مقال (من صور الهجرة)، ومقال (يوم الهجرة)، ومرة يربط بينها وبين كل فكرة للإصلاح؛ كما في مقال (حقيقة الهجرة) فليست الهجرة -في نظر الطنطاوي- سفرًا من بلد إلى بلد، «ولكنها درس خالد لكل مصلح، وكل داعية، وكل صاحب مبدأ يصدر عنه، وغاية يسعى إليها؛ درس في التضحية بأوسع معانيها؛ التضحية بالوطن والآل والمصالح واللذائذ في سبيل الله»[3].

وفي مقال (معجزة الهجرة) يربط بين الحادثة والحضارة الحديثة التي تعم العالم وأثر دولة الإسلام ورسالته فيها؛ فيقول:

(١) رسائل سيف الإسلام، علي الطنطاوي، الرسالة الرابعة، (ذكرى المولد الشريف)، مطبعة الفيحاء بدمشق، ١٣٤٩هـ.
(٢) انظر: سيد رجال التاريخ محمد، علي الطنطاوي، ص ١٠٣(فهرس).
(٣) المرجع السابق، ص ٧٩-٨٠، مقال (حقيقة الهجرة).

«إنه لولا الهجرة لم تكن المدينة، ولولا المدينة لم تكن دمشق، ولولا دمشق لم تكن بغداد ولا قرطبة، ولولا قرطبة وطليطلة ما كانت باريس ولا لندن ولا نيو يورك، فلو أنصف هؤلاء المتمدنون لجاءوا يحتفلون معنا بذكرى الهجرة: هجرة من نصر الشعوب المظلومة... هجرة من نشر في الدنيا الحرية والعدل والمساواة... هجرة من نقل العالم من الظلام إلى النور»[1]. ويستمر في حديثه داعيًا إلى أخذ هذا اليوم، يوم الهجرة، منطلقًا إلى عهد جديد كما كان هذا اليوم فاتحة عهد جديد في تاريخ البشرية.

وربما كانت للطنطاوي مقالات تقليدية لا يتجاوز فيها عملية التأريخ للمناسبة وربطها بقضية الإيمان مثل بعض مقالاته في مناسبة الإسراء والمعراج؛ كمقال (من الصحراء إلى السماء) [2].

أما كتاباته عن الحج فتُعدُّ أكثر مقالات المناسبات الدينية، حيث تعدت العشرات جمع بعضها في كتاب (من نفحات الحرم) وبعضها الآخر ورد في ذكرياته، وتعود كثرة الكتابة في مناسبة الحج وتعدد المقالات عند الكاتب إلى سببين رئيسين؛ أولهما؛ أنه كان ضمن أعضاء الرحلة التي تقرر أن تكتشف أول طريق للحج بالسيارات من الشام للمدينة المنورة، وكان لهذه الرحلة صدى كبير آنذاك، ثم تحولت هذه الرحلة إلى ذكريات اعتز بها الكاتب فيما بعد.

---

(١) المرجع السابق، ١٠٢، مقال (معجزة الهجرة).

(٢) المرجع السابق، ص٣٩، مقال (من الصحراء إلى السماء).

لقد كتب كثيرًا عن هذه الرحلة، وعنها يقول: «ذقنا في هذه الرحلة العذاب ألوانًا، ورأينا الموت عيانًا أحيانًا، أمضينا فيها شهرين في نصب وتعب، في خوف وحذر، ولكني خرجت منها بذخيرة من الذكر والعبر، ومن الأخبار والطرائف، لا أزال أتحدث عنها ما نفد ما عندي منها»[١].

ويقول: «قررت حين دعيت إلى تلك الرحلة وعزمت عليها أن أدوِّنها وألا أكتفي على عادتي بما تحمل ذاكرتي فاتخذت دفترًا، كنت أتأبطه دائمًا فلا نسلك طريقًا، ولا نقطع واديًا، ولا نبصر جبلًا، إلا كتبت اسمه وصفته وطبيعة أرضه، ولا نلقى قومًا أو نحل أرضهم إلا سألت عن أنسابهم وأحوالهم، ووصفت لهم مساكنهم، وما عرفت من عاداتهم، وحكيت ما سمعت من لغاتهم ولهجاتهم، ولا بتنا ليلة إلا ذكرت كيف حططنا الأحمال، وكيف نهضنا الغداة للارتحال، ولا أرى منظرًا أو أشهد مشهدًا إلا سجلت في دفتري أثره في نفسي، وما بعث فيها من ذكرى وما أهاج فيها من عاطفة»[٢].

وهو يصف هذه الرحلة الكشفية التي استغرقت شهرين كاملين وأهدافها، والتي قطع فيها مع رفاقه خمسة آلاف كيلومتر في الصحراء؛ قائلًا: «ولم تكن هذه الرحلة للتسلية، ولا للنظر في عجائب المخلوقات وغرائب البلدان، ولا للكسب والتجارة، ولا

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص٥٤، مقال (رحلة الحجاز: الخروج من دمشق).

(٢) المرجع السابق، ج٣ ص ٥٤.

لشيء مما يرحل أفراد الناس من أجله عادة، بل كانت لمصلحة عامة، وغاية اجتماعية، تعود على بلاد الشام وأرض الحجاز بالخيرات الجمة والفوائد الكثيرة، هي فتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة، يسهل على الناس أمر الحج ويرغبهم في أدائه ويوفر عليهم صحتهم ومالهم»[1].

أما السبب الثاني لكثرة مقالات الحج عنده؛ فهو مجاورته فترة طويلة من الزمن للبيت الحرام، بعد ترك الشام واستقر به المقام في الحجاز.

وفي رحلة الحج الاستكشافية التي جمعت في كتاب (من نفحات الحرم) يضرب يمينًا وشمالًا، ممارسًا هوايته في الاستطراد المحبب فيتحدث عن الخط الحجازي الحديدي الذي دمره العرب والمسلمون بأيديهم، وعن التاريخ والجغرافيا، وعن الأدب، ويتطرق لعمر بن أبي ربيعة، وشعره، وكل ما عنّ له في هذه الرحلة وذكّره به موضع من المواضع التي يمر عليها.

أما في مناسبة الصيام فإنه يتحدث عن بعض الانحرافات في معاني العبادة؛ فيذكر أن هناك صورتين لرمضان، أحدهما مزعج ثقيل؛ ذلك الذي جاء يحمل الجوع والعطش، وهو يجيد في وصف صورة هذا الـ(رمضان) بأنك «ترى الطعام أمامك، يدك تصل إليه ونفسك تشتهيه، ولكنك لا تستطيع أن تأكله، ويلهب الظمأ جوفك،

(١) من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، ص ٧٦، مقال (إلى أرض النبوة).

والماء بين يديك، ولكنك لا تقدر أن تشربه، وتكون في أمتع نومه، فيأتي رمضان فيوقظك لتأكل من جوف الليل وأنت تؤثر لحظة منام على كل ما في الدنيا من طعام، وإن كنت صاحب دخان منعك من دخينتك (سيكارتك)، أو نرجيلتك، فهو شهر مشقة وتعب، وجوع وعطش»[1].

أما الصورة الثانية فهي صورة رمضان الحلو الجميل الذي يقوم الناس فيه في هدءات الأسحار وسكنات الليل، حين يرق الأفق، وتزهو النجوم ويصفو الكون، ويتجلى الله على الوجود، يعرض كنوز فضله على الناس، ويفتح لهم باب رحمته، يقول جل وعلا: «ألا من مستغفر فأغفر له، ألا من سائل فأعطيه»[2]، ثم يستمر في شرح صورة رمضان المثالية التي فرض الله رمضان من أجلها.

وهو في الصورة الأولى يعرّض بمن آل رمضان في نفوسهم إلى شهر كدر بعد أن غابت روحانيته وحكمته من النفوس، وقد كانت هذه المقالة سنة ١٩٥٩م، أما الآن فقد تنوعت وتطورت وسائل اللهو، فجعلت من شهر رمضان موسمًا للهو والطرب، فاتسعت حدة الفجوة بين الصورتين. والطنطاوي في ذلك الزمن يخصص مقالًا مستقلًا للصورة الأولى هو مقاله (مزعجات رمضان) يبكي فيه على غياب رمضان الذي كان يعرفه منذ كان طفلًا، فيقول: «وأنا أعرف رمضان الذي كان يجيء دمشق من أكثر من أربعين

(١) مع الناس، علي الطنطاوي، ص ٤٢، مقال (رمضان).

(٢) المرجع السابق، ٤٢-٤٣.

سنة، ولا أزال أذكر ملامح وجهه، ولون ثيابه، والذي افتقدته من زمن بعيد، فلم أعد أراه»[1].

وكان في تلك الأثناء يناشد الحكومات باسم جماعة العلماء وباسم جمهرة الناس، «أن تحافظ على مظهر الصيام، وأن تمنع المجاهرة بالفطر، وألا تسمح لمطعم بأن ينصب الموائد مكشوفة على قارعة الطرق، ولا لموظف أن يشرب القهوة أو (السيكارة) علنًا أمام المارين...الخ»[2].

المراجعات

١- العقيدة بين العقل والعاطفة:

تعرض الطنطاوي في بعض المقالات التي كتبها لعدد من القضايا التي تحدث فيها غيره من الكتاب، فكانت مقالاته بمنزلة المراجعات لأفكار هؤلاء الكُتاب، قام الطنطاوي من خلالها بالإضافة والتحليل والنقد حسب ما يقتضيه الحال.

فعلى سبيل المثال؛ كانت مسألة (العقيدة بين العقل والعاطفة) عنوان مناظرة فكرية بين كل من سيد قطب وعبد المنعم خلاف على صفحات الرسالة، لخص سيد قطب الخلاف بينه وبين الأستاذ خلاف في كلمات، وهي: هل من الممكن أن نعهد إلى الذهن وحده بأمر العقيدة، وأن نقيم هذا البناء الضخم في الضمير الإنساني،

(١) المرجع السابق، ص٤٨، مقال (مزعجات رمضان).

(٢) مقالات في كلمات، ج٢، ص ٣٩-٤٠، مقال (احترموا عقيدتنا وديننا).

على أساس القوة الذهنية، ومنطقها المعهود. وأجاب سيد قطب على ذلك السؤال بالنفي، بينما أجاب خلاف بالإثبات[١].

وقد أخذ الطنطاوي في هذه المناظرة جانب سيد قطب، إلا أنه أراد أن يكتب مقاله لتوضيح معنى العقل والذهن ومعنى العاطفة، «إذ ربما اختلف اثنان، وما اختلافهما في الحقيقة إلا على معاني الألفاظ، فكلٌّ يريد بها شيئًا، وليس بينهما لفظ جامع يرجعان إليه، ويستقران من بعد عليه»[٢].

وعلى الرغم من تسليمه بأنه لا يمكن وضع تعريف جامع مانع لهذه الألفاظ، يرى أن سيد قطب لم يوضح مفهومه عن الذهن، في حين أن الطنطاوي «يطلق العقل، ويريد القضايا العقلية المسلمة بها، كاستحالة اجتماع النقيضين»، ومن هنا نقول مثلًا: إن ديننا الإسلامي لا يناقض العقل ولا يخالفه، أما الذهن فيقصد به الطنطاوي العقل الفردي، مؤكدًا أنه ليس كل ما في ذهن الإنسان يجب أن يكون صادقًا أو صحيحًا [٣].

ويرجع الطنطاوي إلى أن علم النفس أقام عملية التفريق بين العقل والعاطفة بأن الحياة العاطفية أو الانفعالية هي الحياة القائمة على اللذة والألم، والحياة العقلية هي الحياة المبنية على

---

(١) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص٢٧، مقال (على هامش المناظرة بين قطب وخلاف).

(٢) المرجع السابق ص٢٨.

(٣) انظر: المرجع السابق ص٢٩.

المحاكمة، ويخلص الطنطاوي من ذلك قائلًا: «وإذا نحن فرقنا بين العاطفة والعقل بهذا الاعتبار، وجعلنا كل حادثة نفسية تقوم على اللذة والألم من العاطفة، وكل حادثة تعتمد على المحاكمة من العقل، وجدنا أعمال الإنسان كلها تقوم على عواطف، ووجدنا العقل، أعني المحاكمة المنطقية الواضحة لا الخفية أضعف الملكات الإنسانية وأحقرها وأقلها خطرًا في نفسها، وأثرًا في حياة صاحبها»[1].

ويذهب الطنطاوي في هذا المقال إلى القول بأن الإيمان محله القلب؛ لأنه أكبر من أن تتسع له هذه (المحاكمة) وأعلى من أن ينضوي تحتها، هذا العقل إنما يعتمد على الحواس، وحكمه مستمد من مجموع المحسات، فإذا جاوزها إلى ما وراء المادة لم يكن له حكم. ويخلص الطنطاوي في نهاية مقاله إلى أن جميع العلماء من المتكلمين الذين رأوا من قبل نفس الرأي الذي سار عليه الأستاذ خلاف، والذين حاولوا أن يجعلوا الإيمان إيمان عقل، عادوا كلهم وأنابوا، واعترفوا بأن الإيمان بالقلب، كابن رشد والآمدي والغزالي والفخر الرازي[2].

٢- علم التوحيد وكتاب المودودي:

يعجب الطنطاوي من أن ما امتلأت به كتب التوحيد هو أبعد

(١) المرجع السابق، ص٢٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٠-٣٢.

ما يكون عن التوحيد؛ كما يرى أن السبب في ذلك يعود إلى الفلسفة اليونانية التي دخلت على الثقافة الإسلامية في القرن الثاني الهجري، والتي يصفها بأنها «فلسفة ابتدائية، لا سيما في عالم الإلهيات، وترجمت ترجمة سيئة، وفهمت فهمًا أسوأ، فجاءت معها الشرور»[1].

وإذا كان الطنطاوي يطالب ويبحث عن كتاب في التوحيد يقربه من الناس، ولا يدخلهم في متاهات الفلاسفة والمتكلمين، فإنه قد رأى في كتاب (المصطلحات الأربعة) لأبي الأعلى المودودي: التعبير الصحيح، والصورة الواضحة؛ فأثنى عليه بقوله: «هذا الذي كنا نحوم حوله، ولا نعرف المدخل إليه، والمودودي في رأيه، يتميز بعلم واسع، وعقيدة صحيحة، وذهن نفاذ، ومقدرة على الترتيب والعرض، لكنه لا يخلو في هذا الباب من مواضع النقد»[2].

وقد قصد المودودي بالمصطلحات الأربعة: (الإله والرب والدين والعبادة)، حيث يرى أن فهم هذه المصطلحات الأربعة وفق استخدامها اللغوي المعجمي والشرعي في القرآن والسنة هو المدخل الحقيقي لفهم قضية التوحيد الخالص، ومن ثم أفرد لكل مصطلح منها فصلًا، شمل المعنى اللغوي للفظة والمعنى المستخدم في القرآن والسنة.

(١) المرجع السابق، ص١٨٨.
(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٩٣.

يقول المودودي: «هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه، والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن. فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد والرب الفرد الصمد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا يشاركه في ألوهيته ولا في ربوبيته أحد. فيجب على الإنسان أن يرضى به إلهًا وأن يتخذه دون سواه ربًا، ويكفر بألوهية غيره ويجحد ربوبية من سواه، وأن يعبده وحده ولا يعبد أحدًا غيره ويخلص دينه لله تعالى ويرفض كل دين غير دينه سبحانه»[١].

وعلى الرغم من إعجاب الطنطاوي بهذا الكتاب إجمالًا، فإنه أفرد له مقالًا ذكر فيه بعض القصور، ومما ذكره أن للمودودي اجتهادات يخالف فيها أئمة المذاهب الفقهية، وأن الحق ما قالوه لا ما قاله هو، إلا أن الطنطاوي في مقاله لم يذكر هذه الاجتهادات. كما يأخذ عليه في كثير من الحالات عدم توضيح وجوه الاختلاف بين الآيات في معاني الرب أو العبادة أو الدين، مع أنه يقر الاختلاف، ويسوق كل آية شاهدًا لمعنى من هذه المعاني، يكاد إذ يقصرها عليه يقسرها قسرًا لا قصرًا، حسب تعبير الطنطاوي[٢].

كما انتقد الطنطاوي تفسير المودودي لبعض الآيات القرآنية، ومن ذلك رأيه في إعادة الضمير في قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ

(١) المصطلحات الأربعة، أبو الأعلى المودودي، ص٣، لاهور، باكستان، بدون تاريخ.

(٢) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص١٩٣-١٩٤.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، حيث يرى الطنطاوي «أن موضوع الكلام هو عزيز مصر، وهو الماثل في الذهن، والضمير إليه والحديث عنه، ولا عبرة بالقرب اللفظي لاسم الله في قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن هذه الجملة طارئة، وقد اعترضت جزأي الكلام»[1].

علمًا بأن ما ذهب إليه المودودي في تفسيره للضمير هو ما ذهب إليه الزجاج حين قال: إن الضمير لله سبحانه: أي إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه[2].

٣- معركة الفقه الروماني:

دارت على صفحات الرسالة معركة حول الفقه الروماني وصلته بالفقه الإسلامي، تحدث فيه الأساتذة عبد القادر المغربي، وصالح ابن علي السنغافوري، ومحمد محسن البرازي، وأمين الخولي، وعلي الطنطاوي[3].

وإذا كان رأي الطنطاوي أنه لا صلة بعيدة أو قريبة للفقه الإسلامي بالفقه الروماني على النحو الذي ينحو إليه من قال بوجود هذه الصلة، فقد اندفع الأستاذ محمد محسن البرازي إلى لوم من ينفون هذه الصلة، ويصفهم بقلة المعرفة، وقال عن الطنطاوي: «إنه لم يتح له أن

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٥، ص٣٣٩٤.

(٣) وانظر: علي الطنطاوي في صحافة مصر، محمد رجب البيومي، مجلة الأدب الإسلامي، (عدد مزدوج خاص عن الشيخ علي الطنطاوي).

يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب في معهد الحقوق بدمشق، ولم يتأتَ له النظر في تاريخ الحقوق، ولم يقيض له بعد أن يعرف ما ظهر في العالم حول هذه البحوث، وختم حديثه بقوله: «أولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، وكره للثقافة الغربية ولأوروبا؛ لأن الحقيقة فوق الهوى»[1].

وقد رد الطنطاوي عليه بمقال قال في ختامه: «ونحن نكرر وصية الأستاذ الشاب لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية، ونزيد (أو تعصب عليهما) وكره لأوروبا والثقافة الغربية، ونزيد (أو قوة في عشقهما) فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق»[2].

٤- الروايات الدينية:

نشر الكاتب اللبناني الأستاذ كرم ملحم مقالًا يتحدث فيه عن آثار هوجو ولامارتين وفولتير وروسو، ذكر فيه أن الدين نفسه يقوم على الروايات، فما هو كتاب التوراة، وما هو الإنجيل، وما هو القرآن؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب؟، وقد رد عليه الطنطاوي بمقال جاء فيه: «إنها كلمة ندت من قلمه صغيرة، ولكن فيها طبيعة كطبيعة الديناميت لا يمس شيئًا إلا جعله يبابًا،

---

(١) مقال (حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني)، محمد محسن البرازي، مجلة الرسالة، العدد ١٠٨، ٢٨ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ/ ٢٩يوليه ١٩٣٥م.

(٢) مقال (حول الفقه الإسلامي)، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ١١٠، ٣ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ/ ١٢ سبتمبر ١٩٣٥م.

فإذا كان الكاتب يعني دين التوراة والإنجيل فلا ننازعه، ولا يكون لنا أن ننازعه فصاحب الدار أدرى بما فيها، وإذا كان يعني القرآن كأنه إحدى هذه الروايات، فهذا ما أسأله عنه؟»[1].

وقد سارع الكاتب اللبناني بتوضيح وجهة نظره، في مقال آخر جاء فيه: «أما أن نكون رمينا إلى الحط من منزلة الكتب المقدسة فذلك ما لا نفكر فيه، فنحن نحترم هذه الكتب، وكيف لا نحترمها والملايين من البشر تدين بتعاليمها، وتؤمن كل الإيمان بآياتها، وهي تطبع العقول على الخير، وتثقف النفوس، وتقودها إلى الطريق السوي، ولولا الدين لعم الإنسانية البلاء، وتفاقمت الشرور، وتعاظمت الويلات، وانغمس الناس في الرذيلة، وتاهوا كالأنعام»[2].

وهكذا كانت مقالة الطنطاوي دافعًا للكاتب اللبناني في أن يعود للكتابة موضحًا أن مقصده من مقاله كان غير ما فهم، وأن رؤيته الأدبية لا تمس معتقده بقيمة الأديان.

٥- معركته مع زكي مبارك:

كان الدكتور زكي مبارك شرسًا في معاركه، مما جعل له خصومًا كثيرين، فلم يرحمه من معاصريه غير الزيات الذي تلطف معه

---

(١) مقال (ماذا يعني؟)، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد٦٣، ٨جمادى الثانية ١٣٥٣هـ/١٧سبتمبر ١٩٣٤م.

(٢) مقال (لبيك، لبيك)، كرم ملحم كرم، مجلة الرسالة، العدد٦٧، ٦ رجب ١٣٥٣هـ/ ١٥أكتوبر١٩٣٤م.

وفتح له مجلة الرسالة يكتب فيها ما يشاء، ولذا فإن معاصريه لم يرحموه حيًا أو ميتًا، فطه حسين يقول عنه: «إنه الرجل الذي لا يخلو إلى قلمه إلا احتال على رأسه عفريت»، ويقول عنه العقاد: «إن موضوعه الوحيد هو زكي مبارك»، ويقول عنه محمود تيمور: «إنه كشكول حي مبعثر، بل مسرحية مختلطة فيها مشاهد شتى من مأساة وملهاة، أو لكأنه برج بابل، ملتقى النظائر والأضداد، ويقول عنه علي شلش: إنه الملاكم الأدبي[1].

وكان الدكتور زكي مبارك لا يمنع قلمه من الاستطراد إلى أمور تحتاج إلى تدقيق وفحص، وعلى الرغم من الصداقة التي كانت تجمع بين علي الطنطاوي والدكتور زكي مبارك؛ فإن الطنطاوي شنَّ عليه هجومًا على صفحات الرسالة قال فيه: «إنك يا دكتور تقول كل ما تقرءونه في الكتب التاريخية والدينية من وصف العرب في الجاهلية بالحمق والغفلة والطيش والخبال، كل أولئك الصفات الذميمة وضعت لغرض خاص هو تحقير الوثنية الجاهلية لتقوم على أنقاضها العقيدة الصحيحة، وكان من حق رجال الدين أن يضعوا في تشويه الوثنية الجاهلية ما يشاءون لأنهم كانوا يرونها زيغًا وضلالًا»[2].

لقد كان الطنطاوي يرى أن التاريخ علم يتحدث عن أخبار

(١) انظر: من مقعد الناقد، علي شلش، ص ١٢٧-١٢٨، دار المعارف، ١٩٨٥م، (سلسلة أقرأ).

(٢) مقال (إلى الدكتور زكي مبارك)، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٣٢٣، ٢٧ رجب ١٣٥٨هـ/ ١١ سبتمبر ١٩٣٩م.

الماضين، فإذا قال التاريخ ذلك، راوٍ عن راوٍ، وكتاب عن كتاب؛ فكيف نحكم عليه بالوضع دون دليل؟ ورد الدكتور الكتب الدينية؛ وهي: دواوين الحديث، ومجموعات التفسير، وتصنيفات الأئمة، وقد أصبحت حجة للمسلمين فيها يأخذون منه شريعتهم، يحتاج إلى دليل علمي لم يأت به الدكتور، ولا يستطيع[١].

ويعقب الدكتور محمد رجب البيومي على نقد الطنطاوي «أنه قد فاته أن يذكر أن القرآن الكريم نفسه قد وصف الجاهلية بالسفه وطيش الأحلام، فكيف يأتي الوضع من رجال التفسير والحديث وأئمة المسلمين؟!»[٢].

وقد انتهت هذه المعركة بانتصار الطنطاوي نصرًا واضحًا، حيث تهرب زكي مبارك من الرد على الطنطاوي إذ ذكر أن الأسئلة التي ساقها الطنطاوي، قد تعرض القرّاء لفتنة شديدة إن استباح الإجابة بلا توقف ولا رعاية للمأثور من الأفكار الدينية[٣].

والقول بتهرب زكي مبارك من الرد على الطنطاوي قول محتمل؛ لأن زكي مبارك لم تعرف عنه تفويت فرص الرد والهجوم – إذا استطاع- بهذه السهولة، فهو الذي أشعل معركة من جانب واحد

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) مقال (علي الطنطاوي في صحافة مصر)، محمد رجب البيومي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٣٤-٣٥.

(٣) مقال (جناية أحمد أمين على الأدب العربي)، زكي مبارك، مجلة الرسالة، العدد ٣٢٥، ١١شعبان ١٣٥٨هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٩م.

ضد أحمد أمين في اثنين وعشرين مقالًا، تحت عنوان: «جناية أحمد أمين على الأدب العربي». بالإضافة إلى ما اشتهر عنه من هجوم دائم بمناسبة وبدون مناسبة على من خالفه في الرأي من أمثال طه حسين وسلامه موسى... وغيرهم[1].

٦- معاوية ودولة بني أمية:

كان مما دار على صفحات الرسالة تلك المعركة التي كانت بين الأستاذ محمود شاكر من جانب وكل من سيد قطب ومحمد رجب البيومي من جانب آخر، وكانت قد بدأت بمقال حاد من الأستاذ محمود شاكر في مجلة المسلمون عنوانه (لا تسبوا أصحابي) [2] اتهم فيه سيد قطب بسوء الأدب عندما تحدث في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام عن بعض الصحابة كأبي سفيان بن حرب ومعاوية بن أبي سفيان وهند بنت عتبة. وتدخل البيومي بمقال أكثر حدة لينتقد شاكرًا مساندًا سيد قطب في رأيه بعدم أفضلية هؤلاء الصحابة[3]، تلاه رد من الأستاذ شاكر[4] ثم رد من البيومي[5] ثم اعتذار من شاكر إلى ما بدر

(١) انظر: من مقعد الناقد، علي شلش، ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) انظر: مقال (لا تسبوا أصحابي)، محمود محمد شاكر، مجلة المسلمون، العدد الثالث، ص٣٨، جمادى الأولى سنة ١٣٧١هـ.

(٣) انظر: مقال (بين شاكر وقطب: لا تسبوا أصحابي)، محمد رجب البيومي، مجلة الرسالة، العدد ٩٧٣، ٣٠جمادى الأولى ١٣٧١هـ/ ٢٥ فبراير ١٩٥٢م.

(٤) انظر: مقال (ذو العقل يشقى)، محمود محمد شاكر، مجلة الرسالة، العدد ٩٧٤، ٧جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/ ٣ مارس ١٩٥٢م.

(٥) انظر: مقال (أجل: ذو العقل يشقى)، محمد رجب البيومي، مجلة الرسالة، العدد ٩٧٥، ١٤جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/١٠ مارس ١٩٥٢م.

منه من ألفاظ سيئة في حق محمد رجب البيومي[1]، ثم في النهاية كان مقال من سيد قطب موجه إلى البيومي يسانده ويعضده[2].

وفي ذلك الحين اتجه الحوار حول بني أمية وقيمتهم، ولم يكن هذا الأمر هو القضية الأولية التي بدأها شاكر في مقال مجلة المسلمون، فكتب الطنطاوي مقالًا عنوانه (أنا مع سيد قطب)، ذكر فيه أنه يعلم منزلة الصحابة تمام العلم، وأن لبني أمية في نشر الإسلام، وفي فتح الفتوح فضلًا لا ينكره أحد.

إلا أن الطنطاوي استنكر أن تكون دولة بني أمية دولة إسلامية، «فقد هدم معاوية أكبر ركن في صرح الدولة الإسلامية، حين أبطل الانتخاب الصحيح، وجعله انتخابًا شكليًا مزيفًا، وترك الشورى، وعطل الكفايات، وسن هذه السنة السيئة، بل هذه الجناية التي جرت أكثر البلايا والطامات التي تملأ تاريخنا السياسي»[3].



(١) انظر: مقال (أعتذر إليك)، محمود محمد شاكر، مجلة الرسالة، العدد ٩٧٦، ٢١جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/١٧ مارس ١٩٥٢م.

(٢) انظر: مقال (إلى أخي الأستاذ رجب البيومي)، سيد قطب، مجلة الرسالة، العدد ٩٧٧، ٢٨جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/٢٤ مارس ١٩٥٢م.

(٣) مقال (أنا مع سيد قطب)، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٩٧٨، ٥ رجب ١٣٧١هـ/٣١ مارس ١٩٥٢م.

من القضايا النقدية واللغوية

المقياس الخلقي

في القضايا النقدية تدخَّل المقياس الخلقي عند الطنطاوي بحدة لمحاصرة الإبداع والمبدعين، وهو ما حوَّل النقد إلى نوع من المحاكمة الخلقية التي تؤدي إلى الحكم بالقبول أو الرفض، فقد دعا إلى عدم دراسة أشعار الماجنين، وإهمالهم؛ وبرر ذلك بقوله: «إذا كان الأدب لا يهتم بالأخلاق، ولا يمتنع من درس الأدباء الجادين والماجنين على السواء، فإن الأمة تهتم بأخلاقها، والأدب شيء كمالي، أما الأخلاق فهي سر حياة الأمم، (فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا)»[1].

وهو يعلن رأيه الأخلاقي فيقول: «أنا رجل مشتغل بالأدب، وأنا من خمس وخمسين سنة أكتب وأنشر، ولي صفحات لا يستطيع أعدى الأعداء أن ينكر أنها من جيد الأدب، وأنا مع هذا أقول: لعنة الله على الأدب، وعلى الشعر، وعلى الفن، إذا كان لا يجيء إلا بذهاب الدين، وفقد الشرف، وضياع العفاف، وهتك الأعراض»[2].

الإبداع:

---

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص٤٥، (مقالة في التحليل الأدبي).

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص٢٠٧، مقال (مع أستاذنا شفيق جبري).

يوازن الطنطاوي بين أبي فراس – مع إعجابه به - في قوله:

إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر

وقول المعري:

فلا نزلت عــليَّ ولا بأرضي سـحائبُ ليـسَ تنتظمُ البلادا

فيقول: «أبو فراس ينحط إلى أدنى دركات الأثرة والأنانية؛ لا يرتفع درجة فيهتم بأهل أو ولد، ولا يرتفع درجة أخرى فيهتم ببلد أو وطن، لا يبالي إلا بنفسه، فإذا مات عطشًا فلينقطع المطر وليحترق الزرع، ولتقفر الأرض، وليعم القحط، وليهلك القريب والبعيد، والصديق والعدو، ولا يبقى أحد. والمعري يرتفع إلى أعلى درجات الإيثار فلا يرضى أن ينزل المطر عليه، ولا على أرضه وحدها، فلا يرتضي إلا غيثًا عامًا يشمل خيره البلاد والعباد»[1]. وفي هذه الموازنة لا يلتفت الطنطاوي إلى الحالة النفسية التي كانت تكتنف الشاعرين حال قولهما هذين البيتين، بل يجتزهما من سياقيهما، ثم يصدر حكمه عليهما تحت سيطرة النزعة الأخلاقية، التي لا تبرر عنده أي انحراف في التعبير عن جادة الطريق التي رسمها الطنطاوي.

ويرى الطنطاوي أن في دراسة نقائض جرير والفرزدق أدبًا كثيرًا، وهي أنفع شيء في إقامة اللسان وتقوية السليقة، ولكنها توحي بتحسين الأعراف الجاهلية في الحياة، تلك الأعراف التي

(١) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ص٢٣١، مقال (الأدب والتربية).

إبطالها من جملة أغراض الإسلام.

ومن وجهة نظره أيضًا أن في شعر أبي نواس وبشار وأمثالهما أدبًا كثيرًا، ولكن فيه هدم للأخلاق ونشر للفساد، وفي شعر أبي العتاهية أدبًا كثيرًا، ولكن فيه قتل الطموح والاستسلام لليأس[1].

وهو لا يكتفي باستخدام سيف النقد الخلقي على الشعر القديم بل يتجاوزه إلى النثر القديم، فيقول: «إن خطبة زياد -مثلًا- من أبلغ الخطب، وخطبة الحجاج مثلها، وهما نافعتان في تقويم الملكة الأدبية؛ ولكن ما توحيان به سيئ جدًا، ففيهما إعلان خطة الظلم التي ينكرها الإسلام في أخذ البريء بالمجرم في خطبة زياد، وطريقة الاستبداد التي يأباها الدين في خطبة الحجاج»[2].

كما نراه يهاجم تحت عنوان (نداء إلى أدباء مصر) مضمونَ أدب جبران خليل جبران؛ لأنه يدعو إلى الرذيلة ويمجدها، ويقدم الآثام في ثوب من الأدب المزخرف الذي يغوي الناشئة. وينكر أشد الإنكار أن يكون الفن في تزيين الرذيلة؛ فيقول: «إن الذي أعرفه أن الفن هو الذي يبحث عن (الجمال) بحث العلم عن (الحقيقة) وأنه يدرك بالعاطفة كما يدرك العلم بالعقل. فمن قال: إن الجمال لا يكون إلا في الفحشاء والمنكر؟ أليس في تصوير الفضيلة جمال» [3].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٢٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٢.

(٣) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص١٩٨-١٩٩، مقال (نداء إلى أدباء مصر).

وفي المقابل يشيد الطنطاوي بالمنفلوطي الذي عارض[1] واحدة من قصص جبران، فأعاد صياغتها وأصلح معناها بما يتفق مع الفضيلة. فالأدب في رأي الطنطاوي له غاية وهي «تهذيب الطباع وصرف العواطف إلى الخير، وتنبيه الضمائر الغافلة، وإيقاظ الهمم والمروءات، وما إلى ذلك مما يكون منه نفع للناس»[2].

ويأتي هجومه على جبران وإشادته بالمنفلوطي في إطار توجه الكُتاب الملتزمين لإعاده لفت الانتباه إلى أدب المنفلوطي الملتزم والتنديد بأدب جبران؛ حيث يرى هؤلاء أنه قد «جرت محاولات لضرب أسلوب المنفلوطي بأسلوب جبران على فرق ما بينهما من نهج ومضمون، فأسلوب جبران هو أسلوب الخيال والإباحة والهدم ومعارضة الأخلاق والعقائد، وهو معارض لطبيعة النفس العربية والمزاج العربي، أما أدب المنفلوطي فقد كان موازيًا لهذه النفس، مستمدًا من أسلوب القرآن في الأداء، حتى قيل: إن قلب جيل كامل من دمشق إلى فاس قد خفق من خفقات قلب المنفلوطي»[3].

---

(١) المعارضة واحدة من فنون الشعر، لا القصة، وقد استعار الباحث هذا المصطلح في هذا السياق؛ لأنه الأقرب لما فعله المنفلوطي.
انظر: قصة (صراخ القبور) من كتاب (الأرواح المتمردة)، الأعمال الكاملة جبران خليل جبران «العربية»، ص ٩٧، مكتبة التربية، بيروت، وانظر: العبرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، ص ١٠٠ وما بعدها (قصة العقاب)، مكتبة مصر، القاهرة.

(٢) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص١٩٩، مقال (نداء إلى أدباء مصر).

(٣) إعادة النظر في ضوء كتابات العصريين في ضوء الإسلام، أنور الجندي، ص ١٦٨، دار الاعتصام، القاهرة.

وهو يقول في مقاله (نحن المذنبون): «لعنة الله على بيرون وبودلير، وعلى بشار وأبي نواس، وعلى من يفسد عليّ ديني، ويذهب بعرضي، ويحقر مقدساتي، ليقول كلامًا حلوًا»[1].

ويقول في نفس المقال ينتقد أحد مؤلفات توفيق الحكيم: «وشر من هذه الكتب كلها، كتاب (الرباط المقدس) لتوفيق الحكيم؛ لأنه دعوة صريحة للعبث بالأمانة الزوجية، وأن تشرك المرأة حبيبها مع زوجها في جسدها»[2].

- **المبدعون:**

لم يسلم المبدعون الذين انحرفوا عن جادة الطريق التي رسمها الطنطاوي من حدّة قلمه، ففي معرض ذكره لأبي نواس يتمنى لو أنه طوى الزمان ذكره، كما طوى ذكر الملايين من أمثاله، ليكف شره عن الناس[3].

وكان نزار قباني يوم أن أصدر ديوانه الأول (قالت لي السمراء) أحد ضحايا قلمه الحاد؛ حين كتب في مجلة الرسالة ساخرًا: «طبع في دمشق كتاب صغير زاهي الغلاف ناعمه، ملفوف بالورق الشفاف الذي تلف به علب (الشوكولاته) في الأعراس... فيه كلام مطبوع على صفة الشعر، فيه أشطار طولها واحد إذا قستها

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ٢٠٣، مقال (نحن المذنبون).
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٥.
(٣) انظر فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ٥٣ (هامش)، (مقالة في التحليل الأدبي).

بالسنتيمترات... يشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق القارح، والبغي المتمرسة الوقحة وصفًا واقعيًا، لا خيال فيه؛ لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مدلل غني، عزيز على أبويه... وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض، يختلط فيه البحر البسيط، والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو لأن الناس قد ملوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاث آلاف سنة وهم يقيمون عليه، فلم يكن بد من هذا التجديد»[١].

لقد وصف نزار قباني، هذا الكلام بأنه دموي، وقال: «إنه نموذج مصغر لواحد من الخناجر التي استعملت لقتلي، وصوت واحد من أصوات الطبول التي تحلقت حولي، ترقص رقصة الموت، وتقرع الطبول، وتتلذذ بأكل لحمي نيئًا» [٢].

كما يتجاوز الطنطاوي نقده الموضوعي عندما يختلف مع طه حسين حول موضوع الأزهر الشريف؛ فيقول: «وأنا أعرف أن طه حسين مولع بالخلاف، مذ كان طالبًا في الأزهر، فاستطال عليه طريق التحصيل، فتركه وقفز من فوق السطوح كي يبلغ الغاية بلا كد ولا تعب، إلى أن صار (شيئًا) كبيرًا يشار إليه بالبنان، ويعجب به الأغرار والشبان، وأنه ما نال من ذيوع الاسم، وعلو المنصب إلا بهذا، لا ببلاغة أسلوب، فأسلوبه أبعد الأساليب عن

---

(١) مقال (مقالات في كلمات)، علي الطنطاوي، العدد ٦٦١، ٣٠ ربيع الأول ١٣٦٥هـ/ ٤ مارس ١٩٤٦م.

(٢) قصتي مع الشعر (سيرة ذاتية)، نزار قباني، ص٨٩، ط١، ١٩٧٣م.

البيان المشرق، والمعنى البكر، والمجاز العبقري، ولا بتصرف في فنون القول، فليس له إلا ثوب واحد، للشتاء والصيف، والبيت والمدرسة، يخرج به إلى الشارع ويدخل به في الفراش، أسلوبه واحد للقصة (وما نجح في قصة قط) وللبحث وللوصف (وليس بالوصاف) وللمقالة السياسية، ولا بأثر خالد فكل آثاره من الأدب الوسط، ليس فيها أشباه (الأجنحة المتكسرة) على ضعف أسلوبها، ولا (في المرآة) على تكلفها، وليس له صناعة الزيات، ولا استعارة الرافعي، ولا سلاسة المازني، ولا طبع أحمد أمين، ولا فكر العقاد، ولا فتنة الجمال في أسلوب زكي مبارك»[١].

وعلى الرغم من ثناء الطنطاوي على المازني وزكي مبارك؛ فإنهما لم يسلما من قلمه ولسانه، فهو يتهم المازني بالسرقة كما اتهمه غيره[٢]، ويأخذ عليه «تهاونه في أمر دينه، وكلامه عن شرب الخمر كأنه يتكلم عن شرب الشاي»[٣]. كما يشن هجومًا على زكي مبارك ويتخذ من إدمانه للخمر أداة للهجوم[٤].

لكن الطنطاوي يعود عن هجومه على طه حسين جملة، ويذكر

(١) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص٢٥٦، مقال (ماذا يراد بالأزهر).

(٢) مثل عبد الرحمن شكري، انظر: ديوان المازني، ص ١٢٠، تقديم ومراجعة محمود عماد. حيث كان المازني يدافع عن نفسه في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه.

(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص٢٦، مقال (ظهور مجلة الرسالة).

(٤) المرجع السابق، ج٧ ص١٣٤، مقال (مصر قبيل أربعين سنة).

تلك المقالة التي كان يرد بها على طه حسين، فيقول: «وكان فيما قلت عنه، أن أسلوبه فيه كثير من التكرار الممل، ثم قرأت له كتابًا سماه ناشره (مذكرات طه حسين)، ولعله تتمة الجزء الأول من كتاب (الأيام)، فوجدت فيه – أشهد بالحق-، أسلوبًا بلغ الغاية في القوة، وأجمل ما فيه الجملة القرآنية، فهو يكثر منها، فلو أردت أن أرشد الطلاب إلى كتاب من كتبه، لأرشدتهم إلى هذا الكتاب، ونبهتهم إلى ما فيه مما لا يسيغه القارئ المسلم»[1].

وفي هذا الموقف يظهر جانب من جوانب شخصية الطنطاوي الانفعالية الآنية التي تتسم بالحدة في مواجهة المخالفين في الرأي، فتستغرق المخالفين جميعًا فلا تذكر لهم منقبة أو محمدة، ثم العودة بعد هدوء عاصفة المعركة إلى التأني في إصدار الأحكام القاسية. ولعل الطنطاوي في مقاله الأول قد سوغ لنفسه استخدام جميع أسلحته البيانية والفكرية لهدم فكرة طه حسين في محاولته لإلغاء الأزهر، التي رآها هجومًا على الإسلام وعلى رمز من رموزه العلمية.

القديم والجديد

تحدث الطنطاوي عن أدب الحداثة المنحرفة وليس عن الحداثة بمعنى التجديد؛ إذ كان الطنطاوي من دعاة التجديد في الحياة الأدبية، فيقول في معرض حديثه عن نازك الملائكة: «وقد نشرت أول العهد بها في الرسالة شعرًا نفيسًا، أثار إعجابنا وتقديرنا،

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨، ص٢٩٨، مقال (لغتكم يا أيها العرب).

لا هذا الشعر الذي سموه حرًا، أو شعر الحداثة، فهل يبقى الحدث حدثًا، أم يشب و يعقل.. وسموه حرًا، ومن الحرية ما هو فوضى، فإن رأيت الجند يمشون صفًا واحدًا مرتبًا منظومًا نظم اللآلئ في العقد.. فخرج واحد منهم على الصف وعلى نظامه، فمشى غير مشيتهم، وبسرعة غير سرعتهم.. أليس ما يسمونه بشعر التفعيلة، شعر تفعيلاته صحيحة الوزن، ولكن لا ارتباط بين أبياته ولا تناسق بينها.. و إن الشعر الحق هو الذي يثير الشجون، و يحرك العواطف، مع اتساقه في الآذان ومحافظته على الإيقاع»[١].

كما قال أيضًا: «رحم الله الأستاذ العقاد عندما كان رئيس لجنة الشعر، قدموا إليه بعض هذا الذي يسمونه شعر الحداثة، فأحاله إلى لجنة النثر؛ لأنه أراد أن يدخل مدينة الشعر بجواز سفر مزور، فرده إلى موطنه، ولولا أنه رحمه وأشفق عليه لأحاله إلى محكمة الجنايات بتهمة التزوير»[٢].

كما يقول في السياق نفسه: «إن علينا أن نقول الحق ولو على أنفسنا، والحق أن معاني الشعر الغربي «الفرنسي أو الإنجليزي» أوسع مدى وأكثر عمقًا، وأن ميزة شعرنا في النظم، في الموسيقى الشعرية، تلك الميزة التي يحاول هؤلاء أن يحرمونا منها»[٣].

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٣١٥، مقال (دروس الأدب في بغداد).

(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٣٣٤، مقال (عندكم نابغون فتشوا عنهم بين الطلاب).

(٣) انظر: المرجع السابق، ج٣، ص٣١٦، مقال (دروس الأدب في بغداد).

وقال في معرض حديثه عن كتب المطالعة: «جنبوا كتب المطالعة هذا الأدب الذي تسمونه يومًا بأدب الحداثة، ويومًا بالشعر المنثور، كما قال المازني -رحمه الله- مازحًا ساخرًا لما سألوه عنه. ويومًا بقصيدة النثر، وكل ذلك من مظاهر العجز عن نظم الشعر البليغ، كالثعلب لما لم يصل إلى عنقود العنب، قال: إنه حامض، واختاروا لهم مما يقوي ملكتهم العربية؛ لأن العربية والإسلام لا يكادان يفترقان.

ولقد حاقت بالعربية نكبات، واعترضت طريقها عقبات، ونزلت عليها من نوازل الدهر المعضلات، ولكن ما مر بها يوم هو أشد عليها وأنكى أثرًا فيها من هذا الأدب المزور الذي سموه بأدب الحداثة، إنه ليس انتقالًا من مذهب في الشعر إلى مذهب، ولا من أسلوب إلى أسلوب، ولكنه لون من ألوان الكيد للإسلام، بدأ به أعداؤه لما عجزوا عن مس القرآن، لأن الله الذي أنزله هو الذي تعهد بحفظه، فداروا علينا دوره، وجاءونا من ورائنا.

وكذلك يفعل الشيطان، يأتي الناس من بين أيديهم وعن أيمانهم ومن وراء ظهورهم، فعمدوا إلى إضعاف الإسلام بإضعاف العربية»[١].

ولم يكن رفض الطنطاوي للعبث في اللغة، وتمسكه بالتراث

(١) المرجع السابق، ج٨، ص٢٣٥، مقال (عندكم نابغون فتشوا عنهم بين الطلاب).

يعني أنه لا يقبل التطور في أساليب الكُتاب والأدباء، بل كان يرحب بذلك في إطار الالتزام بقواعد اللغة، فهو يعجبه ميخائيل نعيمة وأسلوبه الجديد، إلا أنه لا يرتضي تجاوزاته في حق اللغة وقواعدها، فيقول: «وأعجبني أسلوبه على ما فيه من مخالفة لقانون اللغة وقواعد العربية، لما حمل من الصور البيانية، والمجازات المستحدثة، والتشابيه التي لا نظير لها، والاستعارات التي لم تتحدث عنها كتب البلاغة؛ لأن علماءها لم يقرءوا مثلها، ولأنه أسلوب مستمد من قلب حي وخيال قوي، على حين أن من الأساليب ما يستمد من كتب اللغة، وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحًا بنفس عربي فيكون نادرة الأساليب ومفخرة الأدب. وهيهات»[١].

الغموض في الشعر

اتخذ الطنطاوي من الغموض في شعر الحداثة مدخلًا للهجوم عليهم، وساخرًا من أدبهم واصفًا مذهبهم بأنه من (الحدث الأكبر) الذي يوجب الغسل[٢]، مؤكدًا على أن العرب عرفوا نوعًا من الغموض، «ولكنه غموض يفتح آفاق الفكر، وينبه أذهان السامعين، كقول الشاعر:

---

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ١٩٧، مقال (نداء إلى أدباء مصر).

(٢) تابع الطنطاوي في سخريته من مذاهب التجديد والحداثة في عصره أمثاله من الأدباء المحافظين، من أمثال الأديب كامل كيلاني الذي وصفهم (بالمجددينات) وعندما سُئل عن هذا الجمع الغريب، قال إنه جمع مخنث سالم، انظر: مقدمة سنن الترمذي، أحمد محمد شاكر، ص٤٤.

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فذهب النقاد يبحثون عن هذا الذي كان يمكن أن يفعله وقول شوقي:

إن رأتني تميل عني كـأن لم تك بيـــني وبيـــنها أشـــياء

فذهبوا المذاهب في بيان هذه الأشياء، وأمثال ذلك كثير في الشعر»[1].

وقد عالجت بعض الدراسات مسألة الغموض في الشعر الحداثي، ورأت أن قدرًا من الغموض ضروري للشعر الجيد، على أن يكون غموضًا شفافًا[2]. أما الطنطاوي فقد رأى أن الغموض في هذا الكلام -الذي يستنكف أن يسميه شعرًا أو نثرًا- سلعة مستوردة من الغرب لا تمت بصلة إلى جذورنا العربية، وكثيرًا ما يفسر النقاد ويشرحون ما لم يقصده الشاعر نفسه، ويرجح الطنطاوي أن الحداثي نفسه ليس عنده شيء يريد أن يفهمنا إياه[3].

ولم يكن الطنطاوي بدعا في الهجوم على التوجه الحداثي، بل

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ ص٣٠٤، مقال (ذكريات العطلة الصيفية في دمشق).

(٢) انظر: الإبهام في شعر الحداثة، د. عبد الرحمن محمد القعود، (المقدمة) سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، الكويت، ط١، ٢٠٠٢م، العدد (٢٧٩).

(٣) انظر: المرجع السابق، ج٨، ص٣٠٣-٣٠٤.

هو واحد من طابور طويل من النقاد والدارسين[1]، بل إن بعضهم رأى أن فريق الحداثيين قد ضخموا في ذاتهم حتى صدقوا أن لديهم الكثير الذي يمكن أن يقدموه للأدب العربي، في حين استصغر أصحاب الفكر النقدي العربي أنفسهم، واستخفوا بتراثهم في مواجهة هذا الطوفان النقدي والأدبي الوافد[2].

وقد عاب الطنطاوي على وسائل الإعلام بصفة عامة والصحافة بصفة خاصة نشر مثل هذا الكلام الذي لا ينتمي إلى الأدب، فيصف في مقال (أنا والإذاعة) كيف أن الأدب صار ساحة لكل واحد يحمل قلمًا فيكتب ما يريد، «وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى، كلٌّ يدعيه، وكل من يستطيع أن يكتب كلامًا في ورقة، ويجد صفافًا يصف له حروفه، وصاحب جريدة ينشره، فهو كاتب بليغ، وكل من يأتي بلفظ موزون، أو شبه موزون فهو شاعر مفلق، وكل من يحفظ خبرًا عن أبي تمام والمتنبي أو هوجو أو لامرتين، أو

(١) انظر: سقوط الحداثة، محمد عبد الشافي القوصي، ط دار المريخ، والحداثة في ميزان الإسلام، عدنان النحوي، دار النحوي، الرياض، ط١، ١٩٩٤م. وغيرهما.

(٢) انظر: المرايا المحدبة «من البنيوية والتفكيك»، د. عبد العزيز حمودة ص ٧ (المقدمة). سلسلة عالم المعرفة، ع٢٣٢ الكويت، ١٩٩٨م. وأيضًا: المرايا المقعرة «نحو نظرية نقدية عربية». سلسلة عالم المعرفة ع ٢٧٢، الكويت، ٢٠٠١م. وقد كان ينبغي على الدكتور عبد العزيز حمودة أن يستبدل عنوان الكتابين أحدهما بالآخر؛ لأنه عدّ المرآة المحدبة هي التي تكبر الأشياء، والمرآة المقعرة هي التي تصغر الأشياء.

شكسبير أو ملتون، فهو أديب أريب، وكل من عاب كاتبًا كبيرًا بحق أو بباطل فهو ناقد محق. ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام، ويتكلم كما يتكلمون؛ ففكر تفكيرًا غير آدمي، وتكلم كلامًا ليس بإنساني، فهو شاعر رمزي، وإن في الرمزية متسعًا لجميع الأغبياء والأدعياء إذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون»[١].

وهو ما يفسره كلام د. وهب أحمد رومية بأن العجز عن مواجهة المذاهب النقدية العالمية المعاصرة، أدى إلى الاستسلام لها، ولكن النقد العربي المعاصر عد نفسه -مخادعًا للذات وتضليلًا لها- جزءًا من تلك المذاهب، فامتلأ بروح النخبة، وزُهي بشعور الاستعلاء الأرستقراطي[٢].

مذهب الفن للفن

تحدث الطنطاوي عن الأدبية مبينا رأيه في الأدب في معرض رده على الأستاذ شفيق جبري الذي كان من دعاة الفن للفن، وكان من قول الطنطاوي: «إن الأدب لا يجدي إن لم يكن أدب الحياة، ولا يكون أدب الحياة حتى يحكم صلته بها، وبداخلها، فيعرف مواطن الخير فيها فيدل عليها، وأماكن الشر فينفر منها».[٣]

---

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ١٧٧، مقال (أنا والإذاعة).

(٢) انظر: شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب أحمد رومية، ص ٧-٣٠ عالم المعرفة، ٢٠٧، الكويت، ١٩٩٦م.

(٣) ذكريات، ج٢، ص٢٠٦، مقال (مع أستاذنا شفيق جبري).

ويقول: «الأديب في الأمة لسانها الناطق بمحاسنها، الذائد عن حماها، وقائدها في مواطن فخرها، وذرى مجدها، فهو ذخر لها لا يعدله ذخر، وقصيدة أو مقالة تحررها أنملة أديب بليغ، مؤمن بما يقول، مخلص لما يدعو إليه، أنفع للأمة المظلومة، وأعون على نيلها حقها من مئة كمي مدجج بالسلاح... الأدب المنتج هو الذي يخدم القضية الكبرى ويربط ماضي الأمة بحاضرها، ويعينها على النجاح في مستقبلها، فإن كان هذا وإلا فسلام على أدب لا يقصد منه إلا التلهي واللذة، وسلام على أصحابه المخلصين العاملين!! واحذريهم أيتها الأمة فهم أعداؤك قبل أعدائك»[١].

الترجمة والتأليف

قسَّم الطنطاوي الترجمة الأدبية إلى مستويات؛ فكانت أمثال (رفائيل) و(آلام فارتر) للزيات، أو (تأبين فولتير) للمنفلوطي، هي الطبقة الأعلى من الترجمات الحديثة للآداب الغربية، وهو يرى أن لامارتين لم يكن ليكتب قصته ولا جوته كتب كتابه خيرًا مما كتبهما الزيات، ولو أن هوجو -صاحب الأنموذج الأكمل للإنشاء الخطابي في نظر الطنطاوي- كان عربيًا لما كتب (تأبين فولتير) أبلغ من المنفلوطي، ثم كانت الطبقة الثانية وهي طبقة جيدة لكنها دون الطبقة الأولى، مثل (عطيل) لمطران، و(مرجريت) لزكي، و(فاوست) لعوض.

(١) الأدب القومي، علي الطنطاوي ص ٥ وما بعدها، سنة ١٩٣٠م.

أما حزن الطنطاوي فكان لهذه الفوضى التي تعاني منها الترجمة في مثل الروايات التي يطلق عليها (روايات الجيب)؛ مثل (الأم) و(ذهب مع الريح) و(الفندق الكبير) وغيرها من الروايات العالمية التي لم يقيض لها الله من البلغاء من يقوم بترجمتها بأسلوب عذب بليغ[١].

ومن الملاحظ هنا أن الطنطاوي لم يكن يعني أو يعتني في قضية الترجمة بالأصل الأجنبي، بل يعني ببلاغة النص المترجم وصياغته، فالمنفلوطي الذي أعجب الطنطاوي ببلاغته في الترجمة لم يكن يعرف الفرنسية وإنما ترجمت له وصاغها بأسلوبه، ورأي الطنطاوي في بلاغة المنفلوطي وحسن أسلوبه ليس متفقًا عليه، فهناك من وقف له، وانتقد مؤلفاته نقدًا عنيفًا من ناحيتي الموضوع والأسلوب[٢]. بل إن الطنطاوي نفسه تراجع في ذكرياته عن إعجابه بالمنفلوطي حين يقول: «وما أحد ممن كان من لداتنا ومن أبناء عصرنا إلا متأثر يومًا بالمنفلوطي و«نظراته»، أما (العبرات) فأكثر قصصها بدائية مصطنعة، وليس من البراعة أن يموت الولد من المرض فتموت الأم من الحزن، ويموت الأب من الندم، ويموت

(١) فكر ومباحث، ص١٩٢، مقال (الترجمة والتأليف).

(٢) انظر: الديوان في الأدب والنقد، عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، ص ١١٧ وما بعدها، تقديم ماهر شفيق. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

أهل الحارة من البكاء»[1]. وهو في ذلك يتفق مع رأي المازني في العبرات وأسلوبها، وإن كان المازني يجعل من العبرات دليلًا على فساد أسلوب المنفلوطي جملة[2].

كذلك لم يكن الزيات يعرف الألمانية، ولكنه أخذ نص «آلام فارتر» من لغة غيرها إذ ترجمها عن الفرنسية، وصاغها الزيات ببيانه المشرق. ومع ملاحظة أيضًا أن الطبقة الثانية والثالثة عنده من المعروف أنها كانت تجيد اللغات الأصلية التي ترجمت عنها تلك الروايات، إلا أنها كانت أقل من الطبقة الأولى في البلاغة العربية.

وإذ لم يعرف عن الطنطاوي أنه كان على دراية بالألمانية، وهي السبيل الوحيد لتقدير الموازنة بين الأصل والترجمة، تبين أن الطنطاوي كان يعني بالنص المترجم فقط من حيث هو أصبح نصًا عربيًا خالصًا، لا من حيث جملة المعاني وتفصيلاتها؛ ومن ثم مقارنة النصين الأصلي والمترجم.

وهو يطالب بأن يتصدى البلغاء للترجمة؛ فيقول: «ونحن في الواقع لا نستغني عن الترجمة ولا نقل منها، ولكننا نسيء الاختيار، فندع الكاتب العبقري الفذ الذي يعد واحدًا من مائة كتاب هي خلاصة آداب الأمم كلها، وتترجم الكتاب الذي لا فائدة فيه، ثم

---

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣، ص٢٣٧.

(٢) انظر: الديوان في الأدب والنقد، عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، ص ١٤٣ وما بعدها.

نسيء التعبير فلا ننقل هذه الكتب إلى العربية، وإنما نضع في مكان ألفاظها الأعجمية ألفاظًا عربية، ولا يقدر على الترجمة الصحيحة إلا متمكن من اللغتين، بليغ في اللسانين، يقرأ الفقرة ثم يفهمها ثم يدعها تخالط روحه وتصير كأنها له، ثم يعبر عنها بلسانه، ويزينها بجمال بيانه»[١].

الحياة الأدبية في الشام

انتقد الطنطاوي الحياة الأدبية في الشام؛ فقال: «والحياة الأدبية في الشام أحوج ما تكون إلى المداواة والعلاج، إن كان في الشام حياة أدبية لها وجود، ولها آثار يستطيع الناقد أن يصفها ويتحدث عنها، وأنا أشك في وجود هذه الحياة، فلا أستطيع أن أجزم بوجودها؛ لأني لا أرى أي علاقة من علاقات الحياة في أدباء دمشق وأدبها، ولا أستطيع أن أنفيها لأن في دمشق أدباء كبارًا معروفين، ولأن دمشق -كما يعرفها الناس جميعًا- عاصمة من عواصم البيان العربي.. وإنما أقول إن أدباء دمشق في منزلة بين الموت الكامل، والحياة الصحية، هي كالسبات العميق والنوم الطويل!.. وإلا فما يصنع كتاب دمشق وشعراؤها؟ وأين هي منتجاتهم الأدبية؟ وهل يكفي شاعرًا أن يقول كل سنتين قصيدة واحدة تضطره إليها المناسبات اضطرارًا، ثم لا يكون في القصيدة أثر فيّ من نفسه، ولا تصف شيئًا من عواطفه؟ وهل يكفي الكاتب أن ينشر كل عام

(١) فكر ومباحث، ص١٩٣، مقال (الترجمة والتأليف).

مقالة تطلب منه، أو مقدمة كتاب يسأل كتابتها، وهو يرى كل يوم ما ينطق الصخر بالشعر، من مصائب الأمة ونكباتها، بل من همومه هو ومتاعبه، وما يشاهده في حياته في بيته، وحياته في عمله»[1].

وقد تحدث عن غلبة المذهب الرومانسي على الشعراء الشباب الشام، وهاجم ما فيها من السوداوية والتشاؤم واليأس والانزواء في الأبراج العاجية؛ فقال: «ولكن الغالب على أدبهم (المذهب الرومانسي)... وقد حملت على هذا المذهب بسلسلة من المقالات عنوانها (الأدب القومي) إلى أن قلت: مَن الذي حجب عن عينيك أيها الشاعر ملذات الحياة ومفارحها، ولم يرك إلا آلامها وأحزانها؟ لماذا ترى سواد الليل ولا ترى بياض الضحى؟ لماذا تصف بكاء السماء بالمطر في الشتاء، وتدع ضحك الأرض بالزهر في الربيع؟ لماذا تصور حشود المآتم، وتهمل حفلات الولادة، الدنيا ليل ونهار، وشتاء وربيع، وموت وولادة، إنها كالقمر، له جانب مظلم وجانب مضيء، فمن ملأ قلبه ظلام اليأس لم يرَ إلا الجانب المظلم مع أنه خفي لا يُرى...لا تعش لنفسك وحدها، بل عش لها ولأمتك، فكر بعقلها، اشعر بشعورها، وأدِ ما يجب عليك لها، أما أن تقول: هذا حبي وهذه عاطفتي، فاشتغلوا بها معي، فلا.. إن أدبك يكون إذًا مخدرًا للحس الوطني... حسبنا بكاء ويأسًا، ورثاء للماضي، وفزعًا مما يخبئ لنا المستقبل، كفى تبرمًا بالحياة، وشكوى منها، ودعونا

(١) ذكريات، ج٤ ص ٣٠٣، مقال (الحياة الأدبية قبل خمسين سنة).

من أدب لامارتين وموسيه»[1].

من معاركه الأدبية

يقول الطنطاوي عن حياته: «كان فيها الكثير من المعارك؛ كمعركة الرافعي والعقاد بين العريان ومحمود شاكر وسيد قطب، فأصابني سيد رحمة الله عليه وأصبت منه. ثم معركة «القصص الفني في القرآن» التي أثرتها على خلف الله وأستاذه الشيخ أمين الخولي، الذي وقفت معه من أجلها أمام المحكمة»[2]. وقد عرف عن الطنطاوي حدة نقده، وخشية الكُتاب، خاصة كتاب الرسالة من غضبه وتربصهم به وبكتاباته[3].

- **القصص الفني في القرآن:**

كان موضوع «القصص الفني في القرآن» واحدًا من المعارك الشرسة التي خاضها الطنطاوي عندما كان مسئولًا عن تحرير مجلة الرسالة أثناء غياب الزيات، حيث انتقد أطروحة الرسالة التي تقدم بها الأستاذ محمد أحمد خلف الله، المعيد بكلية الآداب

(١) المرجع السابق، ج٢ ص٢٨٩، مقال (الشعر والأدب عند أساتذتنا ورفقائنا).

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص٢٧٦، مقال (معركة دروس الديانة في المدارس في الشام).

(٣) انظر مقال (علي الطنطاوي وكتابه في بلاد العرب)، بقلم الأستاذ صلاح الدين المنجد، مجلة الرسالة، العدد ٣٣٩ ، ٢١ذو القعدة ١٣٥٨هـ/١ يناير١٩٤٠م.

بجامعة فؤاد الأول والتي حملت نفس العنوان، وقد أعدها الطالب بإشراف الأستاذ أمين الخولي ومعاونته، وألفت لجنة من الأستاذين أحمد الشايب وأحمد أمين للنظر في صلاحية الرسالة للمناقشة.

وقد رفض الأستاذان أحمد أمين وأحمد الشايب الرسالة، فوصفها أحمد أمين: بأنها ذات جهل صريح، ووصفها أحمد الشايب: بأنها ذات كفر صريح، أما الطنطاوي فقال: إنها ذات جهل وكفر معًا؛ لأن الجهل لا يأتي إلا بالكفر[1].

وكان حنق الطنطاوي على الشيخ أمين الخولي أكثر من حنقه على صاحب الرسالة؛ لأن الخولي عندما علم بتقريري الأستاذين أمين والشايب، واللذين تضمنا رأيهما بأنه لا يجوز أن تعرض رسالة تتضمن هذه الآراء للمناقشة في لجنة الدكتوراه، فرد عليهما الخولي بتقرير قال فيه إنه متضامن مع مقدم الرسالة في كل حرف منها، وإنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر[2].

ويربط الطنطاوي بين رسالة خلف الله وكتاب الشعر الجاهلي لطه حسين، إلا أنه يصف الباحث بأنه ليس من أهل العقول الكبيرة والبحث العلمي مثل طه حسين، فليس لديه القدرة على شغل الناس

(١) انظر: مقال (تعليق مختصر على خبر)، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد٧٢٤، ٧ ذو القعدة ١٣٦٦هـ/٢٢ سبتمبر ١٩٤٧م. وانظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ ص١٨٤.

(٢) وانظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ ص١٨٣، مقال (معركة أدبية كانت نتيجتها دعوى قضائية).

مثل طه حسين الذي ملأ اسمه الدنيا، ويقول الطنطاوي: «أحب أن يكون مثله، وشتان بين الرجلين»[١].

ووجه التشابه والتقليد هو أن طه حسين ذكر أنه «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»[٢].

أما محمد أحمد خلف الله فقد رأى -حسب تقرير الأستاذ أحمد أمين الذي نشر نصه الطنطاوي في الرسالة- «أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي، وإنما تتجه كما يتجه الأدب في تصوير الحادثة تصويرًا فنيًا، بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد مثل أن البشرى بالغلام كانت لإبراهيم أو لامرأته... والقرآن يقرر أن الجن تعلم بعض الشيء، ثم لما تقدم الزمن قرر القرآن أنهم لا يعلمون شيئًا، والمفسرون مخطئون حين يأخذون الأمر مأخذ الجد»[٣].

وقد توالت كتابات الطنطاوي مثل غيره[٤] في الهجوم على

(١) المرجع السابق، ج٦، ص١٨٤.

(٢) في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص ٣٩٩، مجلة القاهرة، العدد ١٥٩، فبراير ١٩٩٦م.

(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ ص١٨٨، مقال (معركة أدبية كانت نتيجتها دعوى قضائية).

(٤) انظر: مقال (الكلمة الأخيرة)، عبد الرحمن بدوي، مجلة الرسالة، عدد ٣٠ذي الحجة ١٣٦٦هـ/١٤ نوفمبر ١٩٤٧م. ومقال (مستقبل الأدب)، علي العماري، ١٤ ذي القعدة ١٣٦٦هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٩٤٧م.

الخولي وتلميذه، حتى انتهت مع كل واحد منهما في طريق، فأما التلميذ فقد انتهى الأمر بأن أقر عميد الآداب الدكتور عبد الوهاب عزام بأن ما جرى لا يتجاوز أن طالبًا قدم رسالة عن القصص الفني في القرآن لينال بها درجة دكتور، ردتها لجنة الفحص، فهي رسالة بين طالب وأساتذته، عرض عليهم رأيه فعرفوه خطأه»[1].

ويرى الدكتور محمد رجب البيومي أن هذه المعركة قد آتت جدواها الصحيحة النافعة؛ لأن الباحث حين طبع الرسالة في كتاب مستقل حذف كثيرًا مما كان موضع الاعتراض، وعمل على ظهورها في وضع أقل اعتسافًا[2].

وأما أستاذه الشيخ الخولي فقد رفع على الطنطاوي دعوى تشبه السب والقذف، ألزم القاضي فيها علي الطنطاوي بأن ينشر بيانًا يصلح به ما أفسده ويبرئ به الشيخ مما اتهمه، فكتب الطنطاوي في الرسالة بيانًا جاء فيه: «وأنا ما كتبت ما كتبت لأنال من الشيخ أمين الخولي، الأستاذ في كلية الآداب، وما بيني وبينه صلة ولا عرفة، ولم أرَ وجهه إلا مرة واحدة منذ أسبوع، فلا يعقل أن يكون قصدي تحقيره هو بذاته، أو ذمه والقدح به، فإذا فهم أحد من الذي

---

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ص١٩٢. ومقال (الكلمة الأخيرة)، عبد الرحمن بدوي، مجلة الرسالة، عدد ٣٠ذي الحجة ١٣٦٦هـ/١٤ نوفمبر ١٩٤٧م.

(٢) مقال (علي الطنطاوي في صحافة مصر)، د. محمد رجب البيومي، مجلة الأدب الإسلامي (عدد خاص عن الشيخ علي الطنطاوي).

كتبته أنني أرمي إلى هذا فأرجو أن يصحح فهمه، وأن يعلم أني لا أبخس عالمًا قدره، ولا أجحد فاضلًا فضله.

ولكن قصدي مما كتبت الدفاع عن الدين والعلم، وقد وقفت على هذا قلمي ولساني، وإن كان في الدنيا من يخطر على باله أنه يستطيع أن يكفني عنه، أو يمنعني منه، بشكوى أو بدعوى، أو بترغيب أو بترهيب، أو باستبراء أو بعداء، فإنه يمني نفسه بالمحال»[١].

- **المدائح النبوية:**

كان موضوع المدائح النبوية أحد عناوين التي ثارت تحتها معركة أشعل فتيلها الطنطاوي بمقال له، إذ خالف الرأي السائد بجودة قصيدة البوصيري الميمية في مدح الرسول ﷺ، فثارت الأقلام ضد رأيه ومذهبه. وقصيدة البردة[٢] تعد أهم القصائد بين المدائح النبوية فهي في نظر بعض النقاد أولًا قصيدة جيدة، وهي

(١) مقال (بيان)، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد (٧٤٦)، ٦ ذي الحجة، ١٣٦٦هـ/٢٠ أكتوبر ١٩٤٧م.

(٢) قال الشيخ محمد أمين الشنقيطي: إن المشهور على ألسنة العامة تسمية ميمية الإمام البوصيري البردة، مع أن اسمها البرأة؛ لأنه كان مريضًا، ولما أنشأها شفاه الله تعالى، والبردة اسم قصيدة زهير بانت سعاد؛ لأنه ﷺ خلع عليه بردته». مقال (الإمام البوصيري وغزارة العلم)، سماحة قاضي القضاة محمد أمين الشنقيطي، مجلة هدى الإسلام الأردنية، ص ٥، العدد ٥، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

ثانيًا أسير قصيدة في هذا الباب، وهي ثالثًا مصدر الوحي لكثير من القصائد التي أنشئت بعد البوصيري[1].

فالطنطاوي يرى أن الشعراء قصروا في مديح النبي ﷺ، فكل ما مدح النبي به ﷺ في نظر الطنطاوي لا يعدل من الجهة الفنية والأدبية ما في مدائح شاعر واحد كأبي تمام مثلًا، وأن كل واحد من الشعراء المادحين من لدن حسان بن ثابت إلى شوقي لم يأت شعره في مدحه إلا متخلفًا عن سائر شعره[2].

أما البوصيري فهو يرى أنه من أصحاب القصيدة الواحدة، وليس بالشاعر المتعدد الجوانب الواسع الأفق، صاحب الديوان الذي طرق أبواب القول كلها حتى تستطيع المقابلة بين شعره هنا وشعره في غيره، وما له من مقطعات ليست بشيء يذكر، بالإضافة إلى أن الطنطاوي يستنكر بعض الأبيات التي يظهر فيها - من وجهة نظره- مخالفة شرعية؛ كقول البوصيري: (ومن علومك علم اللوح والقلم)[3]. وقوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

وقد تصدى عدد من الكتاب للطنطاوي مفندين أقواله، فمنهم من

---

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، ص ١٨٨، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (ذاكرة الكتابة)، ط١، ٢٠٠٣م.

(٢) انظر: مقال (مآخذ على مقال المدائح النبوية)، مجلة هدى الإسلام الأردنية، ص ٣٥، العدد ٤، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٦م.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٦.

انتصر لشعراء المدائح النبوية وعلى رأسهم حسان ثم البوصيري وشوقي، [١] ومنهم من دافع عن البوصيري في اتهامات الطنطاوي له بالمخالفات الشرعية، واتهم الطنطاوي بالخطأ وتجاوز الحد[٢]. ومنهم من حاول التوفيق وتقريب وجهات النظر بين الخصوم[٣].

جهوده اللغوية

كان من أبرز ما يميز علي الطنطاوي عشقه اللغة العربية، ودعوته المستمرة للتمسك بها، حتى كان يرى أن بقاء الأمم في بقاء لغاتها، وأن اللغة العربية هي ركن القومية الركين، وأنها أكمل لغات البشر، وأجودها مخارج، وأضبطها قواعد، ذات القياس المطرد، والأوزان المعروفة...الخ[٤].

وكانت له آراؤه في تيسير تعليم النحو وضرورة ذلك؛ لأن كتب

---

(١) انظر: مقال (الجواب على الكتاب) بقلم رئيس التحرير عبد الله القليقلي، المفتي العام. مجلة هدى الإسلام الأردنية، ص ٣٧، العدد ٤، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

(٢) انظر: مقال (الإمام البوصيري وغزارة العلم)، سماحة قاضي القضاة محمد أمين الشنقيطي، مجلة هدى الإسلام الأردنية، ص ٥، العدد ٥، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

(٣) انظر: مقال (على بيتي البوصيري)، للأستاذ بهجة البيطار عضو المجمع العلمي العربي في دمشق، مجلة هدى الإسلام الأردنية، ص ٣٩، العدد ٧، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

(٤) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ٥-١١، مقال (لغتكم يا أيها العرب).

النحو أتخمت بما لا يفيد من فلسفات لا طائل من ورائها، وقد أعلن في مقاله (آفة اللغة هذا النحو) تضامنه مع الأستاذ الزيات في أن النحو أصبح «علمًا عقيمًا، يدرسه الرجل ويشتغل به سنين طويلة ثم لا يخرج منه إلى شيء من إقامة اللسان والفهم عند العرب»[1]. وهو لم يكن بدعًا في قضية تيسير النحو هذه، فهذا هو الجاحظ يؤكد على أن الإكثار من النحو وتعليمه لذاته، إنما هو مضيعة لوقت الصبي عما هو أولى به[2]. كما أكد ابن خلدون أن تربية الملكة اللغوية تغنينا عن تعلم القواعد على اعتبار أن العلم بالقواعد هو علم بكيفية العمل وليس العمل؛ فيقول: وكذلك نجد كثيرًا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علمًا بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه، أو ذوي مودته، أو شكوى ظلامة، أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب، وأكثر من اللحن... وكذا نجد كثيرًا ممن يحسن هذه الملكة، ويجد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المفعول من المجرور، ولا شيئًا من قوانين العربية، فمن هذا تعلم أن الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة»[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢، مقال (آفة اللغة هذا النحو).

(٢) انظر: الرسائل، عمرو بن بحر الجاحظ، ص ٩٤٤، تحقيق عبد السلام هارون، الموسوعة الشعرية، الإصدار الثاني، طبعة إلكترونية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.

(٣) المقدمة، ابن خلدون، ص ٥٥٦، ط١، بيروت، دار القلم، ١٩٧٨م..

كما لفت الطنطاوي في مقاله الانتباه إلى كتاب (بغية الوعاة) للسيوطي الذي أشار فيه السيوطي إلى الأخطاء الشنيعة التي كان يقع فيها جهابذة النحو كالكسائي وابن خالويه ونفطويه والرماني وغيرهم[١].

وأعلن غير مرة الحرب على من ينادون بتنحية اللغة الفصحى وإحلال العاميات مكانها، وهو يسخر من دعاة العامية إذا استقام لهم الأمر ونالوا ما يدعون إليه بقوله: «وعندئذ يكون (شكوكو) أمير الشعراء الذين ندرس آثارهم في الجامعة، (وإسماعيل ياسين) من أمراء النثر، ويكون من تعبيرات النقد الجديدة أن نقول للكاتب المعقد الذي لا يفهم «إنه يكتب بالعربي» كما يقال في أوروبا عن الكاتب الفرنسي المحدث إذا أغرب وعقد: إنه يكتب باللاتيني»[٢].

لقد كانت للطنطاوي حماسة شديدة للغة العربية، فقد دافع عنها دفاعًا مجيدًا، أمام هجمات الأعداء ودعاوى المغرضين، فهو يرى أن «اللغة العربية معجزة الذهن البشري، وأعجوبة التاريخ في عصوره كلها، وإذا كان التاريخ يذكر ولادة كل لغة؛ ويعرف مراحل نموها، ومدارج اكتمالها، فإن العربية أقدم قدمًا من التاريخ نفسه»[٣].

---

(١) انظر: فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ١٣-١٨، مقال (آفة اللغة هذا النحو).

(٢) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٦٦، مقال (لو أقر المجمع).

(٣) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص ٨، مقال (لغتكم يا أيها العرب).

والذي ذهب إليه الطنطاوي في أن اللغة العربية قديمة قدم التاريخ مبالغ فيه، وإن كانت العربية تتميز بشيء من الثبات لا يتوافر للغات الأخرى، هذا الثبات الذي صنعه نزول القرآن باللغة العربية منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، «وإن أقصى عمر هذه اللغات في شكلها الحاضر، لا يتعدى قرنين من الزمان، فهي دائمة التطور والتغير، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة، تأخذ منها وتعطي، ولا تجد في ذلك حرجًا؛ لأنها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس، كما هو الحال في العربية»[1].

بل نراه يفخر باللغة العربية فخر الشعراء القدماء الذين يهجون غيرهم في سياق فخرهم بأنفسهم وأنسابهم حين يقول: «اللغة العربية أكمل اللغات، ما عرفها التاريخ إلا كاملة حتى تعجب من ذلك (أرنست رينان)، وهي أوسع اللغات، ولا يغرنكم أن في القاموس المحيط ستين ألف مادة، وفي لسان العرب ثمانين ألف، وأن المعاجم الإنجليزية فيها مئات الآلاف؛ لأن مثلنا ومثلهم مثل رجل له سبعة أولاد فقط، لكنهم خرجوا جميعًا من صلبه، وولدتهم امرأته، وآخر عنده مائة ولد، ولكنهم لقطاء وملمومون لمًّا من الملاجئ والشوارع»[2].

وهذا ما يفسر ملاحظة الطنطاوي بأن «إنجليزي القرن

(١) دراسات وتعليقات في اللغة، د.رمضان عبد التواب، ص٢٠٨-٢٠٩، مكتبة الخانجي، القاهرة.ط١، ١٤٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ج٨ ص١١٣.

العشرين يقرأ أدب إنجليز القرن السادس عشر، فلا يفهمه إلا بترجمان، ونحن نقرأ شعرًا عربيًا من ألف وأربعمائة سنة فنفهمه كما نفهم شعر شعرائنا اليوم»[1].

وهذا التصور الخاص للغة العربية ومكانتها بين اللغات قد لا يكون متفقًا عليه حتى عند علماء اللغة المخلصين للعربية - وإن كان مرده عند الطنطاوي إلى إيمانه بارتباط اللغة العربية بالإسلام؛ لأنها لغة القرآن- فمنهم من قال: «ولم نزعم في هذا كله أن العربية كانت بدعًا من اللغات، ولم نذهب إلى تفضيلها عليهن أو على كثير منهن انسياقًا وراء عاطفتنا الدينية أو شعورنا القومي، ولم نصدق الأسطورة الخيالية التي تحيط العربية بشيء يسمو على الفكر، ويعلو عن السحر، ويلحقها بالمعجزات، ويراها لغة عبقرية، أو يرى فيها عبقرية اللغات... ذلك بأنه لا سبيل إلى تفضيل لغة على أخرى...»[2].

وقد تجلى هذا الإعجاب باللغة العربية في كتابات الطنطاوي كثيرًا، سواء في استخداماته اللغوية التي مالت إلى الفصيح السهل والجميل المحبب من الألفاظ والتعبيرات، ومن خلال نظراته في الدرس اللغوي التي انتشرت في ثنايا مقالاته.

١. **تعريب الألفاظ:**

انتقد الطنطاوي ذلك الهجوم الكبير للألفاظ الأجنبية على

---

(١) من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص ١٤٢.

(٢) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ص٣٦٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٨٣م.

اللغة العربية؛ من ذلك قوله: «ما لشباب لبنان يتكلمون بلسان خليط، فيأتون بالفعل العربي، وبالفاعل الفرنسي، وبالمبتدأ الفرنسي، والخبر العربي، وما (للأوساط الراقية) في مصر، لا تنطق إلا الفرنسية، إي والله، وإن كلمتهم بالعربية لغة بلادهم؛ احتقروك، ولم يجيبوك. وما لنسائنا يحسبن أن (كالسون) الفرنسية أرق من (سراويل) العربية، و(إيشارب) أجمل من (وشاح)، و(روب دو شامبر) أحسن من (برد)، و(تايور) خير من (معطف)، و(أوروفوار) و(كود باي) أحلى من (في أمان الله) و (مع السلامة)، وما لتجارنا الذين لا يبيعون إلا للعرب، يكتبون لوحات مخازنهم بلغات الأجانب، أو يكتبون الكلمات الأجنبية بالحروف العربية (لوفيسيل) و(ساش موديل) و(روكسي) و(هافانا)» [(١)].

كما كان عشق الطنطاوي للغة العربية دافعًا له أن يتعرض لقضية الترجمة إلى العربية، وفي هذا الصدد تعرض الطنطاوي لترجمة النصوص الأدبية، كما تعرض للألفاظ الأجنبية المنتشرة في ثقافاتنا اللغوية الحديثة.

فأما عن ترجمة النصوص الأدبية الأجنبية فقد انتقد الطنطاوي ترجمة الروائع الأدبية الغربية، في سلسلة (روايات الجيب) من أمثال (ذهب مع الريح) و (الأم) و(الفندق الكبير) وغيرها. وهو يرى أن المترجم الأديب لا بد أن تكون له سمات خاصة،

(١) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ج١ ص ١٧٨، مقال (دفاع عن العربية).

فلا ينبغي أن يتصدى للترجمة إلا «قلم بليغ، بصير بمواقع الكلام، عارف بأوجه الدلالة في الألفاظ، له الحاسة الخفية التي يفاضل فيها بين الكلمات ويحسن انتقاءها، إذ رُبَّ كلمتين بمعنى، وبين إحداهما والأخرى مثل ما بين البلاغة والعي»(١).

أما من ناحية الألفاظ المفردة؛ فقد كان مؤمنًا بقدرة اللغة العربية على التعبير عن كافة الموجودات، حافزًا له على التعرض لأيِّ لفظة لا يراها مناسبة، فهو يرفض استخدام بعد الألفاظ المعربة، ويراها دخيلة، مثل (التليفزيون) الذي يطلق عليه في مقالاته (الرائي) (٢)، و(الراديو) الذي يسميه (الراد) (٣)، ويستبدل(الجوقة) بـ(الأوركسترا)، وإن كان يراوح بين اللفظين في بعض الأحيان(٤).

أما من حيث التعريب فهو لا يرضى عن تعريب بعض الألفاظ مثل تعريب كلمة الإنجليزية (Encyclopedia) إلى (دائرة المعارف)، ويود لو يقال عنها (مُعْلَم) على وزن (معجم) (٥). وكلمة (تكنولوجيا) التي سرت على الألسنة، وهي مؤلفة من كلمتين

---

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص١٩٣، مقال (الترجمة والتأليف).

(٢) انظر: تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٣٤.

(٣) انظر: صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص١٦٥، مقال (رمضان).

(٤) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٥ ص١٦٧، مقال (زيارة للموصل وإربل في بدء رحلتنا الطويلة). وأيضًا: رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٢٢١، مقال (الاحتفال بالمولد).

(٥) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص١٦٧، مقال (ذكريات عن الأساتذة والمشايخ).

يونانيتين، معناهما التقريبي علم الإتقان، فيرى الطنطاوي أن نقول بدلًا عنها (تقانة) على وزن نجارة وحدادة[1]. كما أنه يغرب كثيرًا عندما يحاول أن يعرب كلمة سبور (sport) إلى صبور[2]. كما ينتقد الكاتب ترجمة عنوان الكتاب الشهير (دع القلق وابدأ الحياة) لديل كارنيجي[3]، والذي ترجم عدة ترجمات أشهرها إلى العربية، وكان يرى أن المترجم أخطأ، «وكان ينبغي أن يقول (الهم) لا (القلق)»[4].

والحقيقة أن معظم ما تفرد به الطنطاوي من أفكار لم يجد صدى خارج مقالاته؛ نظرًا لأن الجهد اللغوي جهد جمعي، ينوء بحمله الفرد الواحد، والملاحظ أن مجامع اللغة العربية الحديثة قد أقرت جميع الألفاظ المذكورة آنفًا، وكان المبرر وفقًا لرئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة الدكتور إبراهيم مدكور أن ذلك يربط «لغة القرن العشرين بلغة الجاهلية وصدر الإسلام، وهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ في طريق تطور اللغة ونموها»[5].

---

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٦ ص٣٢، مقال (صلاة الاستسقاء المشهودة في الشام).

(٢) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ج٢ ص١٦٧، مقال (إلى شباب الأزهر).

(٣) انظر: دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، تعريب: عبد المنعم محمد الزيادي، مكتبة الخانجي، ط٣٥، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٤) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ص٢٣١، مقال (فلاح فلوريا).

(٥) المعجم الوجيز، الصفحة رقم (ز)، تصدير: د. إبراهيم مدكور.

٢. التأصيل اللغوي:

كان من مظاهر اهتمام الطنطاوي باللغة بصفة عامة واللغة العربية بصفة خاصة عملية (التأصيل اللغوي)، إذ كان يشرح في مقالاته جذور بعض الكلمات، فلفظة (سنغافورة) التي تطلق على ذلك البلد الآسيوي، معناها في لغاتهم (سينغا - أو سينا بور) أي ميناء الأسد[١]. كما يشرح للقراء أن (السريالية) أصلها (sur) أي فوق، و (Realite) الواقع[٢].

كذلك يذهب إلى أصول بعض الكلمات العربية مثل كلمة (الكحول)، حيث يرى أنه «لما كان عصر النهضة في أوروبا ترجمت الكتب العربية، فلم يجدوا في حروفهم (غينًا)، فقالوا عن الغول (الكَول) ثم جعلها الأتراك (الكحول)، وفي المعاجم الفرنسية نص على أن أصلها عربي، ولكنهم ظنوه من الكحل»[٣]. وهو ما يسميه علماء اللغة «سياحة الألفاظ»[٤].

وفي نفس الباب يشير إلى تعدد بعض الأسماء وهي اسم واحد

---

(١) انظر: صور من الشرق..في إندونيسيا، علي الطنطاوي، ص ٢٤٧، مقال (في الملايا).

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج١ ص١٢٣، مقال (أساتذتي في مكتب عنبر).

(٣) فتاوى، علي الطنطاوي، ص١٩٩.

(٤) انظر: التطور اللغوي، د. رمضان عبد التواب، ص ١٨٦، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩١م.

في الأصل، تسبب في تغير نطقها مرورها على ألسنة شعوب مختلفة، فـ «حنا ويوحنا وجان ويوهان وجوهان: كلها بمعنى يحيى»[١]، وأن مدينة إسطانبول هي (إسلام بول)، (أي بلد الإسلام) كما سماها محمد الفاتح[٢]. ويتمنى الطنطاوي أن تكون جميع الكلمات الأجنبية التي نتداولها ذات أصل عربي، فيتساءل عن كلمة (آلو) الأجنبية ويقول: «هل كلمة (آلو) أصلها (ألا) العربية التي يفتتح بها الكلام؟»[٣].

كذلك يذهب الطنطاوي إلى أن الإعدام «بمعنى الموت لم تعرفه العرب، وهو مولد ظهر على ألسنة المصنفين والمؤلفين، من القرن الثامن، والإعدام في اللغة الفقر، الذي عدم المال، والذي أعدمه المال هو الله، لذلك قيل له (المعدَم) بفتح الدال»[٤].

٣. **التصويب اللغوي:**

لم يكتف الطنطاوي باستخداماته الصحيحة للغة العربية، وإنما كان داعية إلى الاستخدام اللغوي الصحيح، وهو ينشر في هوامش مقالاته تصويبات لغوية، لاستخدامات مشهورة وأغلاط

(١) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٨ ص١٢، مقال (كتاب جديد أثار في نفسي ذكريات قديمة).

(٢) انظر: دمشق، علي الطنطاوي، ص٢٠، مقال (هذه دمشق)، وأيضًا: فصول اجتماعية، علي الطنطاوي، ص ١٢١، مقال (مرضى الوهم).

(٣) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص١١، مقال (احتراف الصحافة).

(٤) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٢٥٧، مقال (سلطانة الهند).

شائعة، أو يذكر بعض التنبيهات لمعاني الألفاظ المتداخلة، ويبين الفروق اللغوية بين الألفاظ، وهي ميزة اكتسبها الطنطاوي من قراءته للكتب القديمة.

فمن الاستخدامات الخاطئة الشائعة التي يشير إليها الطنطاوي تأنيث الرأس «مع أن العرب لا تؤنث الرأس، ولا ترأس الأنثى»[١]، وكذلك يؤنث البعض (المستشفى) وهي مذكر[٢]. كذلك يذكر للقراء أن الفصيح هو (الشرع) لا (التشريع)، ولكنه حرف تمكن من الألسنة والأقلام، والصواب أن نقول: (الشرع الجنائي)، ولم يرد في لغة العرب لفظ (التشريع) [٣].

كما يدعو الطنطاوي ألا نستخدم الفعل (أوقف)، لأن «وقف يتعدى بنفسه، ولم يسمع عن العرب (أوقف) [٤]. وهذا على الرغم من أن الفيروز أبادي قد أجاز التعدية بالهمز أو بالتضعيف، فقال: «وقفته وقفًا: فعلت به ما وقف، كوقّفتُه، وأوقفته»[٥]، كذلك أجازها ابن منظور، إلا أنه قال: «فأما أوقف فهي لغة رديئة»[٦].

---

(١) من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، ص٢٠، مقال (على غار حراء).

(٢) انظر: ذكريات، علي الطنطاوي، ج٢ ص٨٩، مقال (أطفال الصحراء).

(٣) انظر: فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ٢٤٩، مقال (إلى شباب الأزهر). وأيضا: ذكريات علي الطنطاوي، ج٨ ص١٩، مقال (إلى الأستاذ أحمد أبو الفتوح).

(٤) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص٥٠، مقال (تاجر حرب).

(٥) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة (وقف).

(٦) لسان العرب، ابن منظور، مادة (وقف).

ويقول عن عبارة (كل عام وأنتم بخير): «إذا لم يكن بد من هذا التعبير، فاحذفوا واو (وأنتم)، قولوا: كل عام أنتم بخير»[1].

والطنطاوي لا يقدس ما جاء به القدماء، ويرفض ما عداه، بل يدافع عن بعض التعبيرات الحديثة؛ مثل: كلمة (مجد) التي تجمع على (أمجاد) فيقول: «قصروا جمع (فعل) على (أفعال) على المعتل، مثل (أبيات وأسياف)، وقالوا لم يأت منه صحيحًا إلا كلمات دون العشر كـ (أفراخ وأخواتها) وقد استدرك المتأخرون على المتقدمين نحوًا من ثلاثين كلمة من الصحيح، فدل ذلك أنه يطرد في الصحيح والمعتل على السواء»[2].

كما أنه يغامر في ابتكار تعبيرات لم تصدر عن الأقدمين، فيقوم بتبريرها مثل قوله: «إذا جاز أن نقول: (يا ترى) فلم لا نقول: (يا تبصر)؟ فننجو من هذا الابتذال، ونأتي بجديد، والإعراب في كليهما واحد، فقدر لـ (يا) منادى وخاطبه»[3].

كما يقترح تعديل بعض التعبيرات المشهورة؛ كقوله: «أنا أرى أن نقول (قرن العشرين) بدلًا من قولهم (القرن العشرين)»[4].

(١) مع الناس، علي الطنطاوي، ص١٩١، مقال (حديث العيد). (هامش ط دار المنارة، جدة ١٩٨٩م، ولم يذكر هذا الهامش في طبعة المكتبة الأموية، ١٩٦٠م التي اعتمد عليها الباحث).

(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٢٧٤، مقال (شيخ من دمشق).

(٣) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص١٢٤، مقال (هند والمغيرة).

(٤) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ص٢٠٠، مقال (من ذكريات القلم). وانظر =

ويذهب أيضًا إلى أن الصحيح أن نقول: «مئة السنة» بدلًا من المائة سنة[1]، ويقول: «الأولى أن نقول: (عشر الثلاثين)، ولكني رأيتهم يقولون (الثلاثينات)، فقلت: إن لم يكن بد فلتكن (الثلاثينيات والأربعينيات) على النسبة إلى لثلاثين والأربعين»[2].

٤. **العامي الفصيح:**

تنبه نفر من أدباء الجيل الماضي - ومن بينهم الطنطاوي – إلى ضرورة تضافر الجهود في خدمة اللغة الفصحى، «فكانوا يدرجون في تضاعيف كتاباتهم كثيرًا من الكلمات العامية الشائعة على الألسنة، التي يتبادر إلى الذهن أنها غير فصيحة، بينما هي في حقيقة الأمر عربية فصيحة»[3].

وكانت للطنطاوي خبرة كبيرة بالعاميات المختلفة، فقام بالتعليق على كثير من الألفاظ الشائعة، وبين أنها من العامي الفصيح، فكلمة (أخنع) بمعنى أقل وأوضع[4]، (والهاون) من

= أيضًا: رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٤٨، مقال (أعظم قواد التاريخ القديم).

(١) مع الناس، علي الطنطاوي، ص١٦٦، مقال (رسالة).

(٢) ذكريات، علي الطنطاوي، ج٣ ص ٢٦٩ مقال (ليلة على سفح قاسيون).

(٣) ألفاظ عامية فصيحة، دكتور محمد داود التنير، ص١٢، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط١ ،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. (مقدمة بقلم الدكتور شوقي ضيف).

(٤) انظر: هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص١٩٧، مقال (من حديث الجهاد).

العامي الفصيح في الشام. وكلمة «(الضهور): جمع ضهر: وهي ظهر الجبل من عامي لبنان الفصيح»[1]. وكلمة (إزيَّك) المصرية عبارة عن كلمة (زي) أصلها (سيّ) وهو المثيل والشبه، ومنه قولهم (لا سيما فلان) [2]. و«(عيَّط) في الشام: صاح، وفي العربية كذلك تقريبًا، وفي مصر بكى»[3].



(١) قصص من الحياة، علي الطنطاوي، ص١٩٦، قصة (على ثلوج حزرين).
(٢) انظر: مع الناس، علي الطنطاوي، ص١٧٢، مقال (صور من تاريخنا العلمي).
(٣) في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، ص١٩٧، مقال (بين الزوجين).

خاتمة

على الرغم من تعدد الدراسات الأكاديمية مؤخرًا التي اعتنت بالشيخ علي الطنطاوي وإنتاجه الأدبي، فإن الباب لا يزال مفتوحًا أمام كثير من الدراسات الأخرى عن فنون الأدب المختلفة عنده وأسلوبه، وذلك لتنوع تجربته الأدبية وغزارتها وجودتها؛ فقد مارس الطنطاوي الكتابة طوال ستين عامًا، أبدع خلالها في كافة الأغراض النثرية تقريبًا، فكتب القصة والمسرحية والترجمة الذاتية والخاطرة والمقال.

كذلك، فلعل الزمن الذي عاصره الطنطاوي قد شهد مولد كثير من الكُتاب المتميزين، خاصة أولئك الذين مارسوا الكتابة في كبرى المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة والزهراء والفتح وغيرها، لكن الأضواء قد سلطت على عدد من رموز هذا الجيل، فبقي كثيرٌ منهم في الظل. وقديمًا طغت شهرة المتنبي على شعراء عصره، فعصف بهم الإهمال قرونًا، حتى قيض الله من يكشف عن أدبهم، ويسلط عليهم الضوء، فعرفهم الناس، وقدروا أدبهم حق قدره.

كما ينبغي التوجه لدراسة الأدباء (المنسيين) الذين يتحقق فيهم شرطا: الجودة والفنية. فقد تكون فيهم قمم لم تعرف، أو عرفت لكنها لم تدرس الدراسة الوافية، الأمر الذي تثري الساحة الأدبية

بالكشف عن أدباء وتيارات لم تنل حظها من الدراسة.

أيضًا نلفت إلى ضرورة العناية بتلك الدوريات الأدبية الراقية التي أسهمت في تشكيل العقل الأدبي والنقدي لجيل الرواد، ومن بينهم الطنطاوي، والذي بلغ ذروته في النصف الأول من القرن العشرين، كمجلات الرسالة والثقافة والهلال وأبولو وغيرها من الدوريات التي أثرت تأثيرًا كبيرًا في وجدان المبدع والمتلقي على السواء، حيث تستحق تلك الدوريات الدراسة من الناحية الأدبية أو من الناحية الإعلامية.

وقد كشفت كتابات علي الطنطاوي وغيره من كتاب جيله عن العلاقة الحميمة بين الإعلام والأدب منذ منتصف القرن العشرين حتى نهايته، لذا فإنه ينبغي دراسة طبيعة العلاقة بين الإعلام والأدب، في الماضي، وما آلت إليه هذه العلاقة من تدهور في ظل الثورة الإعلامية القائمة، وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المصادر والمراجع

- الإبهام في شعر الحداثة، د. عبد الرحمن محمد القعود، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، الكويت، ط١، ٢٠٠٢م، العدد (٢٧٩).
- الأدب المقارن «أصوله وتطوره ومناهجه» د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
- أدب المقالة الصحفية، د.عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربي، ط ٣، ١٩٦٤م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، كتاب الشعب، القاهرة.
- الأسس النفسية للإبداع الفني (في الشعر خاصة) تأليف د. مصطفى سويف، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٠م. (منشورات جماعة علم النفس التكاملي).
- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، رجاء جارودي، ترجمة قسم الترجمة بدار الغد العربي، ط٧، ١٩٩٦، دار الغد العربي، القاهرة.
- الإسلام والعروبة، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة /

بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

- الإسلام والعقل، الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٤.
- الإسلام كبديل، د. مراد هوفمان، ترجمة د.غريب محمد غريب، نشر مجلة النور الكويتية- مؤسسة بافاريا، ألمانيا، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الإسلام ومستقبل الحضارة، د. صبحي الصالح، دار الشورى، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- أساليب الغزو الفكري، د.علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، دار الاعتصام، القاهرة.
- ألفاظ عامية فصيحة، دكتور محمد داود التنير، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. (تقديم الدكتور شوقي ضيف).
- أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي، أنور الجندي، منشورات رابطة الجامعات الإسلامية، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- إعادة النظر في ضوء كتابات العصريين في ضوء الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام.بدون تاريخ.
- الأعمال الكاملة، بلند الحيدري، دار سعاد الصباح، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.

- الأعمال الكاملة، جبران خليل جبران «العربية»، مكتبة التربية، بيروت، بدون تاريخ.
- الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- أمير الشعر العربي في الجاهلية امرؤ القيس. دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه، تحقيق ودراسة علي إبراهيم أبوزيد، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الإنسان ذلك المجهول، أليكسس كاريل، شفيق سعد، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- أوراق ذابلة من حضارتنا، د.عبد الحليم عويس، دار الصحوة/ دار الوفاء، القاهرة، ط٣، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م.
- البحث الأدبي (طبيعته. مناهجه. أصوله. مصادره)، د. شوقي ضيف، ط دار المعارف، القاهرة، ط٦، بدون تاريخ.
- بحوث ومقالات في اللغة، د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
- التاريخ الإسلامي، د.أحمد شلبي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٩، ١٩٩٩ م.

- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٩٩١م.
- تجديد الدين: مدخل لتصحيح مسار الفقه والتصوف وعلم الكلام والتعليم الإسلامي، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- تجريد الأغاني، ابن واصل الحموي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الذخائر١٩٩٧/١٩٩٨م).
- تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، القاهرة، ط١٠، بدون تاريخ.
- التطور اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٤م.
- التعبير البياني: رؤية بلاغية نقدية، د. شفيع السيد، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- تعليم اللغة العربية (الأطر والإجراءات)، د. عبد اللطيف عبد القادر أبو بكر، ط الوراق، الرستاق-عمان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٣م.
- تفسير القرطبي، دار الريان للتراث - الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة،

القاهرة، ط٥، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- ثورة يوليو (بناء الدولة العصرية ١٩٥٢-٢٠٠٢م)، بدون مؤلف، وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، مصر. «إصدار خاص بمناسبة اليوبيل الذهبي لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م» ٢٠٠٢م.
جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
- جوانب من قضايا الأمة العربية، (الجزء الأول: في الاستعمار والاستشراق والصهيونية)، د.حلمي علي مرزوق، دار المعارف بمصر، الإسكندرية، ١٩٧١م.
- جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام، بالقاهرة، ١٩٨٥م.
- الحداثة في ميزان الإسلام، عدنان النحوي. دار النحوي للنشر،ط١، ١٩٩٨م.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- الحوار الأدبي حول الشعر، د. محمد أبو الأنوار، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.
- خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٤م.
- الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامة

الإثني عشرية، للسيد محب الدين الخطيب رحمه الله، المطبعة السلفية، القاهرة، بدون تاريخ.

- دراسات أدبية، عمر الدسوقي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، د.ت.
- دراسات وتعليقات في اللغة، د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٨٣م.
- دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، تعريب: عبد المنعم محمد الزيادي، مكتبة الخانجي، ط٣٥، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، ١٩٤٥م.
- ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. بدون تاريخ.
- ديوان ابن زيدون، تحقيق محمد سيد كيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٣، ١٣٥٨هـ/ ١٩٦٥م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط٥ (سلسلة ذخائر العرب).
- ديوان أبي نواس، تحقيق إسكندر آصاف، دار العرب، بيروت، بدون تاريخ.

- ديوان (الإمام علي)، جمعه وشرحه عبد العزيز سيد الأهل، دار صادر، بيروت. بدون تاريخ.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ديوان بشار بن برد، قرأه وقدم له، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت. بدون تاريخ.
- ديوان حسان بن ثابت، دار القلم للنشر، بيروت.بدون تاريخ.
- ديوان عنترة العبسي، تقديم وشرح محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
- الديوان في الأدب والنقد، عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، تقديم ماهر شفيق. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م .
- ديوان المازني، تقديم ومراجعة محمود عماد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ديوان المتنبي، تحقيق، د. محمد عبد المنعم خفاجي، سعيد جودة السحار، د.عبد العزيز شرف، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د.محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م
- الرافعي ونصف قرن من المعارك، محمد عبد الشافي القوصي،

بحث مقدم للملتقى الأدبي الأول لرابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة (ذو القعدة ١٤٢٤هـ- يناير ٢٠٠٤م).

- الرسائل، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الموسوعة الشعرية، الإصدار الثاني، طبعة إلكترونية، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.
- سقوط الحداثة، محمد عبد الشافي القوصي، ط دار المريخ، ٢٠٠٤م.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، د.ت.
- شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب أحمد رومية، عالم المعرفة، ع٢٠٧، الكويت، ١٩٩٦م.
- الشوقيات، أحمد شوقي، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، تحقيق: د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م. تحقيق: د.يوسف علي طويل.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، ط٣ ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- الصهيونية، فتحي الإبياري، دار المعارف، سلسلة (كتابك).
- عالم الإسلام، د.حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- العالم الإسلامي المعاصر، د.جمال حمدان، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦م.
- عبد الناصر والحرب العربية الباردة ١٩٥٨ـ١٩٧٠، مالكوم كير، ترجمة د. عبد الرءوف أحمد عمرو، الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٩٦)، ١٩٩٧م.
- العبرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، مكتبة مصر، ١٩٩٣م.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠، ١٩٩٩م.
- على هامش الأدب والنقد، علي أدهم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل ١٩٩٨م.
- علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٤، ١٩٩٢م.
- عن الثقافة، عبد المنعم الصاوي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦م.

- الغزو الفكري، محمد جلال كشك، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥م
- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهر ة، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- في الشعر الجاهلي، طه حسين، مجلة القاهرة، العدد ١٥٩، فبراير ١٩٩٦م.عدد خاص.
- في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط١١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- في النقد العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط ٧، بدون تاريخ.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- قراءة في فلسفة الحب عند الشيخ علي الطنطاوي، أحمد علي آل مريع، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- قصة الحضارة، ويل ديورانت، ٣/٣٢٠، ترجمة محمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- قصتي مع الشعر (سيرة ذاتية)، نزار قباني، ط١، ١٩٧٣م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ، بيروت، الطبعة الأولى.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة الإيمان بالمنصورة، ١٩٩٧م.

- ما هو الأدب، د. رشاد رشدي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا (٢-المجمعيون)، بقلم د.محمد مهدي علام «عضو المجمع»، بالاشتراك مع محمد عبد الحليم عبد الله، ضاحي عبد الباقي، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (ذاكرة الكتابة)، ط١، ٢٠٠٣م.
- المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٢م.
- مدخل إلى الأدب الإسلامي، د. نجيب الكيلاني، سلسلة كتاب الأمة (١٤)، جمادى الآخرة، ١٤٠٧هـ.
- مدخل إلى إسلامية المعرفة، د.عماد الدين خليل، إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة (٧)، ١٩٩٤م.
- مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة-بيروت، ط٤، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- المرايا المحدبة «من البنيوية والتفكيك»، د. عبد العزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٣٢، الكويت، ١٩٩٨م.
- المرايا المقعرة «نحو نظرية نقدية عربية»، د. عبد العزيز

حمودة. سلسلة عالم المعرفة ع ٢٧٢، الكويت، ٢٠٠١م.
- مستقبل الإسلام خارج أرضه.. كيف نفكر فيه؟، محمد الغزالي، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة والنشر والترجمة، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٤م.
- مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- المصطلحات الأربعة، أبو الأعلى المودودي، لاهور، باكستان، بدون تاريخ.
- مصطلحات فكرية، سامي خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (طبعة خاصة)، ١٩٩٧م.
- مصطفى صادق الرافعي (رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد)، مصطفى صادق الرافعي، تقديم ودراسة د. عبد القادر القط، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، القاهرة ١٩٩٤م.
- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- مقالات في النقد الأدبي، د. عبد الحميد إبراهيم، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت، دار القلم، ط١، ١٩٧٨م.
- من قضايا التراث العربي، (النقد والناقد)، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، بالإسكندرية.
- من مقعد الناقد، علي شلش، دار المعارف، ١٩٨٥م (سلسلة اقرأ).
- من وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م.
- موجز تاريخ العالم، هـ. ج. ويلز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الألف كتاب الثاني ٣١١)، ط٢، ١٩٩٩م.
- المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم، تقديم وتحرير الدكتور أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، (قضايا ومناقشات).
- ميلاد مجتمع، (شبكة العلاقات الاجتماعية)، سلسلة مشكلات الحضارة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، د.ت.
- النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، مكتبة مصر ، القاهرة، د.ت.
- نظرية الأدب، رينيه وليك، أوستن وارن، تعريب د. عادل

سلامة، دار المريخ، الرياض/القاهرة، ١٩٩١م.

- نظرية الثقافة، مجموعة من الكتاب، ترجمة د. علي سيد الصاوي، مراجعة د.الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٢٣ يوليو ١٩٩٧م.
- النقد الأدبي «أصوله ومناهجه»، سيد قطب، دار الشروق، ط٧، ١٩٩٣م.
- النقد العربي، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨٣م.
- هموم داعية، محمد الغزالي، دار البشير، القاهرة، ط٢، ١٤٠٥هـ.
- وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
- ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.
- الوسيط في شرح القانون المدني (في مصادر الالتزامات)، عبد الرزاق أحمد السنهوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د.أحمد بسام ساعي، دار المنارة للنشر، جدة، السعودية، ط١، ١٩٩٠م.

المقالات

- مجلة الأدب الإسلامي، (عدد مزدوج خاص عن الشيخ علي الطنطاوي)، العددان ٣٤و٣٥، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- مجلة الأربعاء(ملحق جريدة المدينة السعودية)، الأربعاء١٦ ربيع الأول ١٤٢٠هـ، ملف خاص عن رحيل علي الطنطاوي.
- مجلة الأزهر، المجلد الرابع، رجب ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.
- مجلة الأزهر، المجلد السابع، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.
- مجلة الأزهر، المجلد التاسع عشر، ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م.
- مجلة الثقافة، السنة السادسة، العدد٦٩، يونيو ١٩٧٩م.
- مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد٦، مارس١٩٧٤م.
- مجلة الثقافة، السنة الرابعة، العدد٣٩، مارس ١٩٧٤م.
- صحيفة الجزيرة السعودية، ٢٧ مايو ١٩٩٩م.
- مجلة الرسالة، العدد الأول، ١٨ رمضان هـ١٣٥١.
- مجلة الرسالة، العدد (٦٣)، ٨جمادى الثانية ١٣٥٣هـ/١٧ سبتمبر ١٩٣٤م.
- مجلة الرسالة، العدد (٦٧) ، ٦ رجب ١٣٥٣هـ/ ١٥ أكتوبر ١٩٣٤م.
- مجلة الرسالة العدد (١٠١) ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ.
- مجلة الرسالة، العدد(١٠٨)، ٢٨ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ/ ٢٩يوليه ١٩٣٥م.
- مجلة الرسالة، العدد (١١٠)، ٣ جمادى الثانية ١٣٥٣هـ/ ١٢

سبتمبر ١٩٣٥م.

- مجلة الرسالة، العدد (٢٤٨)، ٤ أبريل، ٣ صفر١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.
- مجلة الرسالة، العدد (٢٦٠)، ٢٨ ربيع الآخر ١٣٥٧هـ/ ٢٧ يونيه ١٩٣٨م.
- مجلة الرسالة العدد (٢٦١)، ٦ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ/ ٤ يوليو ١٩٣٨م
- مجلة الرسالة، العدد (٣٢٣)، ٢٧ رجب ١٣٥٨هـ/ ١١ سبتمبر ١٩٣٩م.
- مجلة الرسالة، العدد (٣٢٥)، ١١شعبان ١٣٥٨هـ/ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٩م.
- مجلة الرسالة، العدد (٣٣٩)، ٢١ذي القعدة ١٣٥٨هـ/١ يناير ١٩٤٠م.
- مجلة الرسالة العدد (٧٢٢)، ١٤ جمادى الآخرة ١٣٦٦هـ/ ٥ مايو ١٩٤٧م.
- مجلة الرسالة، العدد (٧٢٤)، ٧ ذو القعدة ١٣٦٦هـ/٢٢ سبتمبر١٩٤٧م.
- مجلة الرسالة، العدد (٧٢٥)، ١٤ ذي القعدة ١٣٦٦هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٩٤٧م.
- مجلة الرسالة، العدد (٧٤٦)، ٦ ذي الحجة، ١٣٦٦هـ/٢٠ أكتوبر ١٩٤٧م.

- مجلة الرسالة، العدد (٧٥٠) ٣٠ ذي الحجة ١٣٦٦هـ/١٤ نوفمبر ١٩٤٧م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٣)، ٣٠جمادى الأولى ١٣٧١هـ/ ٢٥ فبراير ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٤)، ٧جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/ ٣ مارس ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٥)، ١٤جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/١٠ مارس ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٦)، ٢١جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/١٧ مارس ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٧)، ٢٨جمادى الآخرة ١٣٧١هـ/٢٤ مارس ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٨)، ٥ رجب ١٣٧١هـ/٣١ مارس ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٧٩)، ١٢ رجب ١٣٧١هـ/ ٧ أبريل ١٩٥٢م.
- مجلة الرسالة، العدد (٩٨١)، ٢٦ رجب ١٣٧١هـ/ ٢١ أبريل ١٩٥٢م.
- صحيفة الشرق الأوسط، ١٠ أغسطس(آب) ٢٠٠٤م.
- مجلة الفتح، العدد ٤٠٥، السنة ٩، ١٣٥٣هـ
- مجلة الفيصل، العدد (١٥٨)، شعبان ١٤١٠هـ، مارس ١٩٩٠م.

- مجلة القاهرة، العدد (١٥٩)، فبراير ١٩٩٦م.عدد خاص.
- مجلة كلية اللغة العربية، المنصورة، العدد (١١)، ١٩٩١م.
- مجلة المسلم المعاصر، العدد (٣٧)، ١٤٠٤هـ.
- مجلة المسلمون، العدد الثالث، جمادى الأولى سنة ١٣٧١هـ.
- وزارة المعارف السورية، العدد (٦) السنة(١٩) سنة ١٩٦٦م.
- مجلة (المعرفة)، العدد(٥٠)، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.
- مجلة المعلم العربي (مجلة وزارة المعارف السورية)، العدد السادس، السنة الـ١٩، ١٩٦٦م.
- مجلة المنهل السعودية، العدد (٥٦١)، رجب ١٤٢٠هـ/أكتوبر ١٩٩٩م.
- مجلة النور الكويتية، طارق الحاج إبراهيم، عدد رجب ١٤٢٠هـ/تشرين الأول١٩٩٩م.
- مجلة هدى الإسلام الأردنية، العدد ٤، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٦م.
- مجلة هدى الإسلام الأردنية، العدد ٥، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
- مجلة هدى الإسلام الأردنية، ص ٣٩، العدد ٧، السنة الأولى، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
- صحيفة الوطن السعودية، العدد (١٥٠٢) ٢٦ رمضان ١٤٢٥هـ/٩ نوفمبر ٢٠٠٤م.

- مجلة الوعي الإسلامي العدد(٣٨٤) شعبان ١٤١٨هـ/ديسمبر ١٩٩٧م.

مواقع الإنترنت:

- مقال «الصراع العربي الإسرائيلي وجوانبه»، بقلم الدكتور أحمد ثابت، http://www.aljazeera.net/in-depth/arab_israel/2002/5/5.

- موقع اللادينيين العرب : www.ladeeni.net

البرامج الإلكترونية:

- مكتبة الموسوعة الشعرية، الإصدار الثاني، المجمع الثقافي، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٨- ٢٠٠٣م.

مؤلفات الطنطاوي

- أبو بكر الصديق، ط٣، دار المنارة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جدة.
- أخبار عمر، ط٨، المكتب الإسلامي، ١٩٨٣م، بيروت.
- أعلام التاريخ، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٢، جدة، السعودية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- بغداد، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة، السعودية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- تعريف عام بدين الإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط١١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- تعريف موجز بدين الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٢، جدة، السعودية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الجامع الأموي، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، جدة، السعودية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- حكايات من التاريخ، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.
- دمشق.. صور من جمالها وعبر من نضالها: ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
- ذكريات، الجزء الأول، ط٢، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ذكريات، الجزء الثاني، ط٢، دار المنارة للنشر والتوزيع،

جدة، السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

- ذكريات، الجزء الثالث، ط٢، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ذكريات، الجزء الرابع، ط٢، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ذكريات، الجزء الخامس،ط٢، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ذكريات، الجزء السادس،ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ذكريات، الجزء السابع، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٧م.
- ذكريات، الجزء الثامن، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٧م.
- فهارس ذكريات علي الطنطاوي، إعداد أحمد العلاونة، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- رجال من التاريخ، ط٨، دار المنارة، جدة، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- رسائل الإصلاح، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.
- رسائل سيف الإسلام، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.
- روائع الشيخ علي الطنطاوي، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، السعودية، جمع وإعداد (إبراهيم مضواح الألمعي)،

١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- صور وخواطر، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٢، جدة، السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي،(تعليق وتقديم وتحقيق بالاشتراك مع ناجي الطنطاوي)، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٥، جدة، السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- فتاوى علي الطنطاوي، (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية) دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة، السعودية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- فتاوى علي الطنطاوي، المجموعة الثانية، (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية) دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، جدة، السعودية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- فصول اجتماعية. (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية) دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، جدة، السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- فصول إسلًامية، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة، السعودية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- فكر ومباحث، المكتبة الأموية، دمشق، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- في إندونيسيا: صور من الشرق، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، جدة، السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- في بلاد العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م.
- في سبيل الإصلاح، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة، السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- قصص من التاريخ، ط٥، دار المنارة، جدة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- قصص من الحياة، ط٥، دار المنارة، جدة، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- مع الناس، المكتبة الأموية بدمشق، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- مقالات في كلمات (الجزء الأول)، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة، السعودية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- مقالات في كلمات (الجزء الثاني)، (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية) دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، جدة، السعودية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- من حديث النفس، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
- من نفحات الحرم، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- قصتنا مع اليهود، ط٣، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، السعودية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- قصة حياة عمر، ط٢، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، السعودية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- محمد ﷺ سيد رجال التاريخ. (جمع وترتيب حفيده مجاهد مأمون ديرانية) ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

- محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، دمشق، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
- مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، (جمع وترتيب وتقديم مجد مكي)، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، السعودية ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- هتاف المجد، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٣، جدة، السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الهيثميات، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.

بيانات المؤلف

ياسر محمد غريب

- مواليد محافظة الشرقية - مصر.
- حصل على دكتوراه الألسن في اللغة العربية (دراسات أدبية) ٢٠١١- جامعة عين شمس.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي.
- عمل في مجال الكتابة والصحافة.
- له عدد من البحوث والدراسات في الأدب والفكر الإسلامي.

الفهرس